
دراسات تاريخية
من
القرآن الكريم
(٤)
في العراق
دكتور
محمد بيومي مهران
دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

دراسات تاريخية من القرآن الكريم

(٤)

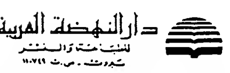
في العراق

دكتور
محمد بيومي مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت - ص.ب ١١-٧٤٩

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



* الإدارة : بيروت ، شارع مدحت باشا ، بناية كريدية ، تلفون : ٣٠٣٨١٦/ ٣٠٩٨٣٠/ ٣١٢٢١٣
برقياً : دانهضة ، ص . ب ٧٤٩-١١
تلكس : NAHDA 40290 LE
29354 LE

* المكتبة : شارع البستاني ، بناية اسكندراني رقم ٣ ، غربي الجامعة العربية ، تلفون : ٣١٦٢٠٢

* المستودع : بئر حسن ، تلفون : ٨٣٣١٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين،
سيدنا محمد وآله

تقديم

بفضل الله ونعمته، نقدم هذا الجزء الرابع من سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، وقد خصصناه للأحداث التاريخية التي جاء ذكرها من القرآن الكريم، وكان مجالها أرض العراق الطيبة.

وقد تحدثنا في الباب الأول منه عن سيرة سيدنا نوح عليه السلام، وعن قصة الطوفان المشهورة، كما جاءت في آثار بلاد الرافدين، فضلاً عن التوراة والقرآن الكريم.

هذا وقد خصصنا الباب الثاني لسيرة أبي الأنبياء، سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في العراق، بعد أن تحدثنا عن سيرة الخليل العطرة، صلوات الله وسلامه عليه في الشام ومصر والحجاز، في بعض فصول الأجزاء السابقة.

وكان الباب الثالث مخصصاً لسيرة سيدنا يونس علي السلام، والذي

تذهب المراجع إلى أنه أرسل هادياً وبشيراً لأهل نينوى من أرض الموصل بالعراق .

والله تعالى أسأل أن يكون في هذه الدراسة ، بأجزائها الأربعة بعض النفع ، وأن يتقبلها ، سبحانه وتعالى ، خالصة لوجهه الكريم .

«وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب»

دكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

الإسكندرية في ١٥ ربيع الآخر عام ١٤٠٨ هـ
٧ ديسمبر عام ١٩٨٧ م .

الباب الأوّل

سِيرة نوح عَلَيْهِ السَّلاَم



الفصل الأول

دعوة نوح عليه السلام

(١) **نوح عليه السلام**: - نوح عليه السلام نبّي الله ورسوله، شيخ المرسلين، وأول رسل الله إلى الأرض، وأطول الأنبياء عمراً، وأكثرهم جهاداً، وأحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء في آيتين من القرآن الكريم، وهما قوله تعالى: **﴿وإذا أخذنا من النبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم، وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾**[١]، وقوله تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن اقيموا الدين ولا تفرقوا فيه﴾**[٢].

وقال الإمام البيضاوي في نفسيره: خصّهم الله (أي أولى العزم الخمسة) بالذكر، لأنهم أولو العزم، ومشاهير أرباب الشرائع، وقدّم نبينا ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب: آية ٧.

(٢) سورة الشورى: آية ١٣، وانظر: تفسير القرطبي ص ٥٨٢٩ - ٥٨٣٠، تفسير ابن كثير ٧/ ١٨٢ - ١٨٣، تفسير النسفي ٤/ ١٠٢.

(في آية الأحزاب) تعظيماً له، وتكريماً لشأنه[1]، وروى أبو بكر البزار عن أبي هريرة قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وخيّرهم محمد، ﷺ[2].

هذا وقد وردت قصة نوح عليه السلام في القرآن الكريم في ثلاثة وأربعين موضحاً، وإن ذكرت بشيء من التفصيل في سورة الأعراف وهود والمؤمنون والشعراء والقمر ونوح[3].

هذا وقد لبث نوح في قومه - بنص القرآن الكريم - ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: **﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾**[4].

وقد اختلف المفسرون في مبلغ عمر نوح عليه السلام، فقيل مبلغ عمره ما ذكره الله تعالى في كتابه، قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة، وقال ابن عباس: بعث نوح لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنة، حتى كثر الناس وفشوا، وعنه أيضاً: أنه بعث وهو ابن

---

(١) تفسير البيضاوي ١/ ١١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٧٤٨ (ط بيروت ١٩٨٦).

(٣) انظر: سورة آل عمران. والنساء (آية ١٦٣) الأنعام (٨٤) والأعراف (٥٩, ٦٩) والتوبة (٧٠) ويونس (٧١ - ٧٣) وهود (٢٥ - ٤٨) وإبراهيم (٩) والإسراء (٣، ١٧) ومريم (٥٨) والأنبياء (٧٦ - ٧٧) والحج (٤٢) والمؤمنون (٢٣ - ٣٠) والفرقان (٣٧) والشعراء (١٠٥ - ١٢٢) والعنكبوت (١٤ - ١٥) والأحزاب (٧) والصافات (٧٥ - ١٦) والحديد (٢٦) والتحريم (١٠) وكذا سورة نوح.

(٤) سورة العنكبوت: آية ١٤، ويقول الإمام الفخر الرازي في التفسير الكبير (٢٥/ ٤٢) وفي قوله تعالى: **﴿وهم ظالمون﴾** إشارة لطيفة، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم، ولهذا قال تعالى: **﴿وهم ظالمون﴾** يعني أهلكم وهم على ظلمهم.

مائتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتي سنة، وقال وهب: عمّر نوح ألفا وأربعمائة سنة، وقال كروب الأحبار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً، فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً، وقال عون بن أبي شداد: بعث نوح، وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة، فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة وخمسين سنة، ونحوه عن الحسن (أي الحسن البصري)[1].

(٢) **معبودات قوم نوح**: ـ تعرض القرآن الكريم لمعبودات قوم نوح في قوله تعالى: **﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوف ونسراً﴾**[2]، وهكذا يبيّن لنا القرآن الكريم أن الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح، هي ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وهي من أقدم الأصنام[3] التي عبدت قاطبة، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق، وأن ذلك

---

(١) تفسير القرطبي ص (٥٠٤٨ ـ ٥٠٤٩) (ط الشعب ـ القاهرة ١٩٧٠).

(٢) سورة نوح: آية ٢٣.

(٣) يرى علماء اللغاة أن كلمة «الأصنام» ليست عربية أصيلة، وإنما هي معربة من كلمة «شنم»، ورغم أنهم لم يذكروا لنا اسم اللغة التي عربت منها، فربما كانت من الأرامية «صلموا» أو العبرية «صلم»، وعلى أية حال، فإن الكلمة قد وردت في النصوص العربية الجنوبية تحت اسم «صلمو»، بمعنى «صنم»و «تمثال»، وفي الكتابات العربية الشمالية من أعالي الحجاز، تحت اسم «صلم» كاسم لإله علم ازدهرت عبادته في «تيماء» حوالي عام ٦٠٠ ق. م، هذا ويبدو أن العرب كانوا يفرقون بين الأصنام والأوثان، فالصنم، فيما يرى علماء اللغة، هو ما اتخذ إلَهاً من دون الله، وما كان له صورة كالتمثال، وعمل من خشب أو ذهب أو فضة أو وعرّف بعضهم الصنم بأنه ما كان له جسم أو صورة، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو «وثن»، وأما «ابن الكلبي» فالتمثال عنده إذا كان معمولاً من خشب أو ذهب أو فضة أو غيرها من جواهر الأرض في صورة الإنسان فهو «صنم»، وإذا كان من حجارة فهو «وثن» وأما النصب فهي حجارة غفل ليست على صورة معينة تجرى عليه قبيلة من القبائل أوضاع العبادة لما تزعمه من أصلها السماوي، إن كانت حجراً بركانياً أو ما يشبهه، ولعل أدق الأصنام صنعاً ما =

يرجع إلى ما قبل طوفان نوح، وذلك حين صوّر القوم بعض الصالحين منهم، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكراهم والاقتداء بهم، ثم بعد ذلك عبدوا هذه الصور، وتلك التماثيل[1].

هذا ويحاول بعض الباحثين إيجاد صلة بين المعبودين الوثنيين، «ود» العربي، و «إيروس» اليوناني، وأن الأول مستورد من بلاد اليونان، إلا أن هناك في الوقت نفسه من يعارض هذا الاتجاه، لانتفاء التشابه بينهما[2]، كما أن «ود» هذا هو إله «معين» الكبير، فضلاً عن أنه قد عرف منذ ما قبل الطوفان، كما أشار القرآن الكريم، بين قوم نوح عليه السلام.

وعلى أية حال، فالذي لا شك فيه أن هذه الأصنام إنما كان يعبدها قوم نوح عليه السلام، روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب[3]، أما ود كانت لكلب

كان لأهل اليمن، ولا عجب، فخطهم من الحضارة لم يعرفه أهل الحجاز، ولا عرفه أهل نجد وكندة.

انظر: القاموس المحيط ٤/ ١٤١، ٢٧٤، اللسان ١٢/ ٣٤٩، ١٥/ ١٤١، تاج العروس ٨/ ٣٧١، ابن الكلبي: كتاب الأصنام - القاهرة ١٩٦٥ ص ٥٣، محمد عبد المعيد خان: الأساطير العربية قبل الإسلام - القاهرة ١٩٣٦ ص ١١٣، السهيلي: المروض الأنف - القاهرة ١٩٧١ - الجزء الأول ص ٦٢، محمد حسين هيكل: حياة محمد - القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٩، محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام - القاهرة ١٩٥٢ ص ١٦٣، وكذا:

J.A. Montgomery, Arabia and the Bilbe, 1934, P.67.

وكذا: W.R. Smith, Lectures on the religion of the semites, london, 1927, P.79-80.

وكذا (G.A.Cook, Palmyra, EB, 17, 1964, P.195-196.

(١) انظر: تفسير المنار ٧/ ٤٥٤، ٨/ ٤٣٦، تفسير البيضاوي ٢/ ٥٠٨، تفسير الألوسي ٢٩/ ٧٧، تفسير الطبري ٢٩/ ٧١، تفسير النسفي ٤/ ٢٩٧، تفسير ابن كثير ٤/ ٦٦٦ - ٦٦٧.

(٢) انظر: J. Welhausen, Reste Arabischen Heidentums, Berlin, 1927, P.17.
وكذا J.Hastings, ERE,8,P.180.

(٣) انظر: عن عبادة هذه الأصنام في بلاد العرب (محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة - الإسكندرية ١٩٧٨ ص (٤٤ - ٤٧)، (٩٣ - ٩٩).

بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف في الجوف عند سبأ، وأما يعوف فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت[1] .

وهكذا يبيّن لنا عبدالله بن عباس، حبر الأمة وترجمان القرآن، في هذا الحديث أن هذه الأسماء كانت لرجال صالحين من قوم نوح، وأنهم لما ماتوا سوّل الشيطان لقومهم وزيّن لهم أن ينصبوا لهم صوراً، ويسموها بأسمائهم حتى ينشطوا في العبادة إذا رأوهم ولم يعبدوهم آنذاك حتى إذا هلك أولئك القوم الذين نصبوا تلك الأنصاب وعمّ الجهل فيمن خلفهم عبدوهم من دون الله تعالى.

وذكر ابن عباس في هذا الحديث أن الأوثان صارت في العرب بعد ذلك، وأن «ودا» كان لقبيلة كلب في دومة الجندل، و «سواعاً» لقبيلة هذيل، و «يغوث» لقبيلة مراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، و«يعوف» لقبيلة همدان، و «نسراً» لقبيلة حمير[2] .

هذا وقد جاء في تفسير القرطبي: قال عروة بن الزبير وغيره: اشتكى آدم عليه السلام، وعنده بنوه، ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، وكان ود أكبرهم وأبرهم به، قال محمد بن كعب: كان لآدم عليه السلام خمس بنين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، ، وكانوا عباداً فمات واحد منهم فحزنوا

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ١٩٩ .

(٢) تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة ـ الجزء الثاني ـ الرياض ١٩٨٧ ص ٩١٠ ـ ٩١١ (نشر جامعة أم القرى بمكة المكرمة).

عليه . فقال الشيطان أنا أصور لكم مثله إذا نظرتم إليه ذكرتموه ، قالوا افعل فصوّره في المسجد من صفر ورصاص ، ثم مات آخر ، فصوره ، حتى ماتوا كلهم فصّورهم ، وتنقصت الأشياء كما تنتقص اليوم إلى أن تركوا عبادة الله تعالى بعد حين ، فقال لهم الشيطان : ما لكم لا تعبدون شيئاً ، قالوا وما نعبد ، قال : آلهتكم وآلهة آبائكم ، ألا ترون في مصلاكم ، فعبدوها من دون الله ، حتى بعث الله نوحاً فقالوا : «لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ، وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس أيضاً : بل كانوا قوماً صالحين من آدم ونوح ، وكان لهم تبع يقتدون بهم ، فلما ماتوا زيّن لهم إبليس أن يصوروا صورهم ليتذكروا بها اجتهادهم ، وليتسلوا بالنظر إليها ، فصوروهم ، فلما ماتوا هم وجاء آخرون قالوا : ليت شعرنا ، هذه الصور ما كان آباؤنا يصنعون بها ، فجاءهم الشيطان فقال : كان آباؤكم يعبدونها فترحمهم وتسقيهم المطر ، فعبدوها ، فابتدىء عبادة الأوثان من ذلك الوقت .

ويقول الإمام القرطبي : وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة : أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة تسمى مارية فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «إن أولئك كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»[1] .

ومن أجل هذا كله ، جاءت الشريعة الإسلامية الغراء تحظر التصوير باليد لكل ذي روح ، وتحرم اتخاذ التماثيل أياً كان الغرض منها ، روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس عن أبي طلحة رضي الله

---

(١) تفسير القرطبي ص (٦٧٨٦ - ٨٦٨٧) ، تفسير ابن كثير (٤/ ٦٦٦ - ٦٦٧) ، تفسير النسفي ٤/ ٢٩٧ ، صفوة التفاسير ٣/ ٤٥٤ ، تفسير جزء تبارك ض (١٣٥ - ١٣٧) .

عنهم قال: قال النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير»[1]، وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن الأعمش عن مسلم قال: كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير، فرأى في صُفته تماثيل، فقال: سمعت عبدالله، قال سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون»، وروى أيضاً عن نافع أن عبدالله بن عمر، رضي الله عنهما، أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم احيوا ما خلقتم، وفي رواية «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم احيوا ما خلقتم»، وروى أيضاً عن ابن عباس قال: سمعت محمداً ﷺ يقول: «من صوّر صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[2].

(٣) **دعوة نوح عليه السلام**: ـ كانت دعوة نوح عليه السلام ـ كما يقول صاحب تفسير جزء تبارك ـ مؤسسة على ثلاثة أركان كما جاء في قوله تعالى: ﴿**أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون**﴾[3]: الركن الأول: ترك عبادة الأصنام (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) التي كان يعبدها أهل ذلك الزمان من دون الله، فكان نوح يأمرهم بخلعها، وعبادة الله وحده، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**أن اعبدوا الله**﴾، والركن الثاني: تقوى الله واجتناب المعاصي والذنوب والفواحش التي تفسد عليهم صحتهم وأخلاقهم وآدابهم، وتفكك روابط الألفة وعرا النظام بينهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**واتقوه**﴾، والركن الثالث: إطاعة ولي الأمر فيهم، وهو نوح عليه السلام نفسه، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**وأطيعونِ**﴾.

---

(١) صحيح البخاري ٧/ ٢١٤ ـ ٢١٥ (دار الجيل ـ بيروت ١٩٨٦).
وانظر: صحيح مسلم ١٤/ ٨١ ـ ٨٦ (بيروت ١٩٨١).
(٢) صحيح البخاري ٧/ ٢١٤ ـ ٢١٧، وانظر: صحيح مسلم ١٤ ـ ٩٠ ـ ٩٤.
(٣) سورة نوح: آية ٣.

فالدعوة السماوية التي هي أول ما أنزل على البشر، وبلغ إليهم، هي مطوية في ثلاث كلمات فقط: إيمان وتقوى وطاعة، بالإيمان ينتظم أمر عقائد الأمة فتسلم من الخرافات والأوهام، وبالتقوى ينتظم أمر أخلاقها وآدابها فتسلم من السقوط والفساد، وبالطاعة ينتظم أمر اتحاد كلمتها وعلو شأنها، فتسلم من الانحلال والضياع، وما زالت الأمم على سلم هذه الأركان السماوية تعلو في الحياة الإجتماعية وتسقط، وترقى في العزة والغلبة وتهبط، وآية ذلك التاريخ، فهو الشاهد العدل، وإليه في هذه المسألة القول الفصل[1].

وهكذا أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وإفراده بالشكر والضراعة، وترك ما هم عليه من عبادة الموروثات الباطلة، وأفرغ عليهم من طيب كلامه ليستميلهم إليه، ويذعنوا لدعوته، ويؤمنوا بها، وكان نوح عليه السلام، رجلاً فتيق اللسان، عظيم الأناة، صابراً على الجدل، بصيراً بمسالك الإقناع، قادراً على تصريف الحجج، لكن روح الضلال والتقليد المتسلطة على المعاندين المستكبرين من قومه أبت عليهم أن يعرفوا طريق الهداية، وتحجرت قلوبهم فلم تلن لدعوته، ولم تنقد لرجائه، كان، عليه السلام، كلما دعاهم إلى الله أعرضوا، وإذا أنذرهم بالعذاب والويل عموا وصموا، وإذا رغبهم في ثواب الله ورضائه استهانوا وسخروا منه واستكبروا ووضعوا أصابعهم في آذانهم[2]، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾**[3].

---

(١) عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩٤٧ ص ١٢٢.

(٢) سعد صادق: من قصص الأنبياء في القرآن ـ القاهرة ١٩٦٩ ص ٣٧.

(٣) سورة نوح: آية ٥ ـ ٧.

ورغم ذلك كله، فقد صابرهم وطاولهم، ومدّ لهم في حبل صبره وأناته، وناضلهم وأخذ يفنن في الدعوة، من غير يأس ولا ملل، دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وعلانية، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾**[1].

كان نوح عليه السلام يتكتم في أول الأمر في عرض الدعوة على قومه، فكان يدلي لهم بالمناصحة سراً، مستغرقاً في ذلك جميع وقته، ليله ونهاره، كما هو شأن الداعي الحريص على بث دعوته، الحاذق في آدائها، العالم بطرق تبليغها، يتحين لها الفرص، ويختار لها الأوثق فالأوثق من الرجال، ولا يتسرع في إفشائها خشية أن يكاد لها، وتقام العواثير دونها، ومع كل ذلك لم تنجح دعوة نوح عليه السلام في القوم لفرط عتوهم، وتحجر العناد في نفوسهم، وهذا ما حمل نوحاً على سلوك طريق آخر في الدعوة، وهو مصارحتهم بها، وتبليغهم إياها جهاراً، من دون تكتم ولا خوف ولا تقية، وهو معنى قوله تعالى: **﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾**، إذ ربما فرط تكتمه في أمره، واستخفائه بدعوته، يجعلهم يظنونها باطلة، وإلا فما الذي يمنعه من الجهر بها؟ أو يظنون أنه عاجز جبان عن تبليغها، فهو يكتمها خشية إيقاعهم به، وهذا مما يزيدهم نفوراً وعناداً، ومن ثم قام نوح عليه السلام يصدعهم بدعوته صدعاً، شأن الواثق من صدقها، المعتمد على ربه في حياطته وحياطتها، كأنه يقول: «هاكم دعوتي أبلغكموها على رؤوس الأشهاد، فإن كان لكم سلطان بيّن على بطلانها فهاتوه، أو كنتم تريدون قتلى وصدى بالقوة فافعلوه[2].

= وانظر: تفسير القرطبي ص (٦٧٧٩ ـ ٧٧٨٠)، تفسير ابن كثير ٤/ ٦٦٤ ـ ٦٦٥، تفسير النسفي ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، تفسير جزء تبارك ص ١٢٣ ـ ١٢٥.

(١) سورة نوح: اية ٨ ـ ٩.

(٢) عبد القادر المغربي: تفسير جزء تبارك ص ١٢٥.

غير أن القوم لجوا في عنادهم، وأجابوه بأربع حجج، ظنوا كذباً أنها داحضة، الأولى: أنه بشر مثلهم، فساووه بأنفسهم في الجملة، وهذا يدل على أنه عليه السلام كان من طبقتهم أو ما يقرب منها في بيته وفي شخصه، وهكذا كان كل رسول من وسط قومه[1]، ووجه الجواب: أن المسألة تنافي دعوى تفوق أحد المتساويين على الآخر، بجعل أحدهما تابعاً طائعاً، والآخر متبوعاً مطاعاً، لأنه ترجيح بغير مرجح.

والثانية: أنه لم يتبعه منهم إلا أرذلهم في الطبقة والمكانة الإجتماعية «بادي الرأي» لا بديل من العقل والعلم، وبهذا تنتفي المساواة فينزل هو عن

---

(١) من المعروف أنه من فضل الله تعالى على رسله وأنبيائه، وسنته في اصطفائهم أن يختارهم من أكرم البيوت وأشرف الظهور، وأطهر البطون وأبعدها عن الدنايا، وألصقها بمكارم الأخلاق، على ما يقوله الله تعالى: **﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾**، وعلى ما يقول جل شأنه: **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾**. وقد بينّ سيدنا ومولانا وجدنا محمد رسول الله ﷺ، هذا المعنى بقوله الشريف، فيما رواه مسلم والترمذي، «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار»، وأخرج ابن مردوية عن أنس أنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ، «لقد جاءكم من أنفسكم، بفتح الفاء»، وقال: «أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً»، وروى الحاكم والبيهقي عن عائشة إنها قالت، قال رسول الله ﷺ: قال لي جبريل قلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلاً أفضل من محمد، وقلبت الأرض من مشارقها ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم (ورواه أيضاً الطبراني في الأوسط وابن عساكر).

وفي الواقع فلقد كان بنو هاشم في ميزان المجتمع العربي سادته وقادته وأشرافه، وكانوا في ميزان القيم أجود الناس كفاً، وأوفاهم ذمة، وأنداهم عطاء، وأكثرهم في سبيل الخير بلاء، وأحماهم للذمار، وبكلمة واحدة هم في قومهم وزمانهم ضمير أولئك القوم وذلك الزمان، وهكذا كان بنو هاشم، كما يقول ابن تيمية، أفضل قريش، وقريش أفضل العرب، والعرب أفضل بني آدم، وهكذا كان منبت النبي ﷺ، كما يقول الأستاذ الغزالي، في أسرة لها شأنها، بعض ما أعده الله لرسالته من نجاح، ولعل هذا كله يبيّن لنا الحكمة في اختيار الرسل من أواسط أقوامهم، ومن الجبهة القوية فيهم، حتى يكونوا لهم سنداً وعضداً، ضد سفاهة السفهاء وبغي الباغين، (انظر التفصيلات: محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل البيت الطاهرين ـ الجزء الأول ـ السيرة النبوية الشريفة ـ الكتاب الأول).

رتبة الطبقة العليا إلى رتبة من اتبعه من الطبقات السفلى، وهذا مرجح لرد دعوته والتولي عنه، والثالثة: عدم رؤية فضل له مع جماعته هؤلاء عليهم من قوة عصبية أو كثرة غالبة، أو غير هذا من المزايا التي ترفع الأرذال من مقعدهم من السفلة، فيهون على الأشراف مساواتهم في اتباعه.

والرابعة: أنهم بعد الإضراب أو صرف النظر عما ذكروا من التنافي والتعارض، يرجحون الحكم عليه وعليهم بالكذب في هذه الدعوى، وهذا هو المرجح الأقوى لرد الدعوة، وقد أخروه في الذكر لأنهم لو قدموه لما بقي لذكر تلك العلل الأخرى وجه، وهي وجيهة في نظرهم لا بد لهم من بيانها، وهذه الأخيرة طعن لهم على نوح عليه السلام أشركوه فيه مع اتباعه، ولم يجابهوه به وحده، ولم يجزموا به، كما أنهم لم يجعلوه في طبقتهم من الرذالة[1].

وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا[2]، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، وما نرى لكم علينا من فضل، بل نظنكم كاذبين** ﴾[3].

وكان رد نوح عليه السلام على قومه، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، وآتني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجرى إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكني أراكم قوماً**

---

(١) تفسير المنار ١٢/ ٥٣ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٥).

(٢) كرر القوم هذا الكلام مع نوح عليه السلام كما جاء في سورة المؤمنين (آية ٢٤)، كما كرره فرعون مع موسى وهارون عليهما السلام، كما جاء في الآيات ٤٥ ـ ٤٨ من نفس سورة المؤمنين.

(٣) سورة هود: آية ٢٧، وانظر: تفسير المنار ١٢/ ٥ ـ ٥٤، تفسير القرطبي ص ٣٢٥٠ ـ ٣٢٥٢، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨٥ ـ ٦٨٦، تفسير النسفي ٢/ ١٨٥، تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٥ ـ ٢٩٧ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠).

تجهلون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالاً، إن أجرى إلا على الله، وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم، ولكني أراكم قوماً تجهلون، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني مَلكَ للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً، الله أعلم بما في أنفسهم، إني إذا لمن الظالمين﴾[1].

ومع ذلك كله، فلم ينته القوم عن غيّهم، ولم يؤمنوا بنبيهّم، وإنما تمادوا في الكفر والعصيان، والتطاول على النبي الكريم ﷺ، فاتهموه بالسفه والضلال، قال تعالى: **﴿قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين، قال يا قوم ليس بي ضلالة، ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾**[2]، ثم اتهموه بالجنون، قال تعالى: **﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر﴾**[3]، وقال تعالى: **﴿إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾**[4].

ثم اتهموه بكثرة الجدل والافتراء على الله، وإلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**[5]، ولم تكف كل هذه الاتهامات الكذوب، في نظر هؤلاء اللئام، فإذا بهم يسخرون من النبي الكريم ويستهزؤن، قال تعالى: **﴿ويصنع الفلك، وكلما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه، قال إن تسخروا منا،**

---

(١) سورة هود: آية ٢٨ - ٣١، وانظر: تفسير القرطبي ص ٣٢٥٣ - ٣٢٥٥، تفسير الطبري ١٥/ ٢٩٧ - ٣٠٣، تفسير المنار ١٢/ ٥٤ - ٥٨، تفسير النسفي ٢/ ١٨٥ - ١٨٦، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨٦ - ٦٨٧ (بيروت ١٩٨٦)، صفوة التفاسير ٢/ ١٤ - ١٥، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣/ ١٩٥ - ١٩٧ (مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ).

(٢) سورة الأعراف: آية ٦٠ - ٦٢.

(٣) سورة القمر: آية ٩.

(٤) سورة المؤمنون: آية ٢٥.

(٥) سورة هود: آية ٣٢.

فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾[1] .

وهكذا كانت حياة نوح عليه السلام، حياة شاقة مريرة، ومحنته مع قومه محنة شريدة أليمة، فقد قام بينهم قروناً ودهوراً، بذل فيها أقصى جهده لكي يؤمن قومه بالله تعالى، وأن يذروا عبادة الأصنام، وطال الزمن وهو يدعو قومه في السر والعلانية، ويضرب لهم الأمثال، ويوجه نظرهم إلى صنع الله بخلقهم أطواراً مختلفة، وعنايته بهم في حياتهم الجنينية، وحياتهم في الدنيا، وخلقه السماوات والأرض، وأن من بدأهم قادر على إعادتهم، ذلك أن من خلق لهم الأرض ومتعهم بما خلق فيها، قادر على إعاداتهم ومجازاتهم[2] .

ورغم ذلك كله، فإن نوحاً عليه السلام، لم ير من قومه إلا آذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وعقولاً متحجرة، لقد كانت نفوسهم أيبس من الصخر، وأفئدتهم أقسى من الحديد، لم ينفعهم نصح أو تذكير، ولم يزجرهم وعيد أو تحذير، وكلما ازداد لهم نصحاً، إزدادوا في طريق الضلال سائرين، لا يلتفتون إلى دعوة نوح، ولا يبالون بتحذيره وإنذاره وقد أقام بينهم تسعمائة وخمسين عاماً داعياً ومذكراً وناصحاً، وسلك جميع الطرق الحكيمة لإنقاذهم، وإبعادهم عن عبادة الأصنام والأوثان، فلم يفلح معهم أبداً، وكانت دعوته لهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع ذلك لم تلن قلوبهم، بل قابلوا الإحسان بالشدة، ومالوا عليه بالضرب والأذى، وهو لا يفتأ يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

روى المفسرون أن نوحاً عليه السلام كان يأتي قومه فيدعوهم إلى

---

(١) سورة هود: آية ٣٨، وانظر: تفسير المنار ١٢/ ٦١ - ٦٢، تفسير القرطبي ص ٣٢٥٨ - ٣٢٥٩، تفسير الطبري ١٥/ ٣١٠ - ٣١٧، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨٨ - ٦٦٩، تفسير النسفي ٢/ ١٨٧ .

(٢) محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم - القاهرة ١٩٧٠ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

الله ، فيجتمعون عليه ويضربونه الضرب المبرح ، ويخنقونه حتى يُغشى عليه ثم يلفونه في حصير ويرمون به في الطريق ، ويقولون إنه سيموت بعد هذا اليوم ، فيعيد الله سبحانه وتعالى إليه قوته فيرجع إليهم ويدعوهم إلى الله ، فيفعلون به مثل ذلك[1] .

وقال مجاهد وعبيد بن عمير : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، فإذا أفاق قال : «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» .

وقال ابن عباس ، رضي الله عنه ، إن نوحاً كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه مات ، ثم يخرج فيدعوهم ، حتى إذا يئس من إيمان قومه ، جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا ، فقال : يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك ، قال : يا أبت أمكني من العصا ، فأخذ العصا ، ثم قال : ضعني في الأرض فوضعه ، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة موضحة في رأسه ، وسالت الدماء ، فقال نوح : «رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خير فاهدهم ، وإن يك غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين»[2] .

وهكذا بقي النبي الكريم يؤذى ويعذب ، وهو مع ذلك صابر ، لا يدعو على قومه بالعذاب ، وإنما كان يؤمل فيهم أو في أبنائهم الخير والصلاح ، ويقول : لعل الله يخرج من أصلابهم من يستجيب لدعوتي ويؤمن بالله ، ولكن مع هذه المدة الطويلة لم يؤمن معه إلا القليل منهم ، وكان كلما انقرض جيل جاء من بعده جيل أخبث وألعن ، فلقد كان القوم يوصون أولادهم بعدم الإيمان به ، وكان الوالد يقول لولده إذا بلغ وعقل : يا بني احذر هذا لا يغرنك عن دينك وألهتك[3] .

---

(1) محمد علي الصابوني : النبوة والأنبياء ـ بيروت ١٩٧٠ ص ١٥٠ .

(2) تفسير القرطبي ص ٣٢٧١ .

(3) محمد علي الصابوني : المرجع السابق ص ١٥٠ ـ ١٥١ .

وأوحى الله تعالى إلى نبيه نوح إنه لن يؤمن من هؤلاء القوم الكافرين أحد بعد ذلك، بل إنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن[1]، قال تعالى: **﴿ وأوحى إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾**[2]، قال الضحاك: فدعا عليهم لما أخبر بذلك فقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كافراً»، وقيل إن رجلاً من قوم نوح حمل ابنه على كتفه، فلما رأى الصبي نوحاً قال لأبيه: إعطني حجراً، ورمى به نوحاً عليه السلام فأدماه، فأوحى الله تعالى إليه: **﴿ إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾**، فدعا عليهم، فكان الطوفان الذي أغرقهم جميعاً[3].

(٤) **قضية ابن نوح**: ـ اختلف المفسرون في ابن نوح الذي غرق في الطوفان من دون أهله، وقد أشار القرآن الكريم إلى قصته في قوله تعالى: **﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهم الموج فكان من المغرقين، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعد اللقوم الظالمين، ونادى نوح ابنه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين، قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾**[4].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٧١.

(٢) سورة هود: آية ٣٦.

(٣) سورة نوح: آية ٢٦ ـ ٢٧، تفسير القرطبي ص ٣٢٥٧، ٣٢٧١، وانظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧.

(٤) سورة هود: آية ٤٢ ـ ٤٧، وانظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩٠ ـ ٦٩٤، تفسير القرطبي ص ٣٢٦٤ ـ

وقد انقسم المفسرون في ابن نوح هذا إلى فرق، ففريق يرى أنه ولـد على فراشه ولم يكن ابنه، قال قتادة: سألت الحسن (أي الحسن البصري) عنه فقال: والله ما كان ابنه، قلت إن الله أخبر عن نوح إنه قال: «إن ابني من أهلي»، فقال: لم يقل مني، وهذه إشارة إلى أنه كان ابن امرأته من زوج آخر، فقلت له: إن الله حكى عنه إنه قال: «إن ابني من أهلي» و «ونادى نوح ابنه»، ولا يختلف أهل الكتاب إنه ابنه، فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب، إنهم يكذبون، وقرأ «فخانتاهما»، وقال ابن جريج: ناداه وهو يحسب أنه ابنه، وكان ولد على فراشه، وكانت امرأته خانته فيه، ولهذا قال: «فخانتاهما»[1].

هذا وقد استهجن كثير من علماء السلف والخلف هذا الإتجاه، فقال ابن عباس ـ حبر الأمة وترجمان القرآن ـ «ما بغت امرأة نبي قط»، وقال الإمام الرازي في التفسير الكبير: والقائلون بهذا القول (أي أنه ولد على فراشه لغير رشده) فقد احتجوا بقوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط «فخانتاهما» فليس فيه أن تلك الخيانة إنما حصلت بالسبب الذي ذكروه، قيل لابن عباس، رضي الله عنه، ما كانت تلك الخيانة؟ فقال: كانت امرأة نوح تقول: زوجي مجنون، وامرأة لوط تدل الناس على ضيفه إذا نزلوا، وفي تفسير الطبري: عن سليمان بن قتة قال: سمعت ابن عباس يُسأل، وهو إلى جنب الكعبة، عن قوله تعالى: ﴿**فخانتاهما**﴾، قال: أما إنه لم يكن بالزنا، ولكن كانت هذه تخبر الناس أنه مجنون، وكانت هذه تدل على الأضياف، ثم قرأ «إنه عمل غير صالح»، ثم الدليل القاطع على فساد هذا المذهب، قوله تعالى:

= ٣٢٧٦، تفسير الطبري ١٥/ ٣٣١ ـ ٣٥٢، تفسير النسفي ٢/ ١٨٨ ـ ١٩٢، تفسير المنار ١٢/ ٦٥ ـ ٨٤، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٣/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، صفوة التفاسير ٢/ ١٦ ـ ١٩، التسهيل ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧.

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٧٤.

﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات﴾، وقوله تعالى: **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين﴾**[1].

وقال الألوسي في روح المعاني: وما يقال من أنه كان لغير رشده لقوله سبحانه وتعالى: **﴿فخانتاهما﴾**، فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها، فإن الله قد طهر الأنبياء عليهم السلام عما هو دون ذلك من النقص بمراحل، فحاشاهم ثم حاشاهم أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة في الدين، ونسبة هذا القول إلى الحسن ومجاهد كذب صريح.

وقال أبو السعود في بحره المحيط: وما يقال إنه كان لغير رشده لقوله «فخانتاهما»، فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فإن جناب الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، أرفع من أن يشار إليهم بإصبع الطعن، وإنما المراد بالخيانة الخيانة في الدين، وقال البيضاوي: وكان لغير رشده لقوله تعالى: **﴿فخانتاهما﴾**، وهو خطأ، إذ أن الأنبياء عصمت من ذلك، والمراد بالخيانة الخيانة في الدين.

وأما ما استند إليه البعض في عدم استبعاد أن تكون امرأة النبي زانية من القياس على الكفر، الذي هو أشد ذنباً من الزنا، وامرأة نوح كانت كافرة، وقد ضربها الله مثلاً في الكفر، ومن أتى الذنب الأكبر يهون عليه الإتيان بالأصغر، فواضح البطلان، لأن كفر المرأة، وإن كان من أكبر الكبائر لا يعود ضرره إلا عليها، ولا يلحق الزوج منه عار ولا فضيحة بين الناس، ولذلك أباح الله للمسلم أن يتزوج من الكتابيات، بخلاف زناها، فإنه، وإن كان أصغر من الكفر، لا يقصر ضرره عليها وحدها، بل يلحق الزوج أيضاً

---

(١) سورة النور: آية ٣، ٢٦، تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٣، تفسير القرطبى ص ٣٢٧٤، عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٤١.

بسببه عار وفضيحة بين الناس في مطرد العادة، بحيث يكون بحالة لا يستطيع معها مجالسة الناس، ومن ثم، فقد نص، كما يقول ابن كثير، غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زانية[1].

وهناك وجه آخر للنظر يذهب إلى أنه كان ابن امرأته، قاله الحسن ومجاهد وعبيد بن عمير وأبي جعفر الباقر وابن جريج[2]، وفي تفسير القرطبي، قرأ عروة بن الزبير: «ونادى نوح ابنها» يريد ابن امرأته، يقول القرطبي: إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليه لها، والله أعلم[3].

على أن هناك وجهاً ثالثاً للنظر، يذهب إلى أنه ابنه من صلبه، وهذا ما نؤمن به الإيمان كل الإيمان، وإنه كان ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبيّ الله نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: «ما بغت امرأة بني قط، وأنه كان ابنه لصلبه، وكذلك قال الضحاك وعكرمة وسعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهم، وإنه كان ابنه لصلبه، وقيل لسعيد بن جبير يقول نوح: «إن ابني من أهلي» أكان من أهله؟ أكان ابنه؟ فسبح الله طويلاً ثم قال: لا إله إلا الله، يحدث الله محمداً ﷺ، إنه ابنه، وتقول إنه ليس ابنه، نعم كان ابنه، ولكن كان مخالفاً في النية والعمل والدين، ولهذا قال الله تعالى: ﴿**إنه ليس من أهلك**﴾[4].

ويقول القرطبي: وهو الصحيح في الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به، وإن قوله «إنه ليس من أهلك» ليس مما ينفي عنه أنه ابنه، وقوله «فخانتاهما»، يعني في الدين، لا في الفراش، وذلك أن هذه كانت تخبر

(١) انظر: عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٤١ ـ ٤٥.
(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٦٩٣.
(٣) تفسير القرطبي ص ٣٢٧٥.
(٤) تفسير القرطبي ص ٣٢٧٤.

الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها نعم، قالت فمتى، قال: إذا فار التنور، فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه مجنون، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور، فهذه خيانتها، وخيانة الأخرى إنها كانت تدل على الأضياف[1].

وروى الطبري في تفسيره عن فضالة بن الفضل الكومي قال قال بزيغ: سأل رجل الضحاك عن ابن نوح، فقال: ألا تعجبون إلى هذا الأحمق، يسألني عن ابن نوح، وهو ابن نوح، كما قال الله تعالى: ﴿ **قال نوح لابنه** ﴾، وعن جويبر عن الضحاك قال: هو والله ابنه لصلبه، وروى الطبري أيضاً عن الضحاك إنه قرأ «ونادى نوح ابنه»، وقوله «ليس من أهلك»، قال يقول: ليس هو من أهلك، قال يقول: ليس هو من أهل ولايتك، ولا ممن وعدتك أن أنجي من أهلك «إنه عمل غير صالح»، قال يقول: «كان عمله في شرك»[2].

وروى النسفي في تفسيره، قال الشيخ أبو منصور رحمه الله، كان عند نوح عليه السلام أن ابنه كان على دينه لأنه كان ينافق، وإلا لا يحتمل أن يقول ابني من أهلي، ويسأله نجاته، وقد سبق منه النهي عن سؤال مثله بقوله: ﴿ **ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾، فكان يسأله على الظاهر الذي عنده، كما كان أهل النفاق يظهرون الموافقة لنبينا عليه الصلاة والسلام، ويضمرون الخلاف له، ولم يعلم بذلك حتى أطلعه الله عليه، وقوله: ﴿ **ليس من أهلك** ﴾ أي من الذين وعدت النجاة لهم، وهم المؤمنون حقيقة في السر والظاهر[3].

---

(١) تفسير القرطبي ص ٣٢٧٥.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٣٤٥.

(٣) تفسير النسفي ٢/ ١٩١ - ١٩٢.

وأولى الأقوال بالصواب، عند الإمام الطبري، قول من قال: تأويل ذلك، إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان لدينك مخالفاً، وبي كافراً، وكان ابنه، لأن الله تعالى ذكره، قد أخبر نبيه محمداً ﷺ، أنه ابنه، فقال: «ونادى نوح ابنه»، وغير جائز أن يخبر أنه ابنه، فيكون بخلاف ما أخبر، وليس في قوله «إنه ليس من أهلك» دلالة على إنه ليس بابنه، إذ كان قوله «ليس من أهلك» محتملاً من المعين ما ذكرنا، ومحتملاً «إنه ليس من أهل دينك»، ثم يحذف الدين، فيقال: «إنه ليس من أهلك»، كما قيل «واسأل القرية التي كنا فيها»[1].

---

(١) تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٦ (دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٠.

الفصل الثاني

قصة الطوفان بين الآثار والتوراة

من المعروف منذ زمن طويل أن قصص الطوفان الكبير الذي هلك فيه كل الناس على وجه التقريب، تنتشر انتشاراً واسعاً في جميع أنحاء العالم ، فهناك قصص عن الطوفان ، في بعض مجتمعات الشرق الأدنى القديم ، وفي الهند وبورما والصين والملايو واسترّاليا وجزر المحيط الهادي ، وفي مجتمعات الهنود الحمر(١) .

وقد قدم لنا « السير جيمس فريزر Sir James Frazer » دراسة عن قصص « الطوفان الكبير » في أساطير الأمم المختلفة ، نستنتج منها أنها كانت منتشرة في قارة آسيا وفي استرّاليا وفي أمريكا الشماليةوالوسطى والجنوبية — فيما قبل العهدالأوربي — ولكنها قليلة نسبياً في قارة أوربا ، وأقل منها في أفريقيا(٢) .

ولعل من الأهمية بمكان أن نشير إلى أنه رغم كثرة قصص الطوفان وانتشارها ، فإنها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة ، كما أن قسماً منها أساطير وضعت وضعاً لتفسير بعض العوارض الأرضية كالمنخفضات الواسعة في البلاد التي وضعت فيها تلك الأساطير(٣) أضف إلى ذلك أنه ليست هناك رواية واحدة أصيلة عن الطوفان الكبير دونت في أفريقيا ، فمثلا لم يكتشف أثر لهذه الحكاية في الأدب المصري القديم — وهو دون شك أهم الآداب الأفريقية وأكثرها أصالة دون منازع — أما عن رواية الطوفان التي تنسب

(١) Sollberger. E. The Flood, London, 1962,, P. 11

(٢) جيمس فريزر ، الفلكلور في العهد القديم، ترجمة نبيلة إبراهيم ، مراجعة حسن ظاظا ، ص ٩١–٢١٩

(٣) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارةالقديمة — الجزء الأول — العراق ، ص ٤٦٠ .

إلى « غينيا الشمالية » فهي أسطورة أكثر منها قصة ، اختلطت فيها الخرافات بالمعجزات حتى بات من الصعب علينا مقارنتها بغيرها من قصص الطوفان ، هذا إلى أنها نقلت إلينا عن طريق المبشرين الأوربيين ، حتى أصبحنا لا نستطيع الحكم عليها وإرجاعها إلى أصل غيني أو أوربي ، أضف إلى ذلك أن هناك رواية أخرى تذهب إلى أن الرجال قد تحولوا بعد الطوفان إلى قرود ، كما تحولت النساء إلى سحالي ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل ، مما يدل بوضوح على مدى التأثير الأوربي الحديث في هذه الأسطورة الأفريقية عن الطوفان ، كما أن الروايات التي اكتشفها الكتاب الألمان عن الطوفان الكبير بين سكان أفريقيا الشرقية ليست سوى روايات مختلفة لقصة الطوفان في الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) والتي تسربت إلى هؤلاء البدائيين عن طريق المسيحيين(١) .

وبديهي أننا لن نناقش هنا كل القصص والأساطير التي دارت حول الطوفان الكبير الذي أغرق العالم ، ولكننا سوف نقتصر على دراسة قصة الطوفان في منطقة الشرق الأدنى القديم ، سواء تلك القصص التي روتها المصادر التاريخية ، أو تلك التي تحدثت عنها الكتب المقدسة – التوراة والإنجيل والقرآن العظيم – وكلها – دون استثناء – أنزلت على أرض هذا الشرق القديم ، كما أنه ليس واحداً من أصحابها – صلوات الله وسلامه عليهم – إلا وكان من هذا الشرق الخالد .

ولعل الذي دفعني إلى دراسة هذا الموضوع إحساس عميق بأن تنال الموضوعات التاريخية المتصلة بالكتب المقدسة قسطاً وافراً من المؤرخين المسلمين ، بعد أن ظل الميدان في العصر الحديث يكاد يكون مقصوراً على الغربيين من يهود ونصارى ، وساعدني على هذه المحاولة تخصصي في التاريخ القديم ، فضلا عن دراسات إسلامية قضيت فيها الشطر المبكر من حياتي العلمية ، وإن كنت لا أزعم لنفسي فيها – بحال من الأحوال – مكانة تعدو مكانة عامة المسلمين الذين تعلموا من أمور دينهم القدر الذي يتعرفون به عليه ، وإن كان مما لا ريب فيه أنه لا يصل بهم إلى مكانة الخاصة من المتخصصين في دراسات القرآن الكريم والحديث الشريف وعلومهما ، ثم كان لوجودي بين أعضاء

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٢٠١–٢٠٢ .

هيئة التدريس بقسم التاريخ في كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية سبب آخر للقيام بهذه الدراسة .

أولاً : قصة الطوفان السومرية :

كان الناس يعتقدون حتى أواخر القرن الماضي أن التوراة هي أقدم مصدر لقصة الطوفان ، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن ذلك مجرد وهم ، حيث عثر في عام ١٨٥٣ م على نسخة من رواية الطوفان البابلية ، وفي الفترة ما بين عامي ١٨٨٩ ، ١٩٠٠م ، اكتشفت أول بعثة أمريكية قامت بالحفر في العراق اللوح الطيني الذي يحتوي على القصة السومرية للطوفان في مدينة « نيبور » (نفر) ، وكان « أرنو بوبل » أول من قام بنشره في عام ١٩١٤م ، ثم تبعه آخرون(١) ، وإن كانت ترجمة « بوبل » هي الأساس الذي ما يزال يعتمد عليه الباحثون .

ويبدو من طابع الكتابة التي كتبت بها القصة السومرية أنها ترجع إلى ما يقرب من عهد الملك البابلي الشهير « حمورابي » (١٧٢٨–١٦٨٦ ق.م) ، على أنه من المؤكد أن القصة نفسها ، إنما ترجع إلى عصر أقدم من ذلك بكثير ، ذلك لأنه في هذا الوقت الذي كتب فيه اللوح لم يكن هناك وجود للسومريين ، بوصفهم عنصراً مستقلا ، إذ كانوا قد ذابوا في الشعب السامي ، كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنة والكتاب الساميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة في ثنايا تلك الآداب ، ويعيدون كتابتها ، ومن ثم فإن اكتشاف رواية قصة الطوفان السومرية يدعو إلى افتراض أنها إنما ترجع إلى زمن سابق على احتلال الساميين لوادي الفرات ، وأن هؤلاء الساميين قد أخذوا هذه

---

(١) « أ » Arno Poebel, in PBS, IV, Pt. I. P. 9–70.

« ب » L. W. King, Legends of Babylon and Egypt in Relation to Hebrow Tradition 1914.

« حـ » S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Philadelphia, 1944, p. 97–98.

وكذلك ANET, P. 42/44.

لقصة — فيما يبدو — بعد هجرتهم إلى وادي الفرات عن السومريين(١) الذين سكنوا المنطقة قبلهم(٢) .

وأما سبب الفيضان ، فلا يعسر علينا إدراكه ، ولا سيما في بلد تكثر فيه الفيضانات الفجائية كالقسم الجنوبي من العراق ، ولكن طوفاناً كبيراً كالذي تحدثت عنه المصادر السومرية والبابلية هو دون شك حدث عظيم وقع قبيل تغلب الإنسان على الأنهار ، بما أنشأه من السدود وأعمال الإرواء ، وأن هطول الأمطار كان مصحوباً بعواصف مدمرة(٣) .

وتتضمن قصة الطوفان السومرية عدة وقائع هامة ، يتعلق أول ما يمكن قراءته من سطورها بخلق الإنسان والنبات والحيوان ، وبأصل الملكية السماوي ، فضلاً عن خمس مدن ترجع إلى ما قبل فترة الطوفان ، ومن أسف أن من بين اللوحات التي تتناول القصة لم تبق سوى لوحة واحدة ، وحتى هذه فإن ما بقي منها لا يعدو ثلثها الأخير فحسب ، وقد فقدت المقدمة والنهاية الخاصة بذلك النص ، ومن ثم فإنه غامض في أكثر نواحيه ، هذا ويقدر عدد الأسطر التي يتكون منها النص في جملته بحوالي ثلاثمائة سطر ، لم يعثر إلا على حوالي المائة منها ، ورغم ذلك فانها تقدم لنا الخطوط الرئيسية للنص .

---

(١) السومريون : يتفق المؤرخون على أن السومريين جنس غير سامي ، وأن لغتهم غريبة لا تشبه اللغات السامية ، ولا يعلم زمن مجيئهم إلى وادي الرافدين ، وإن رأى البعض أن ذلك ربما كان في فترة مبكرة من الألف الرابعة ق. م. ، (AJA, 52, 1948, p. 156–64) وقد اختلفت الآراء في موطنهم الأصلي ، فقد ذكرت أساطيرهم أنهم جاءوا من الجنوب ، ومن ثم ذهب رأي إلى أنهم مهـاجرون من منطقة ما تقع فيما بين شمال الهند وبين أفغانستان وبلوخستان عن طريق الخليج العربي وجزيرة البحرين بعد أن استقروا في غربي إيران فترة ما (عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم جـ ١ ص ٨٣٨) ، (E.A. Speiser, The Sumerian Problem Revieved) وذهب رأي ثان إلى اعتبارهم بدوا مما وراء القوقاز أو مما وراء بحر قزوين ، ويرى « روتزني » أنهم جاءوا من آسيا الصغرى ، بينما رأى آخرون أنهم جاءوا من السند (أحمد فخري : دراسات في تاريخ الشرق القديم ص ٢٨) بل لقد ذهب طه باقر (المرجع السابق ص ٨٩—٩٠) إلى أنهم من الأقوام التي قطنت العراق في عصور ما قبل التاريخ ، وأن حضارتهم أصيلة في العراق ، بل ويمكن تسمية أهل حضارة « العبيد » بالسومريين ، على الرغم من أننا لا نعرف اللغة التي تكلم بها أهل حضارة العبيد .

(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١٠٣ .

(٣) مجلة سومر — المجلد السابع ١٩٥١ م — العدد الأول .

وعلى أي حال ، فبعد ٣٧ سطراً ، نلتقي بمعبود يشير إلى أنه سوف ينقذ البشر من الهلاك وأن الإنسان سوف يبني المدن والمعابد ، ويلي ذلك ثلاثة سطور غامضة ، ربما كانت تتضمن ما سوف يبذله المعبود في هذا السبيل ، ثم الحديث عن خلق الإنسان والحيوان وربما النبات . . . ثم ٣٧ سطراً ضائعة ، نعرف بعدها أن الملكية هبطت من السماء ، وأن خمس مدائن أسست . . . ثم ٣٧ سطراً ضائعة . . . ربما تشير إلى إصرار الآلهة على الإتيان بالفيضان وتدمير البشر ، وحين يصبح النص مقروءاً نجد بعض الآلهة غير راضين ، وتجتاحهم التعاسة بسبب القرار القاسي . . . . ثم نلتقي ببطل القصة « زيوسودرا Ziusudra » الذي يوصف بالتقوى ، وبأنه ملك يخـــاف الإله ، ويكب على خدمته في تواضع وخشوع ، ويطيل النظر إلى المكان المقدس ، وهو يقيم بجوار حائط يستمع منه إلى صوت معبوده أنكي الذي أخبره بالقرار الذي اتخذه مجمع الآلهة بإرسال الطوفان « لإهلاك بذرة الجنس البشري » .

ولعل من المؤكد أن ما يلي ذلك تعليمات مسهبة إلى « زيوسودرا » ببناء سفينة هائلة لينقذ نفسه من الهلاك ، غير أن هذا كله ناقص لوجود كسر كبير في اللوحة ، ربما كان يشغل ٤٠ سطراً ، ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الإله للإنسان إلى موضوع الطوفان ، فيصف اللوح العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعاً ، ثم تستمر الرواية فتقول « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال يكتسح الفيضان فيها الأرض ، ويدفع الفلك قدماً على المياه المضطربة ، ثم يظهر بعد ذلك إله الشمس « أوتو » وهو يسكب الضوء على السماء والأرض ، وعندما تخترق أشعة الشمس السفينة ، ويرى « زيوسودرا » نور ربه ، ويعلم بصفحه ، يخرج من الفلك ويسجد للرب مضحياً له بفحل وشاة » .

ويلي ذلك كسر يشغل ٣٩ سطراً ، ثم تصف الأسطر الباقية كيف نفث الإله روح الخلود في « زيوسودرا » ، مستقرا بأرض دلمون ، حيث تشرق الشمس ، أي حيث القوة القاهرة للموت(١) ، دلمون التي هي مركز الخلق في الأساطير السومرية ، جنة الخلد ،

(١) E.O. James, Mythes et Rites dans le Proche-Orient Ancien, Paris, 1960, p. 247.

« أرض دلمون مكان طاهر ، أرض دلمون مكان مقدس(١) » ، ثم يوصف « زيوسودرا » بعد ذلك بأنه « الشخص الذي حافظ على سلامة الجنس البشري »(٢) .

ويحتمل من سياق لوح صغير أن « زيوسودرا » كان قد تلقى الحكمة عن أبيه « شورباك » بن « وبار-توتو » أحد ملوك ما قبل الطوفان ، وقد كرر في وصاياه لولده أن يتقبل نصائحه وأن يعمل بها ، وألا يحيد عنها(٣) وهاك ترجمة للنص السومري لقصة الطوفان ــ كما هو موجود الآن(٤) .

٣٧ سطراً على وجه التقريب مهشمة في بداية النص ، ثم يلي ذلك :

إن البشر عبادي ،وعن الهلاك المحيق بهم سأعمل ... إلى نينتو ... سأعيد مخلوقاتي . سأعيد القوم إلى مواطنهم ، أما المدن ، فحقا سوف يبنون فيها لأنفسهم أماكن للشرائع الإلهية ، وسأجعل ظلالها في سلام ، وأما عن بيوتنا (ربما يعني أماكن الشرائع الإلهية) فحقا سوف يضعون آجرها في أماكن طاهرة ، وهو (أي الإله) قد وجه . . . الخاص بالحرم ، وأكمل الشعائر ، والشرائع الإلهية المبجلة ، وعلى الأرض . . . قد وضع . . . هناك ، وبعد أن خلق آنو وانليل وانكى ونينهورساج البشر « ذوي الرؤوس السود(٥) » ،

---

(١) J. Mougayrol et J.M.Aynard, La Mésopotamie, Paris, 1965, p. 58–59

(٢) «أ» صموئيل نوح كريمر : أساطير العالم القديم ، ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف ، مراجعة د. عبد المنعم أبو بكر ، ص ٩٧ ، «ب» جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١٠٣–١٠٥ ، «جـ» نجيب ميخائيل : مصر والشرق الأدنى القديم جـ٦ ص ٢٦٤–٢٦٥ ، «د» رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا – الكتاب الأول ص ٢٢٢–٢٢٤ ، وكذلك
Samuel Noah Kramer, The Deluge, in ANET, 1966, p. 42–44.

(٣) W.G. Lambert, Babylonian Wisdom Literature, Oxford, 1960, p. 92F.
وكذا عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣٩ .

(٤) «أ» محمد عبد القادر محمد : قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين ص ١١٠–١١٤ .
«ب» Jack Finegan, Light from the Ancient Past, 1969, p. 30–31.
«جـ» S.N. Kramer, in ANET, p. 42–44, and Sumerian Mythology, p. 97 F.
«د» S. Langdon, Semitic Mythology, 1931, p. 206–8.
وكذلك كريمر : من ألواح سومر ص ٢٥٢ – ٢٥٩ .

(٥) أصحاب الرؤوس السوداء : أرضهم سومر ،وهم ليسوا ساميين ولا آريين ، ولغتهم ليست سامية =

وازدهر الزرع في الأرض ، وأخرجت الحيوانات ومخلوقات السهول ذوات الأربع إلى الوجود بحكمة . . . ثم نجابه بحوالي ٣٧ سطراً مهشمة . . . وبعد أن أنزلت الملكية من السماء ، وبعد أن أنزل « تيارا » المعظم ، عرش الملك من السماء . . . أكمل الشعائر والشرائع الإلهية المبجلة ، وأسس المدن الخمس في . . . مواضع طاهرة ، وسماها بأسمائها وجعلها مراكز للعبادة ، وكانت أولى هذه المدن « أريدو » فأعطاها إلى « نوديمو » القائد ، والثانية « بادتيبيرا » وأعطاها إلى . . . ، وكانت الثالثة « لاراك » وأعطاها إلى أندو بيلهورساج ، وأعطى الرابعة « سيبار » للبطل « أوتو » ، وأما الخامسة فـ « شوروباك » وقد أعطاها لـ « سود » ، وحين سمى هذه المدن وجعلها مراكز للعبادة ، فإنه أحضر . . . ثم قرر تطهير الأنهار الصغيرة . . . ثم حوالي ٣٧ سطراً مهشمة . . .

الطوفان . . . هكذا حلّ بـ . . . ثم بكت نينتو مثل . . . وناحت « أنانا » الطاهرة من أجل أناسها ، ثم قام زيوسودرا ، الملك ، الباشيشو (لقب كهنوتي) وبنى . . . ضخماً ، مطيعاً متواضعاً في احترام . . . حاضراً كل يوم دائماً . . . محضراً كل أنواع الاحترام . . . ناطقاً اسمي السماء والأرض . . . الآلهة حائط . . . وكان زيوسودرا واقفاً إلى جانبه . وقد سمع . . . قف عند الحائط إلى جانبي الأيسر ، وعند الحائط سوف ألقي إليك كلمته . . . أصغ إلى تعليماتي ، بقضائنا . . . طوفاناً سوف يكتسح مراكز العبادة ، ويقضي على بذرة البشر ، ذلك قرار ، إنها كلمة مجلس الآلهة ، بناء على الكلمة التي أمر بها « أنو » و « إنليل » ... وسوف ينتهي ملكها وحكمها ... (حوالي ٤٠ سطراً مهشمة) .

وهبت جميع الزوابع بعنف وضراوة كقوة واحدة ، وبعد ذلك ولمدة سبعة أيام وسبع ليال ، اكتسح الطوفان الأرض(١) فيها ، وتقاذفت الأعاصير السفينة الضخمة فوق المياه

- أوهندوأوروبية (انظر H. Frankfort, the Art and Architecture of the Ancient Orient, p. 235, n. 2) وربما كانت كتابة الوركاء التصويرية سومرية ، ومن ثم فإن هؤلاء القوم ربما كانوا في ميزوبوتاميا على الأقل منذ الفترة الأخيرة من عصر الوركاء ، وربما منذ فترة مبكرة من الألف الرابعة ق.م (انظر ، J. Finegan, op-cit, p. 29) على أن هذا التعبير ، وإن كان يعني السومريين ، فربما يعني كذلك سكان سومر واكد معاً ، وربما يشير في هذا النص إلى البشر عامة .

(١) المقصود أرض سومر ، وليس الكرة الأرضية (ANET, p. 43).

الضخمة ، وظهر « أوتو » الذي يضيء السماء والأرض ، وفتح زيوسودرا كوة (نافذة) في الفلك العظيم ، وأنفذ البطل « أوتو » أشعته في الفلك العظيم ، وسجد زيوسودرا الملك أمام أوتو العظيم ، وفي نفس الوقت اكتسح الطوفان مراكز العبادة ، وضحى الملك بفحل وشاة . . . (حوالي ٣٩ سطراً مهشمة) تنطق أنت « نسمة السماء » و « نسمة الأرض » حقا ، وتبسط نفسها عنه . . . ونادى آنو وأنليل نسمة السماء ونسمة الأرض . . . فبسطت نفسها . . . وازدهر الزرع الذي ينبت من الأرض ، وسجد زيوسودرا أمام أنو وإنليل ، ورضي أنو وإنليل عن زيوسودرا ، الملك ، الذي حافظ على اسم الزرع وبذرة البشر ، وفي أرض دلمون ، أرض العبور ، حيث تشرق الشمس أسكناه هناك ، . . . أما بقية اللوح (٣٩ سطراً) فهي مكسورة ، ولهذا لا نعرف ماذا حدث لزيوسودرا بعد ذلك .

ولكن أين أرض دلمون هذه ؟

إن العلماء مختلفون في موقع دلمون السومرية هذه ، فذهب بعضهم إلى أنها في الجهة الجنوبية الغربية من بلاد فارس (الجزء الشرقي من ساحل الخليج العربي)(١) ، ومنهم من رأى أنها منطقة وادي السند(٢) ، ومنهم من رأى أنها سهول العراق الكائنة إلى جنوب غرب بابل(٣) ، وهناك من رأى أنها إنما تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين مجان وبيت نبسانو(٤) ، إلا أن غالبية العلماء يكادون يتفقون على أن موقع دلمون ، إنما هو جزيرة البحرين الحالية ، أو جزيرة البحرين والساحل المقابل لها(٥) .

وسؤال البداهة الآن : هل هناك من الأدلة الأثرية في العراق ما يثبت قصة الطوفان السومرية هذه ؟ .

---

(١) S.N. Kramer, Dilmun, the land of the Living, BASoR, 96, 1944, P. 18–28.

(٢) S.N. Kramer, the Indus Civilization and Dilmun, the Sumerian Paradise Land Expedition, Philadelphia, 1964, P. 45.

(٣) جون ألدر : الأحجار تتكلم – ترجمة عزت زكي – ص ٣٠ .

(٤) F. Hommel, Grundriss, I, S. 250.

(٥) P.B. Cornwell, On the Location of Dilmun, BASOR, 103, 1946, P. 3–11. وكذلك J. Finegan, op-cit., P. 32

لقد عثر « سير ليونارد وولي(١) » في حفائره في « أور » عام ١٩٢٩م على طبقة من الغرين السميك الذي يقدر بحوالي ثمانية أقدام والذي اعتبره دليلاً ماديا على الطوفان السومري نظراً لكثافة تلك الطبقة الغرينية وتوافقها الزمني إلى حد كبير مع النصوص السومرية ، هذا مع ملاحظة أن تلك الطبقة الغرينية تقع فوق وتحت آثار تنتمي إلى عصر حضارة العبيد ، والتي تمثل عصر ما قبل الأسرات الأول في جنوب العراق ، ثم اتجه « وولي » بعد ذلك إلى الحفر في موقع بعيد عن « أور » بحوالي ثلاثمائة ياردة من ناحية الشمال الغربي للبحث عن مدى امتداد تلك الطبقة الغرينية ، وكانت نتيجة الحفر إيجابية ، مما أدى إلى القول بوجهة نظره المشهورة في ارتباط تلك الطبقة الغرينية السميكة بالطوفان الذي ذكرته الكتب المقدسة(٢) .

ولكن أستاذنا الدكتور رشيد الناضوري يرى أنه لا ينبغي الجزم بصورة حاسمة في هذا الشأن ، ذلك لأن جنوب العراق القديم قد واجه الكثير من الفيضانات والطوفان ، فهناك أدلة غرينية على فيضان أو طوفان كبير في شورباك يرجع إلى نهاية عصر « جمدة نصر » ، وآخر في « كيش » يرجع إلى فترة لاحقة للفيضان السابق ، وهكذا بات من الصعب علينا المقارنة بين تلك الفيضانات ، وأيها هو الذي يتفق مع قائمة الملوك السومرية ، ولعل فيضان « شورباك » أكثر قرباً منها على أساس أن تلك القائمة قد أشارت إلى المدينة الأخيرة ، كآخر مدينة قبل حادث الطوفان ، ولكن في نفس الوقت علينا ألا نستبعد كلية طوفان « أور » ذي الطبقة السميكة للغاية ، أضف إلى ذلك أن عدم العثور على الطبقة الغرينية الموازية في كافة المدن السومرية يدفع إلى الاتجاه باحتمال كون الطبقة الغرينية التي عثر عليها « وولي » في أور ، إنما هي مجرد ترسيب محلي ، ليس له الصفة الشاملة(٣) .

---

(١) C.L. Woolley, ur of the Chaldees, London, 1950, P. 22–29, Excavations at ur, P. 26–36.

(٢) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٢٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ، وانظر كذلك J. Finegan, op cit., P. 24. وكذلك H.W.F. Saggs, the Greatness that was Babylon, London, 1962, footnote, P. 34–35.

وهناك من الأدلة كذلك قائمة الملوك السومرية . والمكتوبة بالخط المسماري بعد عام ٢٠٠٠ ق.م(١) . أو في فترة لا تتأخر كثيراً عن منتصف عهد أسره أور الثالثة (حوالي ٢١١٢ – ٢٠١٥ ق.م) ، وربما قبيل عهد « أوتوحيجال » من أسرة الوركاء الخامسة ، وإن كان يبدو أنها نسخت عن قوائم قديمة ربما ترجع إلى أخريات العهد الأكدي ، وعلى أى حال ، فإنها تحتوي على معلومات تاريخية ترجع إلى بداية العصر التاريخي في العراق القديم ، وربما إلى أقدم من ذلك(٢).

وتبدأ الوثيقة بالقول أنه « عندما أنزلت الملكية من السماء كانت في مدينة « أريدو » ، ثم تذكر القائمة ثمانية ملوك حكموا قبل الطوفان في خمس مدن هي : أريدو ، بادتيبيرا (تل المدائن قرب تللو) لارك (الوركاء : قرب كوت العمارة) ، سيبار (أبو حبة) وشورباك (تل فارة) . وأن هؤلاء الملوك قد حكموا ٢٤١،٢٠٠ سنة . وأن آخر هؤلاء الملوك كان «وبار-توتو» وأنه قد حكم في مدينة شورباك لمدة ١٨،٦٠٠ سنة ، ثم جاء من بعدهم الطوفان الذي أغرق الأرض ، وبعد زوال الطوفان هبطت الملكية ثانية من السماء إلى « كيش » – وهي تل الأحيمر الآن قرب الحلة – ثم الوركاء (إرك في التوراة) ، وهنا تعود القائمة مرة أخرى إلى ذكر أسماء المدن التي حكمت العراق القديم بعد ذلك(٣) .

ورغم الأرقام الأسطورية التي قدمتها الوثيقة كفترة حكم لملوكها ، حتى بات من الصعب علينا أن نعرف منها متى انتهى العصر الأسطوري ومتى بدأ العصر التاريخي ؟ ، إلا أن الوثيقة – دون شك – تحمل بين طياتها كثيراً من المعلومات التاريخية الصحيحة ، ومع ذلك ، فما يهمنا هنا في الدرجة الأولى ، أن الوثيقة تتحدث بوضوح عن طوفان يفصل بين فترتي حكم، الأولى سابقة له ، والثانية تالية له ، تبدأ بنزول الملكية مرة ثانية

---

(١) S.L.Woolley, Excavations At Ur, London, 1963, P. 14.

(٢) Ibid., P. 14 وكذلك J. Fin egan, op. cit., P. 29.

(٣) S.L. Woolley, op. cit., P.14–15, وكذلك J. Finegan, op-cit., P. 29–30 وكذلك A.L.Oppenheim, in ANET, P. 265–67
وكذلك Thorkild Jacobson, the Sumerian King List, Assyrian Studies, 11, Chicago,1939
وكذلك G.A. Barton, the Royal Inscriptions of Sumer and Akkad, P. 346 F.

من السماء إلى كيش ثم الوركاء فأور . ولعل في هذا دليلاً واضحاً على أن قائمة الملوك السومرية إنما تعتبر حادث الطوفان الخطير بمثابة كسر في عملية استمرار تاريخ العراق القديم ، ومن ثم فهو حد فاصل بين عصور ما قبل التاريخ والعصر التاريخي .

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الأدلة الأثرية التي عثر عليها في طبقات مدينتي أريدو والوركاء لتثبت حقيقة ما نصت عليه وثيقة قائمة الملوك السومرية من حيث انتقال السيادة السياسية في جنوب العراق القديم بين تلك المدن(١) .

ويتجه « Sir Leonard Woolley » إلى اعتبار هذا الطوفان — موضوع الحديث — طوفاناً كبيراً لا مثيل له في أي عصر لاحق من تاريخ العراق القديم ، صحيح أن هناك في أور ، وفي مواضع أخرى من ميزوبوتاميا ، أدلة على فيضانات مؤقتة ومحلية حدثت في أوقات مختلفة من تاريخ العراق القديم ، وفي بعض الأحايين لم يكن أكثر من نتيجة أمطار هطلت في منطقة محدودة ، ولكن صحيح كذلك أن الطوفان الذي وضع نهاية لحضارة « العبيد » إنما يتفق في توقيته مع التاريخ السومري الذي وصل إلينا عن طريق التقاليد ، وأنه بعينه الطوفان الذي تحدثت عنه قائمة الملوك السومرية ، وهو الطوفان الذي روته التوراة في سفر التكوين ، على أنه يجب ألا يفهم أن القصة بحذافيرها صحيحة ، صحيح أن الخلفية حقيقة تاريخية ، ولكن التفاصيل قد زخرفها المؤلف السومري والعبري ببيانات وأوصاف تتفق وهدف كل منهما من كتابتها ، فمثلاً تقول التوراة إن الماء قد ارتفع ٢٦ قدماً ، وهذا ما يبدو صحيحاً إلى حد كبير ، كما أن القصة السومرية تصف إنسان ما قبل الطوفان بأنه كان يعيش في أكواخ من بوص ، وهذا أمر أثبتته الحفائر في العبيد وفي أور ، وأن نوحاً قد بنى فلكه من خشب خفيف لا ينفذ منه الماء ولا يؤثر فيه ، وأنه قد طلاه من داخل ومن خارج ، وهو أمر قد أثبتته الحفائر(٢) .

وهناك من الأدلة كذلك ما حدثنا عنه « سير ليونارد وولي » من أنه قد وجد في أور

---

(١) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢) Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 34-36.

أسفل طبقة المباني السومرية طبقة طينية مليئة بقدور من الفخار الملون ، مختلط بها أدوات من الصوان والزجاج البركاني ، وكان سمك هذه الطبقة حوالي ١٦ قدماً (٣ أمتار تقريباً) أسفل المباني الطينية التي يمكن تأريخها بحوالي عام ٢٧٠٠ ق.م ، وأن أور قد عاشت أسفل هذه الطبقة في عصر ما قبل الطوفان ، ولم تجر حتى الآن أي حفائر على نطاق واسع في هذه المنطقة ، وكل ما أمكن إثباته هو وجود مدينة قبل الطوفان . . . وأن الفخار الملون قد اختفى ، ويستنتج « وولي » أن سبب اختفاء هذا الفخار الملون الذي كان منتشراً في جنوب بلاد الرافدين قبل الطوفان اختفاء تاما مرة واحدة ، هو أن الطوفان قد قضى قضاء تاماً على سكان هذه البلاد ، وحتى من بقي منهم حيا فقد فَقَدَ القدرة على الإنتاج ، فجاء شعب جديد ، هم السومريون ، إلى تلك البلاد الخالية ، وأسسوا حضارة جديدة ، وكان فخارهم مصنوعاً على دولاب الفخار ، بدلاً من الفخار المصنوع باليد الذي كان سائداً في عصور ما قبل الطوفان ، كما استعملوا الأدوات المعدنية بدلا من الصوان(١) .

ولعل سائلاً يتساءل ، وهل كان الطوفان السومري هذا طوفاناً عاماً أغرق الدنيا كلها ، أم أنه كان مقصوراً على جنوب العراق ؟ .

ويجيب « وولي » بأن الطوفان لم يكن طوفاناً عالميا عمّ الكون بأسره ، وإنما كان مقصوراً على الحوض الأسفل لنهري الدجلة والفرات ، وأنه قد أغرق المنطقة الصالحة للسكنى هناك بين الجبال والصحراء ، — والتي هي بالنسبة إلى السكان الذين يعيشون فيها بمثابة العالم كله — وأن المساحة التي شملها الطوفان ربما كانت ٤٠٠ ميل طولاً ، في ١٠٠ ميل عرضاً ، وأن الغالبية العظمى من السكان قد أغرقهم الطوفان ، وأن القوم قد رأوا أن هذه الكارثة بمثابة عقاب من الإله بسبب آثام الناس وخطاياهم ، وأن قلة نادرة قد نجت ، وأن رأس هذه القلة قد نظر إليه كبطل للقصة ، وهو هنا «زيوسودرا»(٢).

---

(١) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٦–٩٧ .

(٢) Sir Leonard Woolley, op. cit., P.36. وكذلك Werner Keller, The Bib As History, London, 1967, P. 50-51.

ثانياً : قصص الطوفان البابلية

١ — ملحمة جلجاميش :

لقد ظل العالم لا يعرف شيئاً عن قصة الطوفان البابلية إلا من خلال رواية « بيروسوس» التي كتبت باللغة اليونانية — والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد — إلى أن عثر « هـ. رسام H. Rassam » في عام ١٨٥٣م على نسخـــة من رواية الطوفان البابلية في مكتبة « أشور بانيبال » (٦٦٨—٦٢٦ ق.م) الشهيرة في العاصمة الآشورية «نينوى» ترجع إلى القرن السابع ق.م .

وفي الثالث من ديسمبر ١٨٧٢ م أعلن « سيدني سمث » نجاحه في جمع القطع المتناثرة من ملحمة جلجاميش بعضها إلى بعض ، مكتوبة في اثني عشر نشيداً ، أو بالأحرى لوحاً ، ومحتوية على قصة الطوفان في لوحها الحادي عشر(١) .

وأما « جلجاميش » هذا فهو واحد من الملوك الذين ورد اسمهم في ثبت ملوك الوركاء في عهد أسرتها الأولى التي لا نعرف عنها شيئاً سوى أسماء ملوكها ، وقد صار بعضهم — مثل جلجاميش — موضوعاً لقصص وملاحم شعرية ، ويرجح العلماء الآن أن هؤلاء الملوك قد حكموا في العراق — في مدينة الوركاء — قبل عصور فجر الأسرات أو في بدايته(٢) ، على أننا نستطيع أن نعين تاريخاً تقريبيا لعهد « جلجاميش » هذا عن طريق قطعة من المرمر موجودة بالمتحف العراقي — وإن كانت مجهولة الأصل — كتب عليها « مي-براج-سي » ملك كيش ، وقد ثبت أنه الملك الثاني والعشرين من أسرة كيش الأولى « إن مي-براج-سي » هو في نفس الوقت والد « أجا » ملك كيش الذي حارب ضد « جلجاميش » خامس ملوك الوركاء — كما تحدثنا أسطورة جلجاميش وأجا السومرية(٣) — ويرى « جورج روكس » أن « إن-مي-براج-سي » هو أقدم حاكم

---

(١) M.F.Unger, Unger's Bible Dictionary, P. 371. وكذا : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٩٦—٩٧ .

(٢) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة جـ١ ص ٤٥٩ .

(٣) S.N. Kramer, in ANET, P. 44—47. وكذا نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٦٥—٢٦٧ .

سومري معروف لنا ، وإذا ما اعتبرنا أن « سرجون الأكدي » كان يعيش في الفترة (٢٣٧١–٢٣١٦ ق.م) ، فإنه من الممكن تقدير تاريخ حكم « إن-مي-براج-سي » هذا بحوالي عام ٢٧٠٠ ق.م ، كما يمكن اعتبار ذلك التاريخ بداية للعصر التاريخي في العراق القديم(١) ، ومن ثم فإن جلجاميش كان يعيش بعد هذا التاريخ بفترة ليست بعيدة على أي حال .

وقد اشتهر جلجاميش في آداب العراق القديم منذ أقدم عصور التاريخ ، وصار موضوعاً لعدة ملاحم سومرية وبابلية ، تدور حول مغامراته وأعماله البطولية ، حتى صار أشبه ما يكون بأبطال اليونان في عهد الأشعار الهومرية ، وهرقل والإسكندر في المآثر العربية ، ونمرود الوارد في التوراة(٢) ، وإن كانت ملحمته المشهورة بقصة جلجاميش ، والتي يؤلف خبر الطوفان جزءاً منها ، أشهر ما عرف عنه من قصص وملاحم .

وهاك ملخصاً لها :

تبدأ قصة الطوفان بعد أن ينتهي جلجاميش من قصته التي فقد في أخرياتها صديقه « أنكيدو » ، ذلك أن جلجاميش كان ملكاً حكيماً واسع المعرفة ، شجاعاً جريئاً ، ولكنه كان ظالماً مستبدا ، ومن ثم فإن الآلهة قد خلقت له « أنكيدو » ليدافع عن الناس ضد ظلمه ، إلا أن الصراع بينهما لم يحسم في مصلحة واحد منهما ، ومن ثم فقد تم الصلح بينهما ، وقام الاثنان بمغامرات كثيرة ، ثم مات أنكيدو فجأة ، فحزن جلجاميش لفقده ، ثم أسلمه الحزن إلى المرض ، وظل خائفاً يترقب مصيره المحتوم ، وإن كان في الوقت نفسه بدأ يفكر في وسيلة يتقي بها غائلة الموت ، وهكذا هداه تفكيره إلى البحث عن جده « أوتنابيشتم » بن « وبار-توتو » ليسأله عن كيفية إمكان أن يكون الإنسان الفاني مخلداً ، إذ كان على يقين من أن « أوتنابيشتم » على علم بهذا الأمر ، ذلك لأن الآلهة قد رفعته إلى مصافها ، وجعلته يسكن بعيداً في مكان ما متمتعاً بنعمة الخلود .

ويتحمل جلجاميش من أجل بغيته هذه رحلة مضنية خطيرة ، يلتقي في أثنائها

---

(١) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ص ٣٤٩ – ٣٥٠ . وكذا
George Roux, Ancient Iraq, (Penguin Books), 1966, P. 119–120.
وكذا
Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 14.

(٢) طه باقر : المرجع السابق ص ٤٥٩ .

برجل وامرأة في شكل ثعبانين يحرسان جبلاً ، كما يخترق طريقاً مفزعاً مظلماً لم تطأه قدما إنسان فان من قبل ، ثم يعبر بحراً مترامي الأطراف ، وأخيراً يلتقي بإحدى الإلهات فيطلب منها أن تدله على مكان جده « أوتنابيشتم » ، ولكنها — وقد علمت هدفه — تسدي إليه النصح قائلة : إلى أين تسعى يا جلجاميش ؟ إن الحياة التي تبغي لن تجدها ، ذلك لأن الآلهة لما خلقت البشر جعلت الموت من نصيبهم ، واستأثرت هي بالخلود . . . لتكن مبتهجاً ليل نهار ، ولتجعل كل يوم من حياتك يوم فرح وحبور . . . دلل الطفل الذي يمسك بيدك ، أدخل السرور إلى قلب المرأة التي في أحضانك . . . فهذا هو نصيب البشرية » ، ومع ذلك فإن جلجاميش يصر على سؤاله ، فلا تجد الإلهة إلا أن تجيبه إلى ما يريد .

ويلتقي جلجاميش بجده « أوتنابيشتم » فيطرح سؤاله عن كيفية حصول الإنسان على الخلود ، وهنا يجيبه « أوتنابيشتم » : هل بنينا بيتاً يقوم إلى الأبد ؟ هل عقدنا عهداً على أن نستمر إلى أبد الآبدين ؟ لم يكن هناك خلود منذ القدم ، ما أعظم الشبه بين الميت والنائم ، ألا تظهر على وجهيهما هيبة الموت ؟ وهكذا مصير السيد والعبد حتى ينتهي أجلهما في هذه الدنيا . . . وحين يتعجب جلجاميش من هذه الإجابة من شخص كان هو نفسه إنساناً فانياً ثم أصبح مخلداً فيما بعد ، كان على « أوتنابيشتم » أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من المصير المحتوم لكل إنسان ، فقص عليه قصة الطوفان الكبير التي تجرى على النحو التالي .

وهاك ترجمة(١) لها :

---

(١) E.A. Speiser, The Epic of Gilgamesh, in ANET, P. 72–99.
وكذلك محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٨–١١٠ ، وكذلك طه باقر : المرجع السابق ص ٤٦٧–٤٧٠ ، وكذا نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٤٧–٣٥٩ ، وكذلك : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ٩٧–١٠١ .

وكذلك J. Finegan, op. cit., P. 33–36.
وكذلك J. Gray, Near Eastern Mythology, P. 48–51.
وكذا S. Langdon, Semitic Mythology, P 210–23
وكذلك Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic and Old Testament Parallels, 1949.
وكذلك E.A. Wallis Budge, the Babylonian story of the Deluge and the Epic of Gilgamesh, 1920.
وكذلك ANEA, P. 40F.
وكذا E. Campbell Thompson, the Epic of Gilgamesh, 1930

قال أوتنابيشتم له ، لجاجاميش ، سأكشف لك يا جلجاميش عما خفي من الأمر ، سوف أخبرك بسر الآلهة ، شورباك مدينة أنت تعرفها على ضفاف الفرات ، وهي مدينة قديمة قدم الآلهة التي بها ، عندما انتوت الآلهة إحداث الطوفان . كان من بينهم « آنو » أبوهم ، و « انليل » الشجاع مستشارهم ، و « نينورتا » مساعدهم ، و « إينوجي » مفتش الترع ، و « نينجيكو-أيا » كان حاضراً معهم ، وأعاد قولهم إلى كوخ القصب (ربما مسكن أوتنابيشتم) : يا كوخ القصب ، يا حائط ، يا حائط ، اصغ يا كوخ القصب ، استمع يا حائط ، يا رجل شورياك ، يا ابن « وبار-توتو » .

اهدم هذا البيت ، وابن فلكاً ، دع الأملاك وأنقذ حياتك ، اهجر المتاع ودع الروح حية ، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي ، والفلك التي ستبنيها ستكون أبعادها حسب هذا المقياس ، عرضها مثل طولها ، واجعل سقفها كسقف الأيسو (العالم السفلي) . ففهمت وقلت لمولاي « إيا » : نعم يا مولاي ، إن ما تأمر به يشرفني أن أنفذه ، لكن بم أجيب المدينة : الناس والشيوخ .

ففتح « إيا » فاه وأجاب قائلاً لخادمه ، لي أنا ، قل لهم : علمت أن إنليل يعاديني ، ومن ثم فلا أستطيع أن أقيم في مدينتكم أو أضع قدمي في أملاك أنليل ، ولذا فسوف أنزل إلى الأعماق ، وأسكن مع مولاي « إيا » ، وأما أنتم فسوف ينزل عليكم مطراً مدراراً . . . خير الطيور وأندر الأسماك ، وسوف تمتلىء الأرض بمحاصيل وفيرة ، ومع انبثاق الفجر تجمعت الأرض من حوالي . . . النص مهشم ، وحمل الصغار القار ، وجاء البالغون بكل ما احتجنا إليه .

وفي اليوم الخامس أقمت هيكلها (أي السفينة) . وكانت أرضيتها فداناً كاملاً ، وكان ارتفاع كل حائط من حوائطها ١٢٠ ذراعاً ، وطول كل ضلع من السطح ١٢٠ ذراعاً ، وبنيت هيكل جوانبها وربطتها إلى بعضها ، وجعلت فيها ستة أسطح ، قسمتها إلى سبعة طوابق ، وقسمت أرضيتها تسعة أجزاء ، ودققت سدادات المياه بها ، وجهزتها بما نحتاج إليه من المؤن ، وصببت في الفرن ست سار (السار --- ٨٠٠ جالون) من القار ، كما صببت كذلك ثلاثة سار من الأسفلت ، (فضلا) عن ثلاثة سار من الزيت نقله

حاملو السلال ، وسار من الزيت استهلكته القلفطة ، كما خزن الملاح سارين من الزيت ، وذبحت ثيراناً للناس ، ونحرت ماشية كل يوم ، وأعطيت العمال عصير فواكه ، ونبيذاً أحمر وآخر أبيض ، وكأنه مياه النهر ، ليشربوا وكأنهم في يوم عيد رأس السنة ، وفتحت . . . الدهون ، لوضعها على يدي .

واكتمل الفلك في اليوم السابع ، وكان إنزاله إلى الماء بالغ المشقة ، حتى إنهم اضطروا لدفع ألواح الأرضية من أعلى ومن أسفل ، حتى أمكن إنزال ثلثي هيكله إلى الماء ، وحملتها بكل ما عندي ، حمّلتها بكل ما لدي من فضة ، حلمتها بكل ما لدي من ذهب ، حمّلتها بكل ما أملك من الكائنات الحية وكل عائلتي وذوي قرباي ، أركبتهم الفلك ، وكذا حيوان الحقل ووحوش الحقل ، وكل الصناع أركبتهم معي .

وقد حدّد لي « شمس » (شماس) وقتاً معيناً ، عندما ينزل الموكل بالزوابع ليلاً مطرا مهلكاً ، أصعد إلى الفلك وأوصد بابه . وجاء اليوم الموعود ، وأنزل الموكل بالزوابع ليلاً مطراً مهلكاً ، وأخذت أرقب وجه السماء ، وكان منظر العاصفة مخيفاً يثير الرعب ، فصعدت إلى الفلك وأوصدت بابه ، وعهدت إلى النوتي « بوزور-أموري » بقيادة الفلك ، وبسد جميع منافذه .

ومع انبثاق الفجر ، ظهرت في السماء غمامة سوداء ، وأرعد « أداد » من داخلها ، وتقدمها « شولات » و« هانيش » كنذيرين فوق التل والسهل ، ونزع « إيرجال » (نرجال إله العالم السفلي) الأعمدة (أي الأعمدة الخاصة بسد العـــالم) ، وجاءت « نينورتا » وجعلت السدود تفيض ، وحمل « أنوناكي » المشاعل وجعلوا الأرض تشتعل نارا ، ووصل الذعر من « أداد » إلى عنان السماء ، فأحال النور إلى ظلمة ، وانصدعت الأرض الواسعة ، وكأنها جرة ، وهبت عاصفة الجنوب يوماً كاملاً بسرعة عنيفة حتى أخفت الجبال ، وحلت بالناس وكأنها حرب ، فلا يرى الأخ أخاه ، ولم يعد الناس يعرفون من في السماء ، وخشي الآلهة الطوفان فأجفلوا وصعدوا إلى سماء « أنو » (أعلى سماء في النظرية العالمية عند الأكديين) حيث ربضوا كالكلاب على الأسوار الخارجية ، وصرخت عشتار وكأنها امرأة جاءها المخاض ، وناحت سيدة الآلهة ذات الصوت الشجي

بصوت عال : واحسرتاه ! ، لقد تحولت الأيام الخوالي إلى طمي ، لأني لعنت الناس في مجمع الآلهة ، ولكن : كيف ألعن الناس في مجلس الآلهة ، وأعلن حرباً لفناء الناس ، بينما أنا التي وهبتهم الحياة ، إنهم يملأون البحر كبيض السمك ، وبكى آلهة « أنوناكي » معها وجلس الآلهة جميعاً يبكون في ذلة ، وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض ، واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال ، وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض .

وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب عن الحرب التي شنتها وكأنها جيش من الخيالة ، وهدأ البحر ، وسكنت العاصفة وتوقف الطوفان ، وتطلعت إلى الجو ، فإذا السكون شامل ، وإذا الناس وقد تحولوا إلى طين ، وإذا الأرض قد تشققت وكأنها جرة ، ففتحت كوة وسقط الضوء على وجهي ، فجلست وبكيت وسالت دموعي على وجهي ، وتطلعت إلى الدنيا في عرض البحر ، وفي كل من الأقاليم الأربعة عشر ، (الاثني عشر) طلع نجم .

واستوت الفلك على جبل نيصير (١) ، وأمسك جبل نيصير بالفلك ولم يدعها تتحرك ، ويوم ثم يوم آخر ، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ، ويوم ثالث ورابع ، وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ويوم خامس ثم يوم سادس وجبل نيصير يستمسك بالسفين فلا تحير حراكاً ، فلما كان اليوم السابع أطلقت حمامة فذهبت وعادت وعزّ عليها أن تجد مكاناً ظاهراً تحط عليه ، ثم أطلقت « سنونو » ، إلا أنه عاد ، إذ لم يكن ثمة مكان ظاهر يحط عليه ، ثم أطلقت غراباً فذهب ورأى الماء يتناقص فأكل وعبّ ودار ولم يعد ، ثم أطلقت الجميع إلى الرياح الأربعة ، وضحيت وأرقت سكيبة على قمة الجبل ، ونصبت ٤ أقدار ، وعلى صحاف قوائمها كومت القصب وخشب الأرز والآس . فشمت الآلهة الرائحة الزكية ، وتكأكأت حول الأضاحي ، وعندما وصلت سيدة الآلهة (عشتار) نزعت المجوهرات العظيمة التي صاغها لها « أنو »

---

(١) تصف النصوص المسمارية البابلية القديمة موقع جبل نيصير (نيزير) بأنه بين الدجلة والزاب الأسفل وحيث سلسلة جبال كردستان في شرق الدجلة ، وعلى أى حال فهو يمكن توحيده بجبل بئر عمر جد رون (انظر Speizer, AASOR, وكذا Finegan,op. cit., P.35. وكذا Keller, op. cit., P. 57 8, 1926–27, P. 7, 17–18. ومحمد عبد القادر : قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين) .

طبقاً لمشتهاها ، وقالت : أيتها الآلهة ، كما أنني سوف لا أنسى حقا عقد اللازورد الذي في عنقي ، فسوف أذكر هذه الأيام ولن أنساها ، ليتقدم الآلهة إلى القربان ، إلا أنليل ، فإنه لا يتقدم ، لأنه أحدث الطوفان دون روية ، وقاد شعبي إلى التهلكة .

ولما جاء أنليل ورأى الفلك عزّ عليه ذلك ، وامتلأ غضباً على آلهة « أجيجي » (آلهة السماء) وقال : هل نجت روح ، ما كان للبشر أن يبقى ، ففتح « نينورتا » فاه وقال : من غير «إيا» يفشي الخطط ، فإنه ، يا أنليل الباسل ، يعلم كل شيء . وفتح « إيا » فاه وقال لأنليل البطل : أنت يا أحكم الآلهة ، أيها البطل ، كيف تحدث الطوفان دون روية ، على الآثم وزر إثمه ، وعلى المعتدي وزر اعتدائه ، كن رحيماً وإلا قطع . . . كن صبوراً وإلا أقضي . . .

ليت أسداً هب وقلل من بني الإنسان ، بدلاً من أن تأتي بالطوفان ، ليت ذئباً هب وقلل من بني الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان ، ليت مجاعة هبت وقللت من بني الإنسان ، بدلاً من إحداث الطوفان ، ليت طاعوناً هب وقلل من بني الإنسان بدلا من إحداث الطوفان .

لست أنا الذي أفشيت سر الآلهة العظام ، بل جعلت « أتراخاسيس » (حكيم الحكماء ـــ أوتنابيشتم) يرى حلماً كشف فيه سر الآلهة ، فاقض فيه ما أنت قاض ، وعيئنذ صعد أنليل إلى ظهر السفين وأمسك بيدي وأخذني إلى ظهرها وأخذ زوجتي وجعلها تركع بجانبي ووقف بيننا ليباركنا وقال : لم يعد أوتنابيشتم بشراً ، سيكون هو وزوجته أشبه بنا معشر الأرباب ، وعلى ذلك أخذوني وأسكنوني بعيداً عند مصاب الأنهار ، ولكن أنت يا جلجاميش من يجمع لك مجمع الآلهة ليهبوا لك الحياة التي تريد ؟ . .

٢ ـــ قصة بيروسوس :

في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد ، وعلى أيام الملك « أنتيوخوس الأول » (٢٨٠ـــ٢٦١ ق.م) ، كان هناك أحد كهنة الإله « مردوك » البابلي ، ويدعى « بيروسوس Berossos » قد كتب تاريخ بلاده باللغـــة اليونانية في ثلاثة أجزاء ، ومن

أسف أن هذه الكتابات ـ شأنها في ذلك شأن كتابات الكاهن المؤرخ المصري مانيتو من نفس الفترة ـ والتي تقدم وجهة النظر القومية حينئذ عن تاريخ العراق القديم لم تصل إلينا كاملة ، وكل ما وصلنا منها مقتطفات حفظها لنا المؤرخون المتأخرون من الأغارقة ، ومن حسن الحظ أن هذه المقتطفات كانت تحتوي على قصة الطوفان البابلية التي تجري أحداثها على النحو التالي :

في عهد الملك « أكسيسوثروس » ، وفي ليلة ما ، رأى هذا الملك فيما يرى النائم أن الإله « كرونوس » يحذره من طوفان سوف يغمر الأرض ويهلك الحرث والنسل ، في اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ـ وهو الشهر الثامن من السنة المقدونية ـ ومن ثم فإن عليه أن يكتب تاريخ البشرية منذ بدايتها ، وأن يدفن ما يكتبه في مدينة سيبار ، بلد الشمس ، حتى لا يضيع في طوفان سوف يدمر كل شيء ، كما أمره كذلك أن يبني فلكاً يأوي إليه .

ويسأل « أكسيسوثروس » ربه عن المكان الذي يبحر إليه بفلكه هذا ، فإذا به يجيبه « إلى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلي من أجل خير الناس » ، ويصدع الملك بأمر إلهه ، ويبني فلكاً طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة ، يجمع فيه كل أقربائه وأصحابه ، ويختزن فيه زاداً من اللحم والشراب ، فضلاً عن الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع .

ويغرق الطوفان الأرض ، وعندما ينحسر عنها يطلق الملك سراح بعض الطيور التي تعود إليه ثانية ، ثم يطلقها بعد أيام ، فإذا بها تعود وأرجلها ملوثة بالطين ، وحين يكرر الأمر مرة ثالثة لا تعود الطيور إلى الفلك ، ويعلم الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، وينظر من كوة في السفين فيرى الشاطئ الذي يتجه إليه ، وهناك تستقر الفلك عند جبل ، حيث ينزل الملك وزوجه وابنته وقائد الدفة .

ويسجد الملك لربه ويقدم له القرابين ، ثم يختفي هو ومن معه ، ويبحث الذين ما يزالون في الفلك عن الملك ورفاقه ، ولكنهم لا يجدون لهم أثراً ، وحين يجدُّون في البحث عن المختفين يسمعون صوتاً يدوي في الهواء ، ويطلب منهم أن يتقوا الآلهة ويكفوا عن

البحث عن المختفين ، لأن الآلهة قد اختارتهم لكي يسكنوا إلى جوارها ، ثم يأمرهم الصوت بالعودة إلى بابل والبحث عن الكتابات المدفونة هناك ، وأن يوزعوها فيما بينهم ، كما أخبرهم الصوت أن الأرض التي يقفون عليها ، إنما هي أرض أرمينيا ، وهكذا عاد القوم — دون المختفين — إلى بابل ، واستخرجوا الكتابات المدفونة في سيبار ، وشيدوا مدناً كثيرة ، وأعادوا الأرض المقدسة وعمروا بابل بنسلهم(١) .

وهناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت في مدينة « نيبور »(٢) في أثناء عمليات الحفر التي قامت بها جامعة بنسيلفانيا ، وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق ، وقد رأى الأستاذ « هـ. و. هيلبرخت » مرتكزاً على أسلوب كتابتها ، وعلى المكان الذي عثر عليها فيه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد عام ٢١٠٠ ق.م ، وقد ورد في هذه الرواية أن الإله ظهر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشري في الحال ، وحذر من هذا الطوفان شخصاً بعينه ، فطلب منه أن يبني فلكاً كبيراً ، ذا سقف قوي ، لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيوان الأليفة وطيور السماء(٣) .

وهكذا فإن هناك الكثير من الشواهد الأثرية لقصة الطوفان البابلية ، تؤيدها كتابات على لوح مهشم اكتشف في مدينة « سيبار » أثناء عملية الحفر التي قامت بها الحكومة التركية ، ويرجع إلى حوالي عام ١٩٦٦ ق.م ، نستطيع أن نستخلص منه اسم « أترخاسيس » (أترام خاسيس) ، فضلاً عن إشارات إلى المطر الغزير ، وإلى السفين

---

(١) سير جيمس فريزر : الفلكلور في العهد القديم — ترجمة نبيلة إبراهيم — مراجعة حسن ظاظا — جـ١ — ص ٩٤-٩٥ .

(٢) نيبور : وتقع على مبعدة مائة ميل إلى الجنوب من بغداد ، وفي منتصف المسافة تقريباً بين كيش وشورباك ، وتعتبر نيبور أهم المراكز الثقافية السومرية في العراق القديم ، كما أنها أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز ديني في بابل ، كما أن « انليل » إله المدينة كان رئيس مجمع الآلهة البابلي ، وقد أمدتنا المدينة بالآلاف من اللوحات المكتوبة والجذاذات التي صنفت في الألف الثالثة والثانية ق.م، والتي تدل بوضوح على مدى انتشار الثقافة السومرية (انظر KFTS, P. 277)
وكذلك J.P.Peters, Nippur, or Explorations on the Euphrates, 2 vols., 1897.
وكذلك H.W.Hilprecht, the Excavations in Assyria and Babylonia, 1903, P. 289FF

(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق — ص ١٠٢ .

الذي أمر الملك التقي في « شورباك » ببنائه ، وإلى الأفراد الذين أنقذوا من الطوفان بواسطة الفلك(١) .

هذه هي أهم الروايات لقصة الطوفان في العراق القديم ، وقبل أن نعقد مقارنة بين القصص السومرية والبابلية ، نوّد أن نشير إلى أنه قد عثّر في أرشيف « بوغازكوي » العاصمة الحيثية على نسخة ترجع إلى الألف الثاني ق.م ، فضلاً عن ترجمة للقصة باللغة الحيثية ، وأخرى بالحورية على جزء من لوحة حورية .

يرى « جيمس فريزر(٢) » أن قصة الطوفان السومرية تتفق في ملامحها الأساسية مع قصة الطوفان كما جاءت في ملحمة جلجاميش التي تتميز عن أختها السومرية بطولها وكثرة حوادثها ، ففي كلتا القصتين قرر إله كبير أن يهلك الجنس البشري عن طريق إغراق الأرض بالأمطار ، وفي كليتهما حذر إله آخر رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل ومن معه عن طريق سفينة أمر ببنائها ، وفي كلتا الحكايتين بلغ الفيضان ذروته في اليوم السابع ، وفي كلتا الحكايتين قدم الإنسان ضحيته للآلهة بعد أن انتهى الطوفان ، ثم رفعته الآلهة بعد ذلك إلى مصافها .

أما الاختلاف الجوهري الوحيد بين الروايتين ، فيتمثل في اسم البطل فيهما ، فهو « زيوسودرا » في الرواية السومرية ، وهو « أوتنابيشتم » أو « أثرخاسيس » في الرواية السامية .

ثالثاً : قصة الطوفان اليهودية كما ترويها التوراة :

وردت هذه القصة في الإصحاحات من السادس إلى التاسع من سفر التكوين ، وتجري أحداثها على النحو التالي — كما يصورها النص العربي للتوراة — :

بدأ الناس يتكاثرون على الأرض ، ويلدون بنات ، وهنا رأى أبناء الله أن بنات الناس حسناوات ، ومن ثم فقد اتخذوا منهن لأنفسهم نساء ، وسرعان ما أنجبت النسوة من بنات الناس ، أبناء للرجال من أبناء الله ، « وهم الجبابرة منذ الدهر » .

---

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق — ص ١٠٢ . وكذا E. Sollberger, The Flood, P. 24F

(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق — ص ١٠٥ .

وهنا رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، فحزن أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبـــه ، وعزم على أن يمحو الإنسان والبهائم والدواب والطيور عن وجه الأرض ، وإن استثنى من ذلك نوحاً ، لأنه « كان رجلاً بارا كاملاً في أجياله ، وسار نوح مع الله » .

وتزداد شرور الناس ، وتمتلىء الأرض ظلماً ، ويقرر الرب نهاية البشرية ، إذ تحدرت إلى شر وغواية ، ويحيط نوحاً علماً بما انتواه ، آمراً إياه بأن يصنع فلكاً ضخماً ، « ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه » ، وأن يكون طلاؤها بالقار والقطران من داخل ومن خارج ، حتى لا يتسرب إليها الماء ، وأن يدخل فيها اثنين من كل ذى جسد حي ، ذكراً وأنثى ، فضلا عن امرأته وبنيه ونساء بنيه ، هذا إلى جانب طعام يكفي من في الفلك وما فيه(١) .

ويكرر الرب أوامره لنوح في الإصحاح التالي ، فيأمره أن يدخل الفلك ومن معه ، « ومن جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض » ، ذلك لأن الرب قرر أن يغرق الأرض ومن عليها وما عليها بعد سبعة أيام عن طريق مطر يسقط على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ويصدع نوح بأمر ربه فيأوي إلى السفين ومعه أهله واثنين من البهائم الطاهرة وغير الطاهرة ، فضلاً عن الطيور وكل ما يدب على الأرض .

وفي اليوم السابع عشر من الشهر الثاني من عام ستمائة من حياة نوح بدأ الطوفان ، « وانفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء ، واستمر الطوفان أربعين يوماً على الأرض » ، وتكاثرت المياه ورفعت الفلك عن الأرض وتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء ، خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه ، ومات كل جسد كان يدب على الأرض ، من الناس ، والطيور والبهائم والوحوش وكل

(١) تكوين ٦ : ١-٢٢ .

الزحافات ، وبقي نوح والذين معه في الفلك فحسب(١) .

ومضت مئة وخمسون يوماً نقصت من بعدها المياه ، حتى إذا ما كان اليوم السابع عشر من الشهر السابع استقرت الفلك على جبل أراراط ، ثم ظهرت رؤوس الجبال في اليوم الأول من الشهر العاشر ، ثم تمضي أربعون يوماً ، وبعدها يرسل نوح غراباً ثم حمامة تعود بعد فترة ، « لأنها لم تجد مقرا لرجلها » ، ثم يعود نوح فيرسلها ثانية بعد سبعة أيام أخر ، فتعود ومعها ورقة زيتون خضراء ، ويكرر نوح المحاولة بعد سبعة أيام أخر ، فلا تعود إليه الحمامة .

وفي أول الشهر الأول من السنة الواحدة بعد الستمائة من حياة نوح « فإذا وجه الأرض قد نشفت » ، وأمر نوحاً أن يخرج من السفين . وكذا من معه وكل الحيوانات والدواب والطيور ، ويبني نوح مذبحاً للرب ويصعد له محرقة ، « فتنسم الرب رائحة الرضا ، وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض من أجل الإنسان . . ولا أعود أميت كل حي كما فعلت »(٢) .

« وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض ، ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وطيور السماء » ، ثم حرم عليهم قتل بعضهم البعض الآخر ، لأن « سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه ، لأن الله على صورته عمل الإنسان » ، ثم يقيم الله ميثاقه مع نوح وبنيه ومع نسلهم من بعدهم ، فضلا عن الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض ، على ألا يكون هناك طوفان بعد اليوم ، ذلك لأن الرب قد وضع قوسه في السحاب كعلامة ميثاق بينه وبين كل ذي جسد على الأرض ، وأنه متى نشر السحاب على الأرض وظهر القوس ، تذكر الرب ميثاقه ، فلا يكون طوفان يهلك كل ذي جسد على الأرض(٣) .

وتختم التوراة قصة الطوفان برواية دنيئة كاذبة مؤداها أن نوحاً قد شرب مرة بعد

---

(١) تكوين ٧ : ١-٢٣
(٢) تكوين ٧ : ١-٢١ .
(٣) تكوين ٩ : ١-١٧ .

نجاته من الطوفان نبيذ العنب الذي غرس كرمه بيده ، ففقد وعيه وانكشفت سوأته ، فرآه ابنه حام على هذه الصورة فسخر منه وحمل الخبر إلى أخويه سام ويافث ، ولكن هذين كانا أكثر منه أدباً ، فحملا رداء وسارا به القهقرى نحو أبيهما وستَرا عورته دون أن يبصراها ، فلما أفاق نوح من خمره ، وبان له ما فعله به حام ، لعن كنعان ودعا على نسله أن يكونوا عبيداً لعبيد أولاد سام ويافث(١) .

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات(٢) .

١ ـــ مناقشة قصة التوراة عن الطوفان :

يجمع نقاد التوراة (العهد القديم)(٣) ، على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هي مدونة في سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين في أصلهما ، ومتناقضتين تناقضاً جزئيا ، وقد مزج المؤلف بين القصتين لكي يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل ، ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينهما بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارئ ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتّى وإن كان القارئ غير مدقق في قراءته(٤) .

وأما هذان المصدران اللذان أخذ سفر التكوين قصة الطوفان عنهما ، فأولهما : المصـــدر اليهوي « Jahvistic Document » ويرمز له بالحرف «J» ، وربما ألف حوالي عام ٨٥٠ ق.م في يهوذا ، وسمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم « يهوه » ، وأما ثانيهما فهو المصـــدر الكهنوتي « Priestly Document » ويرمز له بالحرف

---

(١) تكوين ٩ : ٢٠–٢٧ وكذلك علي عبد الواحد وافي : الأسفار المقدسة ص ٣٢ .

(٢) تكوين ٩ : ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) التوراة : كلمة عبرانية تعني الهداية والإرشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية) والتي تنسب إلى موسى – عليه السلام – وهي جزء من العهد القديم ، والذي يطلق عليه تجاوزاً اسم « التوراة » من باب اطلاق الجزء على الكل ، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى – والتوراة ، أو العهد القديم – تمييزاً له عن العهد الجديد (كتاب المسيحيين المقدس) – هو كتاب اليهود الذي يضم إلى جانب تاريخهم ، عقائدهم وشرائعهم ، ويقسمه أحبار اليهود إلى ثلاثة أقسام : الناموس والأنبياء والكتابات (راجع كتابنا إسرائيل ص ١٩ وما بعدها) .

(٤) جيمس فريزر : المرجع السابق ، ص ١٠٦ .

« P » ، وهو حواشي الكهنة التي أضافوها إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا ، وقد أدمج في مصادر التوراة (١) الأخرى حوالي نهاية القرن الخامس ، وربما الرابع ق.م ؛ وليس من شك أن كلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافاً بيّناً في أسلوبه وصيغته ، كما أنهما ينتميان إلى عصور مختلفة ، كما رأينا ، هذا إلى جانب أن الرواية « اليهوية » تنبض بحيوية وخيال . بينما النص « الكهنوتي » ، وإن كان جافا بالقياس ، فهو يتميز بدقة وتدبر (٢) .

وتتميز العناصر التفصيلية التي تتألف منها قصة الطوفان في سفر التكوين بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة (٣)، فإذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية ، فإن أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب في كلا المصدرين فهو في المصدر اليهوي « يهوه » ، وهو في المصدر الكهنوتي « إلوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتهما « الترجمة الإنجليزية المعتمدة » إلى كلمتي « السيد » و « الرب » على التوالي (٤)، وأما الترجمة العربية للتوراة ، فإنها تستعمل كلمة « الرب » و « الله » بدلاً من « يهوه » و « إلوهيم » .

على أن الاختلافات المادية بين الحكايتين — اليهوية والكهنوتية — لا تزال تلفت النظر إلى أكثر من ذلك ، وحيث إن هذه الاختلافات تصل في بعض الحالات إلى حد التناقض القاطع ، فإن إثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل إلى حد اليقين ، ولنقرأ ما جاء في سفر التكوين (٥) ، من أن الله أمر نوحاً أن يأخذ « من جميع البهائم الطاهرة سبعة سبعة ذكراً وأنثى ، ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكراً وأنثى ، ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكراً وأنثى » ، ثم نقرأ بعد ذلك في نفس السفر — بل وفي نفس الإصحاح — « ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست

---

(١) راجع عن « مصادر التوراة » كتابنا إسرائيل ص ٤٥–٤٨ .

(٢) La Sainte Bible (Ecole Biblique de Jérusalem) Ed. du Cerf, Paris, 1961, P. 14.

وانظر التعليق في الهامش ، وكذلك : حسين ذو الفقار صبري : توراة اليهود ، المجلة ، العدد ١٥٧ ، يناير ١٩٧٠ م .

(٣) راجع « التناقضات في التوراة » في كتابنا إسرائيل ، ص ٩٧–١٠٩ .

(٤) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٠ .

(٥) تكوين ٧ : ٢–٣ .

بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض ، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى ، كما أمر الله نوحاً »(1) ، فهل أمر الله نوحاً أن يأخذ « سبعة سبعة » أم « اثنين اثنين » ؟ أم أن نوحاً — وحاشا نبي الله أن يكون كذلك — قد عصى أمر ربه ؟ أم أن هذا كان خطأ من الكاتب ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، ففي أي النصين كان الخطأ ، أفي نص الأمر ، أم في نص التنفيذ ؟ علماً بأن نص التنفيذ قد تكرر مرة ثانية في التكوين « ودخلت إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة »(2) ، كما أن الواضح من نص التكوين هذا أنه يضغط على أن ما أمر به الرب « اثنين اثنين » ، ولكنه في التكوين (٧ : ٢) يختلف عن ذلك كثيراً .

ولعل السبب في هـذا التناقض — فيما يرى جيمس فريزر(3) — أن الحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، فبينما أخذ نوح معه في الفلك سبعة من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من كل صنف من صنوف الحيوان النجس ، أما الكاتب الكهنوتي فلم يميز بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهي على قدم المساواة مع بعضها البعض ، وإن قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف ، والسبب في هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتي لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فإن نوحاً لم يكن يعرفها ، أما الكاتب الكهنوتي فقد رأى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشري منذ العصور الأولى .

ومرة أخرى تناقض التوراة نفسها في سبب الطوفان ، ففي الرواية اليهوية يعزو « يهوه » القضاء على البشرية ، إذ تحدرت إلى شر وغواية (4)، أما في الرواية الكهنوتية ، فإن الله (إلوهيم) — لاحظ مرة أخرى الاختلاف بين « يهوه » هناك ، وبين « إلوهيم »

(1) تكوين ٧ : ٨-٩ .
(2) تكوين ٧ : ١٥-١٦ .
(3) جيمس فريزر : المرجع السابق . ص ١١٢ .
(4) تكوين ٦ : ٥-٧ . كذلك : حسين ذو الفقار صبري . توراة اليهود ، المجلة ، العدد ١٥٧ يناير ١٩٧٠ ص ١١ .

(الله) هنا — إنما يتخذ قراره ! إذ يرى الأرض قد فسدت جميعاً . . . كل من وما عليها من حي »(١) .

والأمر كذلك بالنسبة إلى مصدر الطوفان ، فبينما يعزوه النص اليهوي إلى مطر عارم يتهاطل على الأرض أربعين يوماً بلياليها دون انقطاع (٢) ، يعزوه النص الكهنوتي ليس إلى المطر وحده ، وإنما تنفجر أيضاً ينابيع الغمر العظيم من أسفل كما من فوق ، فكأن قد انهار « الجلد » الذي نصبه الإله عند بدء الخليقة فاصلاً بين المياه السفلية والتي في السماء ، كما تحدثنا التوراة(٣) .

ثم إن هناك اختلافاً جوهرياً آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة الطوفان ، فقد ظلت الأمطار تهطل في قصة الكاتب اليهوي مدة أربعين يوماً وأربعين ليلة(٤) ، ثم ظل نوح في فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته ، ووفقاً لهذا الحساب فإن الفيضان يكون قد دام واحداً وستين يوماً ، أما في الحكاية الكهنوتية فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوماً (٥) ، وبعده أخذت المياه في الانخفاض ، أما مدة الطوفان في العموم فقد استغرقت اثني عشر شهراً وعشرة أيام ، وحيث إن الشهور العبرية كانت شهوراً قمرية ، فإن الاثني عشر تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً ، وإذا أضفنا إلى هذا الرقم عشرة أيام أخرى ، فإن المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أي ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً ، وحيث إن الكاتب الكهنوتي قد حسب مدة الفيضان بما يساوي سنة شمسية ، فإنه يمكننا أن ندعي — ونحن مطمئنون — أن هذا الكاتب قد عاش في الزمن الذي استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ الكبير في التقويم القمري عن طريق مراقبتهم للشمس(٦) .

وأخيراً فإن الكاتب اليهوي — كما يقول جيمس فريزر(٧) — عن بناء نوح للهيكل

(١) تكوين ٦ : ١١-١٣ وكذلك : حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١١ .
(٢) تكوين ٧ : ٤ ، ١٢ .
(٣) تكوين ١ : ٦-٧ وكذلك حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١١ .
(٤) تكوين ٧ : ٥ ، ١٣ ، ١٧ .
(٥) تكوين ٧ : ٢٤ ، ٨ : ٣ .
(٦) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٢ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ١١٣ .

وتقديمه الضحية للرب شكراً له على إنقاذه من الطوفان ، في حين أن الكاتب الكهنوتي لا يذكر شيئاً عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية ، وسبب هذا بدون شك هو أنه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون « اللاوي » الذي انشغل به الكاتب الكهنوتي ، كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادي مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعدياً كبيراً على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتي لحظة في أن ينسبه إلى الشيخ المبجل .

وبناء على ذلك فإن الموازنة بين الحكايتين تؤكد بصورة واضحة النتيجة التي توصل إليها النقاد، وهي أنهما كانتا في الأصل مستقلتين، وأن الحكاية اليهوية تعد بحق أقدم من الحكاية الكهنوتية ، ثم مزج كاتب النص الحالي في التوراة بينهما بطريقة فجة للغاية .

ثم يزعمون بعد ذلك — ويا للعجب — أن هذا تنزيل من عليّ قدير ، « كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »(١). فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب نصوصه بعضها مع بعض «أفلا يتدبّرُونَ القرآنَ ولوكانَ مِنْ عندِ غيرِ الله لوَجدُوا فيه اختلافاً كثيراً»(٢).

بقيت نقطة أخيرة في قصة الطوفان — كما قدمتها التوراة — تتصل بوجهة نظر جديدة في الحقيقة ، ذلك لأنه نظراً لما تتمتع به الأساطير الطوفانية من دلالات خاصة في كافة الديانات ، فإنما ترمز إلى إعادة خلق(٣) ، أو إلى تكرار عملية التكوين الأولى ، فتتأكد فيه بالنسبة للمكان قدسية « المركز الكوني » ، وإنا لنجد إيحاءات بذلك في الكتابات الحاخامية ، تقريراً بأن « العالم خلق إلى وجود ابتداء من صهيون » ، وأن آدم إنما « سوّي في أورشليم »(٤) ، ثم الادعاء بأن أرض فلسطين متسامقة عن غيرها ، لم تغمرها مياه الطوفان ، مع التركيز في نصوص أخرى على أن مدينة أورشليم وجبل صهيون بالذات ، هما اللذان أفلتا من الغمر العظيم(٥).

---

(١) سورة الكهف : آية ٥ .

(٢) سورة النساء : آية ٨٢ .

(٣) Mircea Eliade, Traite d'Histoire des Religions, Paris, 1964, P. 182.

(٤) Mircea Eliade, Cosmos and History, New York, 1959, P. 16–18.

(٥) Ibid., P. 13-15. ، وكذلك حسين ذو الفقار : إله موسى في توراة اليهود : المجلة — العدد ١٦٣ يوليو ١٩٧٠ ص ١٥ .

فلو كانت العقيدة اليهودية صادقة مع نفسها ، لما انحط فلك نوح على جبل «أراراط» ، وإنما على جبل صهيون، الذي انعقدت من بعد نصوص التوراة على تجسيده في صورة من تفرد قدسي ، من حول معبد سليمان ، مما حدا بالحاخامات أن يدونوا ما دونوا — وسبق الإشارة إليه — من أنها منطقة متسامقة قصر عن أن يغمرها الطوفان ، في تحد سافر لما تقرره النصوص القديمة(١) من أن قد « تعاظمت المياه كثيراً جدا على الأرض ، فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت السماء » ، ومن هنا ، فهو إذن صهيون ، وليس أراراط ، الجبل الذي انحط عليه فلك نوح ، إلا أن نكون أمام حقيقة تاريخية — فهو « الجودي » استوت عليه سفينة نوح ، إذ « غيض الماء وقضي الأمر »(٢)، ولكن من أدرانا أن « لجودي » كان قمة من جبال أراراط ، حتى نسلم أننا أمام حقيقة تاريخية ، إنما هو افتراض لا يستقيم مع المنطق — نستخلصه من الدراسات المقارنة — الذي خضعت له في جوهرها أساطير الأولين — بل وحتى تحبيرات الحاخامات ، بعد ذلك بقرون — حريصة كل الحرص على قدسية المكان ، من حيث مركزية تكوين ، وبالضرورة ، من حيث إعادة خلق ، أو إعادة توالد وتكاثر من صلب ذرية مصطفاة ، وقد أبيدت أسباب الحياة جميعاً(٣).

إننا بصدد أسطورة أجمع النقاد على أنها استعيرت من أصول سابقة — سومرية أو بابلية فيما قيل — استناداً إلى النصوص التي تمّ الكشف عنها ، ولكن ليس حتماً وبالضرورة ، فقد كانت شائعة ذائعة فيما بين الشعوب القديمة ، فمن يدرينا أن لم تستق عناصرها عند العبريين من روايات أخرى ، ضاعت أصولها فيما ضاع ، أو ربما هي بعد في طي الغيب ، لم تتهيأ ظروف الكشف عنها ، كما كان الحال بالنسبة للرواية السومرية قبل عام ١٩١٤م(٤) .

ولعل الذي يدفعنا إلى هذا التساؤل ، إنما هو كلمة « أراراط » استوقفتنا فنحار

---

(١) تكوين ٧ : ١٩ .

(٢) سورة هود آية : ٤٤ .

(٣) حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٥ ، وكذلك S.H. Hooke, Middle Eastern Mythology, London, 1963, P.16.

كيف أمكنها التسلل إلى نصوص التوراة . . . لا تفسير إلا أن الأسطورة هنا مستقاة من أصول تداولها أقوام استوطنوا وقتاً ما هضاب أرمينيا ، تلك المنطقة الجبلية ، حرية بأن تكون قد أورثتهم عبادة إله ما ، بركاني الصفات والسمات ، يطلقون عليه من بعد — إذ يستقر بهم المقام في أرض كنعان — تحريفاً أو تبديلاً ، أسماء سامية أو قريبة في مخارجها على الأقل من اللغات السامية ، مثل « أداد » و « شداي » . وإل وه ربما كان هو الاسم العتيق للإله « يهوه » إله القينيين منذ الأزل . . . بل إن بعض الثقات يرجعون أسطورة الطوفان — كما في التوراة — إلى أصول «حورية» من الذين استقروا بأرض فلسطين في عصر إبراهيم (تك ١٤ : ٦) تعثر بنقوشهم متناثرة فيما بين تل الحريري (ماري القديمة) ورأس شمرا (أوجاريت) ، ولكن أقدمها ، تلك التي في « بوغازكوي » عاصمة الحيثيين القديمة بقلب الأناضول ، اشتملت على مقاطع من ملحمة جلجاميش ، ولغتهم — أو لهجة متفرعة عنها — هي التي كانت سـائدة في مملكة « أورارتو Urartu » — أرمينيا القديمة — إليها تنسب جبال « أرارات » أو « أراراط » كما في التوراة(١) ، ومع ذلك فإننا نميل إلى أن قصة الطوفان ، كما جاءت في التوراة ، إنما تعتمد في الدرجة الأولى على أساطير طوفانية — سومرية أو بابلية — من العراق القديم ، الأمر الذي سوف نوضحه فيما بعد .

ولكن : لعل من الأفضل قبل ذلك ، أن نشير إلى الدور الذي لعبه الخيال اليهودي في العصور المتأخرة بحكاية الطوفان — كما روتها التـوراة — فأضافوا إليها تفاصيل جديدة تميل إلى المغالاة أحياناً ، وإلى الزخارف الرخيصة أحياناً أخرى ، وإلى تشويه القصة في غالب الأحايين ، وكأن هؤلاء اليهود لم يكفهم ما فعله أسلاف لهم في عصور خلت من مسخ القصة الحقيقية — كما أنزلها الله على كليمه موسى عليه السلام — فخلطوا بينها وبين ما وجدوه في العراق القديم — على أيام السبي البابلي — من قصص عن طوفان يروي السومريون ، والبابليون من بعدهم أنه أغرق أرضهم .

---

(١) حسين ذو الفقار : المرجع السابق ص ١٥ ، ١٦ وكذلك :

O.R.Gurney, the Hittites (Penguin Books), 1969, P. 123–124:

وفي الترجمة العربية للدكتور محمد عبد القادر ص ١٧١ ، وكذلك . André Caquot, Mythologies des Semites Occidentaux in Mythologies de la Mediterranée au Gange, Paris, 1963, P. 92.

ومن بين الزخارف الرخيصة أو الإضافات الغريبة التي أضيفت إلى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون في دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا من زراعة واحدة يجنون محصولاً يكفي حاجاتهم طيلة أربعين عاماً ، كما كانوا بفنونهم السحرية يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم ، ولم تكن الأجنة تمكث في بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلاً من تسعة شهور ، وبمجرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والسير على الأقدام ، بل إنهم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم . وإن هذه الحياة السهلة المرفهة كانت هي السبب فيما وصل إليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعاً لهم إلى ارتكاب الآثام ، وبخاصة الفسق والسلب ، الأمر الذي أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضي على العاصين بأن يغرقهم في الطوفان .

ومع ذلك فقد أمهلهم الرب وأمر نوحاً بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم في الطوفان جزاء جورهم ، وقد أخـذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاماً ، بل إن الرب منحهم مهلة أسبوع آخر في نهاية هذه المدة ، وفي هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صباح من المغرب ، وتغرب في المساء في المشرق ، ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع إلى التوبة ، بل على العكس أخذوا يسخرون من نوح الورع ، ويستهزءون به عندما أبصروه يبني الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل» إلى آدم، وكان يحتوي بين ثناياه على العلم الديني والدنيوي معاً ، وقد كان هذا الكتاب من الياقوت الأزرق ، وقد وضعه نوح في صندوق ذهبي أحكم إغلاقه وأخذه معه في الفلك ، فقام مقام الساعة في التمييز بين الليل والنهار في أثناء فترة الفيضان التي لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر ، أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة التي هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التي تدفقت من الأرض ، وقد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفاً ، وعندما شاء الرب بعد ذلك أن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب ، وهذا هو السبب في أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالباً بأولاده ولكنه لن يحصل عليهم إلى الأبد .

ومنها كذلك أن هناك حيواناً ضخماً هو « الريم » لم يجد له مكاناً في الفلك لضخامته ،

ولهذا فقد قيدّه نوح بحبل طويل ربطه في الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها ، وبالمثل كان المارد « عوج بن عنق » ملك باشان من الضخامة بحيث لم يجد مكاناً في الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ ، أما عن الناس الذين كانوا مع نوح في الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتّهم .

على أن مشكلة المشاكل التي كان على نوح أن يواجهها هي مشكلة توزيع المؤن ، إذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهاراً ، وحيوان الليل ليلاً ، كما كان عليه أن يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب في سقف السفينة ، ورغم أنه كان يقضي ليله ونهاره صاعداً هابطاً في السفينة لإطعام ما فيها ومن فيها ، فإنه لم يسلم من الأذى ، ذلك أن الأسد الذي كان هادئاً نسبيا لإصابته بالحمى طوال الوقت كان فظا للغاية ، وذات مرة لم يقدم له نوح الغذاء الكافي ، فما كان منه إلا أن ضرب نوحاً بكفه ضربة أصابته بالعرج سائر أيام حياته(١) .

وهناك رواية لكاتب مسيحي — ربما عاش في فترة الفتح الإسلامي — عثر عليها من بين مخطوطات دير سانت كاترين في سيناء ، تقدم لنا تفصيلات مثيرة عن نظام الفلك الداخلي ، فالقطعان والوحوش قد سكنت جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الأوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة في السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء ، فأقام نوح وأولاده في الجانب الشرقي من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أطفالهن في الطرف الغربي منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وأولئك جثة آدم التي كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه ، كما تخبرنا الرواية بعد ذلك بأبعاد السفينة على وجه التحديد بالذراع وعن اليوم والشهر الذي ركب فيه الركاب الفلك(٢) .

٢ — قصة الطوفان : بين التوراة وقصص السومريين والبابليين :

يكاد يتفق العلماء — من أمثال ليوناردوولي (٣) ، وأدولف لودز(٤) ، وستانلي

---

(١) راجع عن هذه الصور الغريبة وأمثالها : جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٦–١١٩ .

(٢) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٩ .

(٣) Sir Leonard Woolley, Excavations At Ur, P. 34.

(٤) Adolphe Lods, Israel, from its Beginnings to the Middle of the Eight Century, P. 486.

كوك(١) ، وجورج بارتون(٢) ، وجاك فينجان(٣) ، ويونجر(٤) ، وول ديورانت(٥)، وجيمس فريزر(٦) — على أن قصة الطوفان ، كما جاءت في التوراة ، ليست قصة عبرية أصيلة ، وإنما أخذها الإسرائيليون من ميزوبوتاميا ، ولكن القصة لم تنقل بطريقة عمياء ، وإنما تصرفوا فيها بطريقة تتفق وأهداف كتابهم المقدس ، ذلك لأن القصة التوراتية هي نفس القصة التي وجدت على ألواح مكتوبة منذ فترة ترجع إلى ما قبل عصر إبراهيم — عليه السلام (٧) — بل إن الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثني عشر قرناً، فضلاً عن أن الحكاية العبرية في جوهرها — كما لاحظ تسيمرن — تقضي بأن يكون البلد المشار إليه قابلاً لحدوث الفيضان مثل بابل ، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في أن الحكاية نشأت أصلاً في بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى فلسطين ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن القصتين تتفقان لا في الأحداث الأساسية فحسب ، بل إن وجوه الإتفاق بين القصتين تتعدد حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع ذلك إلى محض الصدفة (٨) ، أو حتى إلى توارد الأفكار ، يتبين لنا إلى أي حد اعتمدت قصة الطوفان في التوراة على قصص سومر وبابل الخاص بالطوفان .

ولعل سؤال البداهة الآن : إذا كان ذلك كذلك ، وإذا كانت قصة الطوفان في التوراة تعتمد على قصص الطوفان في بلاد النهرين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟

يقول (هـ . ج . ويلز) : إنه من الراجح أن العهد القديم (التوراة) قد جمع لأول مرة

---

(١) S.A. Cook, in the Cambridge Ancient History, III, Cambridge, 1965, P. 481.
(٢) George A. Barton, Archaeology and the Bible, 1937, P. 320.
(٣) Jack Finegan, Light from the Ancient Past, the Archaeological Background of Judaism and Christianity, Princeton, 1969, P. 30.
(٤) Merrill. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, P. 372.
(٥) ول ديورانت : قصة الحضارة — الجزء الثاني — ترجمة محمد بدران — القاهرة ١٩٦١ ص ٣٦٨ .
(٦) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٣—١١٩ .
(٧) Sir Leonard Woolley, op. cit., P. 34.
(٨) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٣/ ، ١١٥ .

في بابل ، ثم ظهر في التاريخ في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد ، ذلك لأن اليهود قد جمعوا هناك أثناء السبي البابلي تاريخهم بعضه إلى بعض ، وطوروا تقاليدهم ونموها ، ومن ثم فقد أصبح الذين آبوا إلى أورشليم بأمر كيروش الثاني (٥٥٨–٥٢٩ ق.م) شعباً يختلف اختلافاً عظيماً في الروح والمعارف عن ذلك الشعب الذي خرج منها مأسوراً . وذلك لأنهم تعلموا الحضارة هناك من البابليين(١) .

ويقدم العلماء الكثير من الأدلة على تأثير الأدب البابلي في التوراة ، وإن كانوا يختلفون على وقت هذا التأثير وطريقته ، فهناك من يرى أن ذلك إنما كان على أيام الأسر البابلي(٢) (٥٨٦–٥٣٩ ق.م) ، بينما يذهب رأي آخر إلى أن ذلك ربما كان في القرن الثامن والسابع ق.م ، أثناء فترة اتصال الإسرائيليين الفعلي بالأشوريين ، ذلك لأن قصة الطوفان هذه – على ما يبدو – لم تكن موجودة في الروايتين المبكرتين في المصدر « اليهوي » ، ذلك لأن واحدة منهما تعتبر أبناء « لامك » الثلاثة من زوجتيه « عادة » و « صلة » أساساً لتقسيمات الجنس البشري ، وأما الأخرى ، فإن اختراع النبيذ – فيما ترى هذه الرواية – لهو أبرز حادث في حياة نوح(٣) .

وهناك رأي ثالث يذهب إلى أن الروايتين – السومرية والبابلية – إنما تسربت إلى بني إسرائيل منذ زمن طويل عن طريق مصادر سومرية وسامية كانت منتشرة في جميع بلاد الشرق الأدنى القديم(٤) ، لدرجة أن أصبحت معها في متناول الأقوام جميعاً ينتحلها هذا أو ذاك ، فيأخذ عنها الرواة كل على هواه ، تمجيداً لذكرى أسـلاف ، وقد تكون – في أغلب الأحايين – لا تمت إلى بني إسرائيل أو إلى بني يهوذا أصلا ، إلا أنها صارت بمرور الزمن شائعة مشتركة بين شعوب المنطقة جميعاً(٥) ، فقد مضى الزمن الذي كانت تعالج فيه الأصول الإسرائيلية بعزلة عما كان يتحوطها من مؤثرات ، وإنما تداخلت مع غيرها ، نهباً لتفاعلات اجتاحت المنطقة كلها ، فرسمت مسار التاريخ

(١) H.G. Wells, A Short History of the World (Pelican Book), 1965, P. 73, 78.

(٢) S.A. Cook, op. cit., P. 481.

(٣) A. Lods, op. cit., P. 486. وكذا تكوين ٤ : ٢٠–٢٢ ، ٥ : ٢٩ .

(٤) ول ديورانت : المرجع السابق ص ٣٦٨ .

(٥) A. Lods, op – cit, P. 160 – 161

في الشرق القديم جميعاً(١) ، بخاصة في الفترة التي كتب اليهود فيها توراتهم(٢) .

وهكذا يمكننا القول أن كتاب التوراة قد تعرفوا على التراث البابلي — عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة — وذلك إبان قيام دولتهم في كنعان ، وربما أثناء السبي البابلي أو بعده ، ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التي مهد لها الغزو البابلي في فلسطين ، ربما أدت على نحو ما إلى انتشار الأدب البابلي في فلسطين ، كما أدى السبي إلى انتشار الأدب اليهودي في بابل ، وبناء على وجهة النظر هذه ، فإن بعض التفصيلات التي تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية ، وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران اللذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل ، على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا في الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم في شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية في سفر التكوين التي يمكن أن ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد والتي لا يمكن أن تتأخر بحال من الأحوال عن القرن الثامن ق.م(٣) .

وأيا ما كان الأمر ، فهناك إجماع بين العلماء على أن هناك تأثيرات بابلية في التوراة — فضلا عن التأثيرات المصرية الواضحة(٤) — كما أن الأساطير البابلية مثل قصة الطوفان قد وُجدت في بابل قبل أن توجد في التوراة ، ولكنها لم تنقل بطريقة عمياء(٥) .

وربما كانت المقارنة السطحية بين الحكايتين اليهودية والبابلية كافية لأن تؤكد لنا أن كلتا الحكايتين لم تنشأ في الأصـــل مستقلة ، بل من المؤكد أن إحداهما قد اعتمدت

---

(١) George Mendenhall, Biblical History in Transition in the Bible and the Ancient. Near East (vid n. 23) P. 35.

(٢) راجع مراحل كتابة التوراة في كتابنا إسرائيل ص ٢٤-٤٥ .

(٣) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) راجع أمثلة لهذه التأثيرات في كتابنا إسرائيل ص ١٥١-١٥٩ .

(٥) S.A. Cook, op. cit., P. 481. وكذلك J. Gray,op. cit., P. 104

على الأخرى ، ذلك لأنه من الجلي أن بين الرواية العبرية والبابلية عناصر مشتركة كثيرة ، وربما رجعا كلاهما إلى مصدر واحد(١) .

وإذا ما أردنا أن نقدم أدلة على ذلك ، وجدنا عدة مقابلات بين قصة الطوفان في التوراة ، وبينها في الأدب الميزوبوتامي القديم ، فمن ذلك (أولاً) أن الطوفان هنا وهناك بسبب إلهي ، وذلك حين قررت القوى الآلهية أن تقضي على الجنس البشري عن طريق طوفان عظيم ، ومنها (ثانياً) أن البطل هنا وهناك ينال تحذيراً مما هو مؤكد أن يكون ، فيبني فلكاً للخلاص ، وهذا الفلك يطليه بالقار حتى لا ينفذ إليه الماء ، ويحضر معه حيوانات وطيور ويدخلها إلى الفلك ، فينقذ نفسه وينقذ معه صنوف الكائنات الحية جميعاً ، ومنها (ثالثاً) أن الطوفان هنا وهناك كان لأن القوم قد فسدوا ، وأن الشر قد انتشر بينهم ، وأن المبادئ الخلقية قد لطخت تماماً ، ومن ثم فالطوفان للقضاء على بذرة البشر(٢) .

ومنها (رابعاً) أن بطل القصة هنا وهناك كان رجلاً كريم الخلق ، نقي السريرة فـ « زيوسودرا » في القصة السومرية يوصف بالتقوى ، وبأنه ملك متواضع يخشى الإله ، والأمر كذلك بالنسبة إلى نوح التوراة ، فقد كان « رجلاً بارا كاملاً في أجياله ، وسار مع الله »(٣) ، ومنها (خامساً) أن الأمطار الغزيرة قد هطلت هنا وهناك ، ومن ثم فقد تجمع الطوفان بمقدار كبير ، ودام أياماً يختلف عددها قلة أو كثرة ، وكان في كلتا الحالتين بأسباب طبيعية ، ريح عاتية وأمطار مستمرة ، وعواصف مرعبة في القصة البابلية ، و « انفجار كل ينابيع الغمر العظيم ، وانفتاح طاقات السماء » في القصة التوراتية ، ومنها (سادساً) أن البطل هنا وهناك قد أنقذ هو وعائلته ، وكذا الحيوانات التي صاحبته في السفين ، وإن كان عدد الناجين في القصة البابلية ، أكثر منه في القصة التوراتية ، ومنها (سابعاً) أن السفينة الضخمة — والمكونة من عدة طوابق — تظهر هنا

---

(١) قاموس الكتاب المقدس — جـ٢ — ص ٥٨٤ .
(٢) M. F. Unger, op. cit., P. 372.
(٣) راجع كتابنا اسرائيل ص ١٤٥ .

وهناك ، وإن كانت السفينة البابلية قد احتاجت في تحريكها إلى خمسة أمثال ما احتاجته سفينة التوراة[1] .

ومنها (ثامناً) أن الفلك يستقر على قمة جبل – نيزير (نيصير) في القصة البابلية ، و « أراراط » في التوراة – ومنها (تاسعاً) أن البطل هنا وهناك يرسل طيوراً لاستكشاف حالة الجو ، ولمعرفة مدى انحسار مياه الطوفان عن الأرض ، وفي كلتيهما عادت الحمامة إلى السفين ، لأنها لم تجد مكاناً تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد في كلتا الحالتين ، ومنها (عاشراً) أن البطل هنا وهناك يقدم تقدمة بعد خروجه من السفين شكراً على إنقاذه ، وفي كلتا الحالتين اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة ، فسكن غضبها ، وتنسمت رائحة الرضا[2] .

ومنها (حادي عشر) أن البطل هنا وهناك ينال البركات بعد الكارثة ، فضلاً عن الأمان في المستقبل ، ففي القصة السومرية ، ينفث الإله في « زيوسودرا » روح الخلود ، ويستقر في دلمون ؛ حيث تشرق الشمس ، أي حيث القوة القاهرة للموت[3] ، وفي القصة البابلية يصبح « أوتنابيشتم » وزوجه مخلدين ، ويعيشان بعيداً عند مصاب الأنهار ، وفي التوراة يبارك الله نوحاً وبنيه ويعقد معهم ميثاقاً ويمنحهم خشية ورهبة على كل الحيوانات والطيور [4] .

ومنها (ثاني عشر) أن الإله هنا وهناك يندم على إهلاك البشر بالطوفان ، ففي القصة البابلية يندم أنليل لأنه « أحدث الطوفان دون روية ، وقاد الناس إلى التهلكة » ، بل إن الآلهة نفسها قد لامتــه على ذلك ، وتمنت لو أرسل أسداً أو ذئباً أو مجاعة أو طاعوناً ، فأهلك بني البشر الآثمين ، « فعلى الآثم وزر إثمه ، وعلى المعتدي وزر

---

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ وكذا M.F. Unger, op. cit., P. 372

(٢) Ibid., P. 372. ، وكذا جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٣) E.O. James, Mythes et Rites dans le Proche-Orient Ancien, Paris, 1960, P. 247.

(٤) تكوين ٩ : ١–٢ ، ١١ .

اعتدائه »(١) ، وفي التوراة يندم الرب كذلك على إحداث الطوفان ويعزم على ألا يلعن الأرض من أجل الإنسان أبداً ، وألا يميت بعد اليوم كل حي ، بل ويقطع الرب على نفسه ميثاقاً « لا يكون طوفان ليخرب الأرض » ، ويضع للميثاق علامة ، هي « القوس في السماء ، فيذكر وعده ولا يأتي بطوفان يغرق الأرض أبداً »(٢) .

ومنها (ثالث عشر) التركيز على الشخص العاشر فيما قبل الطوفان ، ففي القصة البابلية — وفقاً لرواية بيروسوس — أن البطل الذي أنقذ من الطوفان ، إنما كان ملك بابل العاشر ، وفي قصة التوراة إنما هو « نوح » الرجل العاشر في سلسلة العشرة الرؤساء الآباء من آدم إلى نوح(٣)— عليهما السلام — .

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية في مجموعهما ، فإذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات ، فإننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب إلى الحكاية اليهوية منها إلى الكهنوتية ، فكل من الرواية البابلية واليهوية تعطي أهمية للعدد سبعة ، فقد حذر نوح في الرواية اليهوية من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالي ، كما أخذ معه في السفينة سبعاً من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة ثم إن المدة الزمنية بين إطلاقه طائراً وآخر كانت سبعة أيام ، وبالمثل دام الطوفان في الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام ، كما أن البطل فيها وضع مجموعات أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية . على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية في سفر التكوين تقترب من الحكاية البابلية في بعض التفصيلات المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية منها ، ففي كل من الروايتين ، أصدرت الآلهة تعليمات محددة إلى البطل لبناء السفينة ، ومن ثم فقد بنيت السفينة في كل منهما من عدة طوابق وقسم كل طابق إلى عدة حجرات ، كما أنها طليت في كل منهما بالقار أو القطران ورست

---

(١) انظر في هذا المجال ما جاء في القرآن الكريم في سورة الأنعام « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وما جاء في سورة الزلزلة « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ، ثم انظر ما جاء في التوراة « أنا الرب إله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي » (خروج ٢٠ : ٥—٦) .

(٢) تكوين ٩ : ٨—١٧ .

(٣) رشيد الناضوري : المرجع السابق ص ٢٤٩ وكذا G.A. Barton, op. cit., P. 320 وكذا J.Finegan, op. cit., P. 3.

كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الإله عند خروجهما(١) .

ولعل أفضل ما نختم به أوجه الشبه بين الروايتين البابلية والتوراتية لقصة الطوفان ، أن نقدم نصوصاً من الروايتين جنباً إلى جنب(٢)، ثم نترك للقارئ الحكم في أمر هذه الشبه .

رقم	ملحمة جلجاميش	التـــوراة
(١)	يا رجل شورباك، يا ابن «وبار-توتو» اقتلــع بيتك ، وابن الفلك ، دع أملاكك وانقذ حياتك، دع الروح حية ، واحمل على ظهر الفلك بذرة كل شيء حي ، الفلك التي ستبنيها تكون أبعادها حسب هذا المقياس .	فقال الله لنوح . . . اصنع لنفسك فلكاً من خشب « جفر » ، ومن كل حي من كل ذي جسد ، اثنين من كل تدخل الفلك لاستبقائها معك حية ، تكون ذكراً وأنثى (تكوين ٦ : ١٣ – ٢٠)
(٢)	وفي اليوم الخامس أقيم هيكلهـــا (السفينة) وكانت مساحة أرضيتها فداناً كاملاً ، وارتفاع كل حائط من جدرانها ١٢٠ (ذراعاً ؟)	ثلاثمائة ذراع يكون طـــول الفلك، وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه (تك ٦ : ١٥)
(٣)	وجعلت فيها ست أسطح ، قسمتها إلى سبع طوابق	مساكن سفلية ومتوسطـة تجعله (تك ٦ : ١٦)
(٤)	وجعلت أرضيتها تسعة أجزاء	تجعل الفلك مساكن (تك ٦ : ١٤)
(٥)	ست سار من القار صببته في الفرن	وتطليه من داخل ومن خارج بالقار (تك ٦ : ١٤)
(٦)	وحملتها بكـل ما أملك من الكائنات الحية ، وكل عائلتي وذوي قرباي أركبتهم الفلك، وكذا حيوان الحقل ووحوش الحقل وكل الصناع أركبتهم معي	فدخل نوح وامرأته وبنوه ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان ، ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة، ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض ، دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ، ذكراً وأنثى (تك ٧ : ٧ – ٩)

(١) جيمس فريزر : المرجع السابق ص ١١٤ ، ١١٥ .
(٢) انظر كذلك W. Keller, op. cit., P. 53–57.

رقم	ملحمة جلجاميش	التــوراة
(٧)	ودخلت إلى الفلك وأوصدت بابه	وأغلق الرب عليه (تك ٧ : ١٦)
(٨)	ومع انبثاق الفجر ، ظهرت من الأفق غمامة سوداء وأرعــد «أداد» من داخلها . . . ووصل الذعر من أداد عنان السماء ، وقد حول النور إلى ظلام	وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض ... في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء (تك ٧ : ١٠–١١) .
(٩)	واستمرت ريح الفيضان تهب ستة أيام وست ليال وعاصفة الجنوب تكتسح الأرض	وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض ، وتكاثرت المياه ...وتعاظمت المياه وتكاثرت جدا على الأرض ... فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السمــاء (تك ٧ : ١٧–١٩) .
(١٠)	وفي اليوم السابع سكنت عاصفة الجنوب	وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت السماء (تك ٨ : ١)
(١١)	عن الحرب التي شنتها كجيش ، وهدأ البحر ، وسكنت العاصفــة وتوقف الطوفان	وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء ، فامتنع المطر من السماء ، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً ، وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه (تك ٨ : ٢–٣)
(١٢)	وتحول الناس إلى طين ، وتشققت الأرض كأنها جرة	فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض ... وجميع الناس (تك ٧ : ٢١) .
(١٣)	وفتحت طاقة في الفلك وسقط الضوء على وجهي	وفتح نوح طاقة الفلك التي كان قد عملها (تك ٨ : ٦)
(١٤)	واستوت الفلك على جبل نيصير ، وأمسك جبل نيصير بالفلك ، ولم يدعها تتحرك .	واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبل أراراط (تك ٨ : ٤) .

ويقدم لنا « الدكتور جون إلدر » خلافات بين القصتين ، ففي التوراة يحدث الطوفان كعقاب من الله لمحو الأشرار ، وفي القصة البابلية يحدث الطوفان لهوى في نفس

الآلهة القساة ، وفي التوراة يخلص نوح من معه لأنه إنسان بار ، وفي القصة البابلية ينال البطل النجاة لأن له نصيراً من بين الآلهة الكثيرة ، فقصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية ، ولكن البابليين يقدمون لنا أحط دركات الديانات التي تنادي بتعدد الآلهة ، وهكذا نرى الفارق العظيم بين فكرة الوحي السامية في قصة التوراة ، وبين الفكرة الخرافية المليئة بالخيالات والأوهام والمتناقضات في القصة البابلية ، مع أنها خلاصة أرقى ما وصل إليه الفكر البشري في دولة ساميّة متحضرة(١).

والحق أن ما يقوله الدكتور « جون إلدر » ليس هو الحق كل الحق ، ذلك لأن الطوفان كان في القصتين عقاباً من الإله لمحو الأشرار ، فكما أخبر نوح بأن الطوفان كان لأن الرب أراد أن يمحو الإنسان الذي خلقه لأن شره كثر في الأرض(٢) ، فكذلك أخبر « زيوسودرا » أن الآلهة أرادت بالطوفان أن « تقضي على بذرة الشر » ، وكما أن نوحاً قد أنجي لأنه إنسان بار ، فالأمر كذلك بالنسبة إلى « زيوسودرا » ، لأنه كان ملكاً صالحاً تقيا ، يخشى الإله ، كما كان يتلهف شوقاً إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية — وهي صفات لو كان الدكتور إلدر غير متعصب في حكمه ، لعرف أن التوراة لم تسبغها على نوح ، الأمر الذي لم يظهر بما يتفق ومكانة النبي الكريم في غير القرآن الكريم — بخاصة إذا علمنا أن القصة السومرية — وليست قصة التوراة — هي التي تقدم لنا بطل الطوفان (زيوسودرا) وهو يجلس إلى جانب حائط ، يستمع إلى صوت وحي إلهه ، وهو يبلغه القرار بإهلاك البشر(٣).

وأما أن قصة التوراة تقدم لنا ديانة توحيدية ، وأن الأخرى ليست كذلك ، فذلك أمر نتفق فيه معه بحذر ، كما أن أحداً لم يقل — بل حتى لم يفكر — في أن ديانة السومريين — — والبابليين من بعدهم — كانت ديانة توحيدية ، ومع ذلك ألا يرى « الدكتور جون إلدر » أن قصة التوراة لا تقدم لنا ديانة توحيدية — كما نعرف التوحيد الآن — . صحيح أن ديانة السومريين والبابليين ديانة وثنية ، بل ومغرقة في الوثنية كذلك ، ولكن صحيح

(١) جون إلدر : الأحجار تتكلم : ص ٣٤ ، ٣٥ وانظر كذلك M.F. Unger, op. cit., P. 372–373.
(٢) تكوين ٦ : ٥–١٢ .
(٣) صمويل نوح كريمر : من ألواح سومر — ترجمة طه باقر ص ٢٥٤–٢٥٦ ، القاهرة ١٩٥٧ .

كذلك – رغم أن دعوة موسى عليه السلام كانت دعوة توحيد ، وأن كليم الله دعا إلى عبادة الله الواحد الأحد – أن توراة اليهود المتداولة اليوم ، لا تقدم لنا بين صفحاتها ما يتفق ودعوة الوحدانية ، وتنزيه الله – جل وعلا – عن صفات البشر(١) .

وإلا فهل من التوحيد – الذي يريد لنا الدكتور إلدر أن نفهمه من توراة اليهود – أن يوصف الله – جل وعلا – بالحزن والأسف لخلقه الإنسان ، كما جاء في سفر التكوين(٢) (٦ : ٦–٧) ، وهل من التوحيد أن يكون لله – جل جلاله – أولاد منذ بدء الخليقة ، وأنهم قد فتنوا بجمال بنات الناس ، « فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا » ، ثم تحدر من هؤلاء وأولئك نسل رزقه الله بسطة في الجسم ، وهم الجبابرة الذين سكنوا في الأرض قبل الطوفان(٣) ، وهل من التوحيد أن تكون قوس قزح(٤) التي تظهر في الأفق غبَّ المطر ، أنشأها الله لتـكون تذكرة له بألا يعود إلى إغراق الأرض أبداً(٥)، وهل من التوحيد أن يوصف الله – سبحانه وتعالى – في التوراة(٦) ، بأن نفسه ترتاح من رائحة الدخان المتصاعد من المحرقات ، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم له في الصورة التي يرتضيها(٧) .

---

(١) راجع في ذلك صفات الله – سبحانه وتعالى – كما تقدمها التوراة (كتابنا إسرائيل ص ٥٧–٦٩) .

(٢) لبيان أمثلة كثيرة ترددت في التوراة في هذا الصدد انظر كتابنا « اسرائيل » ص ٦٤–٦٥ .

(٣) تكوين ٦ : ١–٥ .

(٤) و « قزح » هذا من أسماء الشيطان ، ولهذا فقد نهى الحبيب المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – عن هذه التسمية ، مؤثراً تسميتها بقوس الله (راجع ص ٤١ من كتاب محنة التوراة على أيدي اليهود لمؤلفه عصام حفني ناصف) .

(٥) تكوين ٩ : ١٣–١٥ .

(٦) تكوين ٨ : ٢٠–٢١ ، لاويين ١ : ١–٩ ، ١٠ : ١–٢ ، وكذلك ابراهيم خليل : إسرائيل والتلمود ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٧) ويرد القرآن الكريم على مزاعمهم هذه بقوله تعالى: « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين» (الحج : آية ٣٧) وإذ يقول عز وجل في هدي الحج من الأنعام : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (الحج : آية ٢٨) .



الفصل الثالث

قصة الطوفان في القرآن الكريم

يزخر القرآن الكريم بالكثير من القصص الذي ساقه الله لتأكيد قيم دينية شتى فهو يحارب الوثنية ويدعو إلى الوحدانية ، ويؤكد المعاني الخلقية السامية ، ويضرب الأمثال ، ثم هو يُطمئن صاحب الرسالة – صلوات الله وسلامه عليه – ويواسيه في الشدائد ، مذكراً إياه بما لاقه إخوة كرام له من عنت الضالين وبغي الكافرين ، فما وهنوا وما استكانوا ، وما ضعفوا وما تخاذلوا ، ولكنهم صبروا وصابروا ، ومن هنا يخاطب الله رسوله الكريم في كتابه الكريم ، « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين(١) » .

والقرآن الكريم في كل ما جاء به من قصص – وإن لم يكن كتاب تاريخ يقدم لنا تفصيلات عن الأحداث التي يتعرض لها ، إلا في عرض القصة حيث يقتضيه السياق – تعليم للمصلحين ، وتربية للهداة ، ولكنه في كل ذلك « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٢) ثم « إن هذا لهو القصص الحق »(٣) و « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٤) .

وإن في القرآن الكريم لقصصاً شتّى من غير قصص الدعوة ، أو قصص الجهاد في تبليغ الرسالة ، ولكنها تراد كذلك لعبرتها ، ولا تراد لأخبارها التاريخية ، ومنها قصة

---

(١) سورة هود : آية ١٢٠ .
(٢) سورة فصلت : آية ٤٢ .
(٣) سورة آل عمران : آية ٦٢ .
(٤) سورة يوسف : آية ١١١ .

يوسف ، وكذا قصة إسماعيل عليها السلام ، فقصة يوسف قصة إنسان قد تمرس منذ طفولته بآفات الطبائع البشرية ، من حسد الإخوة إلى غواية المرأة إلى ظلم السجن ، إلي تكاليف الولاية وتدبير المصالح في إبان الشدة والمجاعة ، وقصة إسماعيل تتخللها هذه التجارب الإنسانية من عهد الطفولة كذلك ، فيصاب بالغربة المنقطعة عن العشيرة وعن الزاد والماء ، وإن كان الأخطر من ذلك كله أن تكتب عليه التجارب الإنسانية ضريبة الفداء ، وهي في مفترق الطرق بين الهمجية التي كانت – في معظم مجتمعات الشرق القديم – لا تتورع عن الذبائح البشرية ، وبين الإنسانية المهذبة التي لا تأبى الفداء بالحياة ، ولكنها تتورع عن ذبح الإنسان ، ثم يكتب لهذا الغلام الوحيد بواد غير ذي زرع عند البيت المحرم ، أن تنمي إليه أمة ذات شعوب وقبائل تتحول على يديها تواريخ العالم على مدى الأيام(١) .

على أن أبرز قصص الأنبياء في القرآن الكريم قصتان مسهبتان في أجزائه لأنهما ترويان نبأ الرسالة بين أعرق أمم الحضارة الإنسانية ، وهما أمة وادي النهرين وأمة وادي النيل ، ومن أجل ذلك كانت قصة إبراهيم وموسى عليهما السلام أوفى القصص بين جميع قصص الأنبياء ، وكانت الثورة فيهما على ضلال العقل في العبادة جامعة لأكثر العبادات المستنكرة في الزمن القديم(٢) .

وفي قصة نوح – عليه السلام – نرى كيف ينقاد الجهلاء للأمر والسطوة ، ولا ينقادون للحجة والدليل ، ويريدون من صاحب الدعوة أن يكون ملكاً ، أو تكون عنده خزائن الأرض ، ويقولون له « قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين »(٣) ، كما نرى كذلك أن المسيطرين على أقدار القوم يكرهون التغيير ، ويتشبثون بالقديم ، ويأخذون على النبي الكريم أن يتبعه أناس من غير ذوي السيادة والجاه « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »(٤) .

---

(١) عباس العقاد : الإسلام دعوة عالمية – القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١٨–٢١٩ ، وانظر كذلك قصة التضحية البشرية في كتابنا إسرائيل ص ٢٠٧–٢٠٩ ، قصة يوسف في مصر ص ٢٢٥–٢٤٥ .

(٢) عباس العقاد : المرجع السابق ص ٢١٨ .

(٣) سورة هود : آية ٣٢ .

(٤) سورة هود : آية ٢٧ .

وأما الطوفان – موضوع هذا الفصل – فلقد تحدث القرآن الكريم عنه ، حين تعرض لقصة نوح عليه السلام ، في سور كثيرة منها سورة الأعراف (٥٩–٦٤) ويونس (٧١–٧٣) وهود (٢٥–٤٩) والأنبياء (٧٦–٧٧) والمؤمنون (٢٣–٣٠) والشعراء (١٠٥–١٢٢) والعنكبوت (١٤–١٥) والصافات (٧٥–٨٢) والقمر (٩–١٧) ثم سورة كاملة ، هي سورة نوح ، فضلاً عن ذكره في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، كما في سورة النساء والأنعام والتوبة وإبراهيم والإسراء والأحزاب و «ص» وغافر والشورى و « ق » والذاريات والنجم والحديد والتحريم .

وفي كل هذه السور الكريمة ، كان نوح – شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار – يدعو قومه إلى عبادة الله الواحد القهار ، « وكان قومه قد صوروا بعض الصالحين منهم ، ثم وضعوا لهم الصور والتماثيل لإحياء ذكرهم والاقتداء بهم ، ثم عبدوا صورهم وتماثيلهم »(١) ، واستمر نوح في دعوته ، يحثهم ليل نهار على عبادة الله تعالى وحده ، إلا أن القوم « جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً »(٢) ، إذ كبر عليهم أن يكون داعي الهدى ، وحامل لواء التوحيد ، واحداً منهم ، لا يمتاز عليهم بإمارة ، ولا يفضلهم بغنى أو ثروة ، كما أنفوا أن ينضموا إلى جماعة المهتدين من الضعفاء .

ويبذل النبي الكريم الجهد كل الجهد ، بغية أن يؤمن القوم بربهم ، وأن يكفوا عن عبادة الأصنام ، ويطول الزمن ، ونوح يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظة سرا وعلانية ، ومع ذلك كله ، فالذين أجابوا الدعوة ، إنما كانوا قلة نادرة ، فيشتكي نوح إلى ربه عجزه وقلة حيلته ، وما يلاقيه على أيدي السفهاء من قومه من عنت وهوان ، فيناديه ربه « لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون» (٣) ، ويدعو نوح ربه « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» (٤) .

(١) محمد رشيد رضا : تفسير المنار ، الجزء السابع ص ٤٥٤ وما بعدها ، الجزء الثامن ص ٤٣٦ ، القاهرة القاهرة ١٩٧٤ (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، وكذلك : صحيح البخاري .
(٢) سورة نوح : آية ٧ .
(٣) سورة هود : آية ٣٦ .
(٤) سورة نوح : آية ٢٧ ، ٢٨ .

ويجيب العليّ القدير دعوة النبي الكريم ، فيأمره أن يصنع الفلك « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن وما آمن معه إلا قليل »[1] ، وهكذا أنقذ الله نوحاً ومن آمن معه ، وأهلك الكافرين من قومه « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء ، وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين »[2] ثم أمر الله نوحاً أن « اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم »(٣) .

هذه هي الخطوط الرئيسية بإيجاز شديد لقصة نوح عليه السلام – كما أخبر عنها ربي جلّ جلاله في القرآن الكريم – وهي هنا إذا ما قورنت بغيرها من القصص الذي تعرض لقصة الطوفان ، سواء أكان ذلك من القصص الإنساني أو السماوي ، لبان لنا بوضوح الفرق الشاسع – بغير حدود – بين ما أنزله الله على مولانا وسيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبين ما كتبته أقلام ناقصة معرفة أحياناً ، ومتعصبة أحياناً أخرى ، وساذجة في أغلب الأحايين ، وإن كان بعضها يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة .

والقرآن الكريم حين تناول قصة الطوفان تناولها بما يتفق وأغراض القصص القرآني ، دونما حاجة إلى تفصيلات لا يقتضيها سياق القصة ، ثم جاء المفسرون والمؤرخون الإسلاميون وحاولوا تفسير هذه القصة بإسهاب وتفصيل ، إلا أن هذا التفصيل لعبت فيه الإسرائيليات دوراً عكّر صفوها في كثير من الأحايين ، فيرون مثلاً أن الله أمر نوحاً أن يغرس شجراً ليصنع منه السفينة ، وأن النبي الكريم قد غرس هذا الشجر ، ثم انتظره مائة عام ، ثم نجره في مائة أخرى على رواية ، وفي أربعين على رواية أخرى[4] ، ولست أدري من أين جاءوا بهذا الأرقام ، وما هو المصدر الذي اعتمدوا عليه .

والأمر كذلك بالنسبة إلى طول السفينة ، فهي ثلاثمائة ذراع في عرض خمسين

(١) سورة هود : آية ٤٠ .

(٢) سورة هود : آية ٤٤ .

(٣) سورة هود : آية ٤٨ .

(٤) الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير : – البداية والنهاية في التاريخ جـ١ (القاهرة ١٩٣٢) ص ١١٠ ، وكذلك الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – دار الشعب ١٩٧٠ – ص ٣٢٥٩ ، وكذلك الإمام الطبري : تاريخ الرسل والملوك جـ١ ص ١٨١ (حيث يذكر رواية ثالثة تذهب إلى أنها أربعمائة عام) .

ذراعاً – فيما ترى التوراة على رأي ، وفيما يرى ابن عباس على رأي آخر – وهي ستمائة ذراع في عرض ثلاثمائة ، فيما يرى الحسن البصري ، وهي ألف ومائتا ذراع في عرض ستمائة ، فيما يرى ابن عباس ، وهي ثمانون ذراعاً في عرض خمسين على رواية رابعة ، وهي ألفا ذراع في عرض مائة ذراع على رواية خامسة ، بل وذهبت رواية سادسة إلى أنها سفينة عظيمة لم يكن لها نظير من قبل ، ولن يكون لها نظير من بعد ، هذا فضلاً عن أن الرواية قد تنسب أحياناً إلى شخص معين ، بينما تنسب في مرة ثانية إلى شخص آخر ، وإن كانت الروايات جميعاً تكاد تتفق على أن ارتفاع السفينة إنما كان ثلاثين ذراعاً – وهو رأي التوراة – إلا واحدة تنسب إلى الكلبي وقتادة وعكرمة رأت أنها ثلاثمائة ذراع(١) ، وهكذا بات من الصعب علينا أن نصل إلى رأي نطمئن إلى أنه القول الفصل ، ذلك لأن هذه الروايات لا تقدم لنا دليلاً على صحتها وضعف غيرها حتى نستطيع أن نختار الأقوى حجة منها .

وهناك رواية تنسب إلى ابن عباس – رضي الله عنه – تقسم السفين إلى ثلاثة بطون ، الأسفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسط للطعام والشراب ، والأعلى لنوح ومن معه ، فضلا عن جسد آدم معترضاً بين الرجال والنساء – والذي دفنه بعد ذلك في بيت المقدس – كما كان معهم إبليس في الكوثل (مؤخر السفينة) (٢) .

واختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في أمر التنور ، فهناك من يذهب إلى أنه « وجة الأرض » أي صارت الأرض عيوناً تفور ، حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار(٣) ، وهناك من ذهب إلى أنه تنور الخبز ، وكان من حجارة لحواء حتى صار لنوح ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه مسجد الكوفة ، وذهب رأي رابع – ينسب

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠٩ ، ١١٠ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٨٠ – ١٨٤ ، وكذلك القرطبي المرجع السابق ص٣٢٥٩ ، وكذلك ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ١ (بيروت ١٩٦٥) ص ٧٠ .

(٢) القرطبي : المرجع السابق ص ٣٢٦ ، وكذلك محمد بن سعد كاتب الواقدي – الطبقات الكبرى جـ١ (دار التحرير – القاهرة ١٩٦٨) ص ١٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، تفسير القرآن العظيم جـ٤ (دار الشعب – القاهرة ١٩٧١) ص ٢٥٤ .

إلى الإمام علي رضي الله عنه –إلى أنه فلق الصبح وتنويرالفجر– أي إشراقة وضياؤه – ورغم أن هذه الرواية – فيما يرى ابن كثير – غريبة ، فإنها الرواية الأكثر قبولاً ، فيما نظن ، فضلاً عن أنها الرواية الوحيدة التي تتفق إلى حد ما مع النصوص القديمة ، وأما مكان التنور ، فهو موضوع خلاف كذلك ، فهناك من يراه في الهند ، وهناك من يراه في الكوفة ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنه في الجزيرة ، بل ويتجه رأي رابع إلىأن هذه الآراء جميعاً ليست بمتناقضة ، لأن الله عز وجل أخبرنا أن الماء جاء من الأرض ومن السماء « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً » فهذه الأقوال تجتمع في أن ذلك كان علامة(١) .

ومما هو جدير بالذكر أن « ابن بطوطة » يذكر أن بالكوفة مسجداً صغيراً محلقاً عليه أيضاً بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور ، إيذاناً بطوفان نوح عليه السلام ، وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام ، وإزاءه بيت يزعمون أنه متعبد إدريس عليه السلام ، ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي يقال إنه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام ، هذا ويذكر « ستون لويد » – وهو من كبار علماء الآثار الآشورية – أنه بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة في باطن الأرض تعرف باسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها ، ويرى أن موقعها على صخرة مطلة على ساحل البحر القديم أفضل مكان بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل « أرارات » ، ويرى الدكتور محمد عبد القادر ، أننا إذا نظرنا إلى خريطة العراق ، لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التي حدث بها الطوفان ، والممتدة تقريباً من أبو حبة (سيبار) في الشمال إلى أبو شهرين (أريدو) في الجنوب ، كما أنها قريبة نسبياً من فارة (شورباك) المذكورة في القصة السومرية والتي كانت يوماً ما على الفرات ، فالقصة المتواترة في الكوفة والتي رواها ابن بطوطة وغيره من الرحالة – وكانوا لا يعلمون عندما كتبوا بالقصص السومري والأكدي القديم – كان لها أساس قوي من الصحة(٢) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٤ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٨٦ – ١٨٧ . وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ ،

(٢) محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٧ ، وكذلك Seton Lioyd, Foundations in the Rust (Pelican)1955, P. 30.

وقد اختلف المؤرخون الإسلاميون كذلك في عدد من ركب الفلك ، فذهب رأي إلى أنهم ثمانون نفساً(١) ، وذهب رأي آخر إلى أنهم اثنان وسبعون نفساً ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أنهم كانوا ثلاثة عشرة ، وذهب رأي رابع إلى أنهم كانوا عشرة فقط ، بينما ذهب رأي خامس إلى أنهم كانوا ثمانية — نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونساؤهم — وأخيراً ذهب رأي سادس إلى أنهم سبعة فقط(٢) .

والأمر كذلك بالنسبة إلى مدى ارتفاع الماء على أعلى جبل في الأرض ، فذهب رأي إلى أن ذلك إنما كان خمسة عشر ذراعاً ، وذهب رأي آخر إلى أنها ثمانون ذراعاً ، وأنه لم يبق من الأحياء عين تطرف إلا نوح ومن معه في الفلك ، وإلا عوج بن عنق ، فيما يزعم أهل التوراة(٣) ، وفي الواقع إن هذه رواية متأخرة ليست في التوراة ، فضلاً عن أنها تتعارض مع رأي هؤلاء العلماء في أن الطوفان عام ، كما أن طول عوج بن عنق — إن كان هناك من يسمى عوج بن عنق — يتعارض مع ما جاء في الصحيحين عن المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — من « أن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعاً ، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » وقوله — صلى الله عليه وسلم — « لو رحم الله من قوم نوح أحداً ، لرحم أم الصبي » .

ويذهب المفسرون إلى أن الطوفان قد غطى كل بقاع الأرض إلا الكعبة الشريفة ، ذلك لأن سفينة نوح — فيما يرون — قد طافت بالأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً ، ورفع الله البيت الذي بناه آدم عليه السلام — وهو البيت المعمور والحجر الأسود — على جبل أبي قبيس(٤)،

---

(١) راجع رواية ياقوت الحموي (معجم البلدان ٣ : ٢٣) عن قرية الثمانين وأنها عند جبل الجودي قرب جزيرة ابن عمر التغلبي فوق الموصل .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١–١١٢ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٥ وكذلك القرطبي ص ٣٢٦٣ ، وكذلك الطبري ص ١٨٧–١٨٩ ، وكذلك الطبقات الكبرى ص ١٨ ، وكذلك ابن الأثير ص ٧٠ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٢ ، وكذلك الطبري ص ١٨٥ ، وكذلك الطبقات ص ١٧ ، وكذلك ابن الأثير ص ٧٠ .

(٤) الطبري ص ١٨٥ ، وكذلك الطبقات ص ١٧ .

وذهب رأي آخر إلى أن الله أمر جبريل فرفع الكعبة إلى السماء الرابعة ، وخبأ الحجر الأسود بجبل أبي قبيس ، فبقي فيه إلى أن بنى إبراهيم البيت فأخذه فجعله في موضعه(١) ، بينما ذهب رأي ثالث إلى أن البيت لم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أنه كان مبنيا قبل أيام الخليل ، وأن الروايات التي ذهبت إلى أن آدم قد نصب عليه قبّة ، وأن الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت ، وأن السفينة قد طافت به أربعين يوماً (أو أسبوعاً) ، كل هذه الأخبار مأخوذة عن بني إسرائيل(٢) .

والواقع أن هناك خلافاً على وقت بناء الكعبة ، فهناك رواية تنسب بناءها إلى الملائكة قبل أن يبرأ الله عز وجل الأرض ، وقبل أن يخلق آدم بألفي سنة(٣) ، وهناك رواية أخرى تنسب بناءها إلى آدم عليه السلام(٤) ، بينما ينسب ابن قتيبة — في رواية ثالثة — بناء الكعبة إلى شيث بن آدم(٥) ، وليس في كل هذا خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من مجمل الآية « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » ، فظاهر التعبير أن القواعد كانت موجودة ، وأن كل عمل إبراهيم وإسماعيل إنما كان رفعها وليس تأسيسها ، وليس في لغة العرب ما يمنع من أن يراد برفع القواعد ابتداء بناء البيت ، على ضرب من التوسع في التعبير(٦) .

وأما الرواية الرابعة — وهي ما نميل إليه ونرجحه ، فهي رواية للطبري(٧) — عن سعيد بن جبير عن ابن عباس — تقول إن إبراهيم جاء فوجد إسماعيل يصلح نبلا له من وراء زمزم ، فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن أبني له بيتاً ، فقال له إسماعيل : فأطع ربك فيما أمرك ، فقال إبراهيم : قد أمرك أن تعينني عليه ، قال : إذاً أفعل ، فقام معه ، فجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، ويقولان « ربنا

---

(١) ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٦٣ .
(٣) العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار جـ١ ص ٩٣ (طبعة دار الكتب ١٩٢٤م) .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٩٣ ، وراجع : علي حسني الخربوطلي : الكعبة على مر العصور ص ٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .
(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ١٠ (المطبعة الحسينية ، ١٩٣٤) .
(٦) أحمد حسن الباقوري : مع القرآن — القاهرة ١٩٧٠ ص ٤٧ .
(٧) الطبري : المرجع السابق ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

تقبل منا إنك أنت السميع العليم(١) » ، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة ، قام على حجر — وهو مقام إبراهيم — فجعل يناوله ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عز وجل ببنائه ، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال له « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق »(٢) ، وهكذا بنى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام « الكعبة المشرفة » بيتاً لله تعالى ، ليكون رمزاً إلى الحقيقة الكبرى في الوجود ، حقيقة التوحيد ، توحيد التوجه إلى الله الواحد الأحد ، وتضرع خليل الله ودعا ربه ، وأمن إسماعيل ، أن يجعل الله أفئدة من الناس تهوي إلى ذريته في جوار هذا البيت المحرم(٣)، « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»(٤) .

وإذا كان صحيحاً ما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن إسماعيل — عليه السلام — كان في الثلاثين من عمره يوم أمر الله عز وجل إبراهيم ببناء الكعبة (٥) ، فإن بناء الكعبة حينئذ يكون في حوالي عام ١٨٢٤ ق.م ، على أساس أن إسماعيل قد ولد في عام ١٨٥٤ ق.م ، (وتوفي عام ١٧١٧ ق.م) على أساس أنه ولد لإبراهيم وهو في السادسة والثمانين من عمره ، وأن إبراهيم قد عاش في الفترة (١٩٤٠ — ١٧٦٥ ق.م)(٦) ، وهو تاريخ متأخر جدا عن طوفان نوح عليه السلام .

هناك روايات كثيرة عن دخول الحيوانات والطيور إلى السفين ، ومن أسف أنها روايات أشبه بالأساطير منها بحقائق التاريخ ، ومن أمثلة ذلك دخول إبليس إلى السفينة في ذيل الحمار(٧) ، بناء على كلمة صدرت من النبي الكريم دون أن يقصد منها ما

---

(١) سورة البقرة : آية ١٢٧ .
(٢) سورة الحج : آية ٢٧ .
(٣) محمد الصادق عرجون : محمد صلى الله عليه وسلم من نبعته إلى بعثته — القاهرة ١٩٧١ ص ١٧ .
(٤) سورة إبراهيم : آية ٣٧ .
(٥) علي حسني الخربوطلي : المرجع السابق ص ١٦ .
(٦) راجع في ذلك كتابنا إسرائيل ص ١٧٧ ، ٢٠٢ ، وانظر كذلك تكوين ١٢ : ٤ ، ١٦ : ١٦ ، ٢٥ : ٧ ، ١٧ .
(٧) الطبري : المرجع السابق ص ١٨٤ .

حدث ، والرواية التي تذهب إلى أن « عوج بن عنق » لم يغرق في طوفان نوح ، وأنه قد عاش من قبل عهد نوح ، وإلى أيام موسى ، وأنه كان جباراً عنيداً ، كافراً متمرداً ، وأن أمه عنق بنت آدم قد ولدته من زنا ، وأنه كان طويلا بدرجة لا يمكن أن تحدث ، حتى إنه كان يأخذ السمكة من قرار البحار ثم يشويها في عين الشمس ، وأن طوله كان ٣٣٣٣⅓ ذراعاً، وأنه كان يستهزئ بسفينة نوح وبصاحبها وأنه كان يسميها القصيعة . والواقع أن هـــذه الأسطورة لا تستحق حتى أن تناقش ، ولكني أتساءل مع ابن كثير ، إذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكن أن يقبل العقل أن يهلك ابن نوح ، ولا يرحم من أمته حتى صبيانها ، ثم يترك هذا الجبار الباغي ابن الزنى ، ثم كيف تتفق هذه الخرافة مع الآيات الكريمة التي استخلصوا منها أن الطوفان كا قد قضى على كل ما ومن في الدنيا ، ثم حديث سيدنا ومولانا الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — عن طول آدم ، وأنه كان ٦٠ ذراعاً ، وأن الناس من بعده كانوا أقل منه طولا(١) .

ومن هذا النوع من الروايات كذلك ، رواية تذهب إلى أن السيد المسيح — عليه السلام — بناء على رغبة الحواريين ، قد أعاد « حام بن نوح » إلى الحياة ، ثم سأله عن فلك نوح ، فأخبر أن طولها كان ألف ذراع ومائتي ذراع ، وأن عرضها ستمائة ذراع ، ومن هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أنه لم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر ، وأن مياه البحار إنما هي من بقية الطوفان ، ومن هذا النوع كذلك رواية تذهب إلى أن القوم بعد أن استوت بهم السفينة على الجودي هبطوا إلى أسفله وابتنوا قرية سموها ثمانين ، وأنهم قد أصبحوا ذات يوم ، وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة — إحداها اللسان العربي — فكان بعضهم لا يفهم كلام بعض ، وكان نوح عليه السلام يعبر عنهم(٢) .

وليس هناك باحث منصف يستطيع أن ينكر أثر الإسرائيليات في هذه الروايات التي تجنح إلى الخيال أحياناً وإلى منافاتها للعقيدة الإسلامية الصحيحة أحياناً أخرى ،

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٦ ، تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٤-٢٥٧ ، وكذلك القرطبي المرجع السابق ص ٣٢٥٩-٣٢٦٦ .

وإلى تعارض بعضها مع بعضها الآخر في أحايين كثيرة ، وإذا ما أردنا أن نقدم الدليل على ذلك ، وأخذنا على سبيل المثال قصة تبلبل ألسنة الناجين من الطوفان ، لوجدنا أثر التوراة واضحاً فيها — إن لم تكن منقولة عنها أو تكاد — ذلك أن التوراة حاولت أن تقدم تفسيراً ساذجاً غير علمي لاختلاف اللغات والأجناس ، فروت أن الناجين من الطوفان أرادوا أن يبنوا برجاً عالياً ، بغية الصعود إلى الله — عز وجل — في علياء سمائه ، إذ كانوا يحسبون السماء أشبه شيء بلوح زجاجي يعلو على الأرض بضع مئات من الأمتار ، فخشي اللهشرهم واحتاط لنفسه فهبط إلي الأرض وبلبل ألسنتهم فتفرقوا شذر مذر ، ومن ثم فقد سميت المدينة « بابل » لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض(١) .

ولعل سؤال البداهة الآن : هل عمّ الطوفان الأرض كلها ، أم كان طوفاناً خاصا بقوم نوح دون سواهم من العالمين ؟

يكاد يتجه غالبية المؤرخين الإسلاميين وعلماء التفسير إلى أن طوفان نوح كان طوفاناً عاما ، وأنه أهلك كل من وما على وجه الأرض ، ولم يبق عليها إلا نوح ومن معه ، وإلا عوج بن عنق ، وأن السفينة طافت بالأرض كلها لا تستقر ، حتى أتت الحرم فلم تدخله ، ثم انتهت آخر الأمر إلى الجودي ، فاستوت عليه(٢) .

ويحتجون على ذلك بالآيات الكريمة « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا» (٣) ، وقوله تعالى : « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين »(٤) ، وقوله تعالى « وجعلنا ذريته هم الباقين» (٥) . وقوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ، ثم أغرقنا بعد الباقين» (٦) وقول الحبيب المصطفى ، سيدنا ومولانا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أول رسول أرسل

---

(١) تكوين ١١ : ١—٩ وكذلك كتابنا إسرائيل ص ١١٧ وكذلك J. Gray, op. cit., P. 104.
وكذلك عصام حفني : المرجع السابق ص ٤٢ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٦٣ ، وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٢ .
(٣) سورة نوح : آية ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) سورة هود : آية ٤٠ .
(٥) سورة الصافات : آية ٧٧ .
(٦) سورة الشعراء : آية ١١٩ ، ١٢٠ .

نوح ، وأرسل إلى جميع أهل الأرض ، فلذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً»(١) .

وهناك رأي آخر يتجه إلى أن الطوفان كان محليا في المنطقة التي كان يعيش فيها نوح وقومه ، وأما بقية بقاع الأرض فلم يعمها هذا الطوفان(٢) .

وإني لأظن – وليس كل الظن إثماً – أن الطوفان كان خاصا بقوم نوح دون سواهم من العالمين ، معتمداً في ذلك على أدلة كثيرة ، منها (أولاً) أن كل آيات القرآن الكريم تنص – دونما لبس أو غموض – على أن نوحاً إنما أرسل إلى قومه خاصة ، ومن ذلك قوله تعالى « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون»(٣) ، وقوله تعالى : « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٤) ، وقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت» (٥) وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنه لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتني رحمة من عنده فعُمِّيَت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا

---

(١) القرطبي : المرجع السابق ص ٦٧٧٧ .
(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٦ .
(٣) سورة الأعراف : آيات ٥٩–٦٣ .
(٤) سورة التوبة : آية ٧٠ .
(٥) سورة يونس آية ٧١ .

ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون» (١) وقوله تعالى : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » (٢) ، وقوله تعالى : « ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات » (٣) ، وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » (٤) ، وقوله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون » (٥) ، وقوله تعالى : «قال ربي إن قومي كذبون ، فافتح بيني وبينهم فتحاً ونجني ومن معي من المؤمنين » (٦) وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » (٧) ، وقوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين » (٨) ، وقوله تعالى : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى »(٩) ، وقوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر»(١٠) ، وقوله تعالى: « إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين »(١١) ، وقوله تعالى : « قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا(١٢) . . . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تؤكد كل التأكيد أن دعوة نوح إنما كانت لقومه خاصة ـ شأنه في ذلك شأن غيره من المصطفين الأخيار ، غير الحبيب المصطفى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ .

---

(١) سورة هود : آيات ٢٥-٣٠ .
(٢) سورة هود : آية ٣٦ .
(٣) سورة إبراهيم : آية ٩ .
(٤) سورة المؤمنون : آية ٢٣ ، ٢٤ .
(٥) سورة الشعراء : آية ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٦) سورة الشعراء : آية ١١٧ ، ١١٨ .
(٧) سورة العنكبوت : آية ١٤ .
سورة الذاريات : آية ٤٦ .
سورة النجم : آية ٥٢ .
(١٠) سورة القمر : آية ٩ .
(١١) سورة نوح : آية ١ ، ٢ .
(١٢) سورة نوح : آية ٥ .

ومنها (ثانياً) أن هناك اتفاقاً عاماً على أن الرسل جميعاً قد أرسلوا إلى قومهم خاصة ، باستثناء حبيب الله محمد — صلى الله عليه وسلم — وهكذا يحكي القرآن الكريم عن رسالات الأنبياء السابقين على سيدنا محمد — عليه الصلاة والسلام — بعنوان القومية الخاصة ، يقول الله سبحانه وتعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب» (١) ، وقوله تعالى : « مثل دأب قوم نوح وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد »(٢) ، وقوله تعالى : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد »(٣) ، وقوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »(٤) ، وقوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين »(٥) ، وقوله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ، وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين» (٦) ، وقوله تعالى : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم »(٧) ، وقوله تعالى عن عيسى عليه السلام : « ورسولاً إلى بني إسرائيل »(٨) .

ومنها (ثالثاً) أن النبي الوحيد من بين الأنبياء جميعاً الذي قد أرسله الله إلى الناس كافة هو سيدنا ومولانا محمد — صلى الله عليه وسلم — وقد دلّ القرآن على عالمية الدعوة

(١) سورة ص : آيات ١٢–١٤ .
(٢) سورة غافر : آية ٣١ .
(٣) سورة ق آيات ١٢–١٤ .
(٤) سورة الأعراف : آية ٧٣ .
(٥) سورة الأعراف : آية ٨٠ .
(٦) سورة الأعراف : آية ١٠٣ ، ١٠٤ .
(٧) سورة إبراهيم : آية ٥ ، ٦ .
(٨) سورة آل عمران : آية ٤٩ .

المحمدية بأساليب متعددة في نصوص واضحة (١) ، بل إن هناك أكثر من أربعين آية في القرآن الكريم يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين ، هذا عدا الآيات التي ذكر فيها بالنص الواضح أنه – صلوات الله عليه وسلامه عليه – قد أرسل إلى الناس كافة ، وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس كافة (٢) ، ومن ذلك قوله تعالى : « وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً » (٣) ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٤) ، وقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٥) ، وقوله تعالى : « آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » (٦) ، وقوله تعالى : « تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »(٧)، وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً »(٨) ، وقوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين »(٩) . وقوله تعالى : « هـــذا بلاغ للناس ولينذروا به »(١٠)، وقوله تعالى : « إن هو إلا ذكر للعالمين»(١١) ، ثم هناك قوله تعالى : « قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال ، الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار» (١٢) ، فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم

---

(١) راجع في ذلك البحث الرائع لفضيلة الشيخ مناع القطان تحت عنوان « الإسلام شريعة الله الخالدة إلى البشرية كافة » في مجلة كلية الشريعة العدد الخامس ص ١١–٤٠ .

(٢) انظر المجلة الإنجليزية (History Today) يونية ١٩٦١ ، وكذا عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٣) سورة النساء : آية ٤٩ .

(٤) سورة الأنبياء : آية ١٠٧ .

(٥) سورة سبأ : آية ٢٨ .

(٦) سورة إبراهيم : آية ١ .

(٧) سورة الفرقان : آية ١ .

(٨) سورة الأعراف : آية ١٥٨ .

(٩) سورة الحج : آية ٤٩ .

(١٠) سورة إبراهيم : آية ٥٢ .

(١١) سورة ص : آية ٨٧ .

(١٢) سورة إبراهيم : آيات ٣١–٣٣ .

البحر وسخر لهم الأنهار وسخر لهم الليل والنهار ، لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بني الإنسان في جميع البلدان (١)، وأخيراً فليس هناك من يشك أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– هو خاتم النبيين « ماكانَ محمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رِجالكم ولكن رَّسولَ الله وخاتَمَ النبيين »(٢) ، وبالتالي فإن دعوته لن تكون – بحال من الأحوال – مقصورة على قوم دون آخرين ، ومن ثم كانت عالمية الدعوة الإسلامية .

ومنها (رابعاً) أن السنة الشريفة تتفق مع القرآن الكريم على عالمية الدعوة المحمدية ، وأن تلك ميزة الحبيب المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه – على غيره من أنبياء الله الكرام الذين كانت دعواتهم مقصورة على أقوامهم دون غيرهم من العالمين ، يقول – صلى الله عليه وسلم – كما جاء في الصحيحين « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » ، وعن أبي موسى الأشعري أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار » ، ويذهب سعيد بن جبير إلى أن تصديق ذلك في كتاب الله تعالى : « وَمَن يكفُرْ بهِ منَ الأحزابِ فالنارُ مَوْعِدُه »(٣) .

ومنها (خامساً) أن قول أهل الموقف لنوح – كما في حديث الشفاعة – أنت أول رسول إلى أهل الأرض ، ليس المراد به عموم بعثه ، بل إثبات أولية إرساله (٤)، ومن ثم فإن نوحاً – عليه السلام –هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى قوم مشركين ، هم قومه(٥) .

---

(١) عباس العقاد : المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٤٠ .

(٣) راجع في ذلك : مجموعة فتاوي شيخ الإسلام أحمد بن تيمية : الجزء الرابع ص ٢٠٣–٢٠٨ ، جـ١١ ص ١٦٩–١٧٠ ، جـ١٩ ، ص ٩–١٢ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، الرياض ١٣٨١–١٣٨٢ هـ ، وكذلك مناع القطان : المرجع السابق ص ٢٠–٢١ ، وكذلك صحيح البخاري .

(٤) محمد رشيد رضا : تفسير المنار جـ٧ ص ٥٠٣ .

(٥) نفس المرجع السابق جـ٨ ، ص ٤٣٦ .

ومنها (سادساً) أن مبلغ علمي — وأنا واحد من عامة المسلمين لم يكتب له شرف التخصص في الدراسات القرآنية — أن القاعدة الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم هي إلا يعذب الله قوماً إلا إذا أرسل إليهم رسولاً يهديهم سواء السبيل ، تصديقاً لقوله تعالى : «وما كنا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رسولا» (١) ، فإذا افترضنا أن نوحاً —عليه السلام— كان في جنوب العراق — كما هو المتواتر ، أو الذى يميل إليه أغلب الباحثين على الأقل فكيف يعذب الله — وهو أعدل العادلين — المصريين أو السوريين أو سكان الجزيرة العربية ، على سبيل المثال ، بسبب كفر العراقيين بنوح وبدينه القويم بخاصة وأن القرآن الكريم يقول « مِما خَطيئاتِهِم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فلم يجدوا لهم مِن دونِ الله أنصارا»(٢) ، وهذا يعني أن الذين أغرقوا . إنما بسبب خطيئتهم في حق نوح وكفرهم بدعوته ، بل إن القرآن الكريم ليصرح — دونما لبس أو غموض — بأنهم قد عصوا نوحاً حقيقة ، يقول الله سبحانه وتعالى : « قال ربِّ إنهم عصوني » ، وأنهم لم يتركوا وثنيتهم الضالة المضلة إلى عبادة الله الواحد القهار ، فإذا كان الطوفان عاما ، فلا بد أن تكون دعوة نوح بالتالي عامة ، وهذا يتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية ، فضلاً عن معارضته لآيات من القرآن الكريم ، ومن ثم فلا بد أن تكون الدعوة خاصة ، وأن الذين أغرقوا كانوا من الخاطئين ، أو كما يقول ابن كثير « اجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم» ، ثم هناك قوله تعالى : « وأُوحيَ إلى نوحٍ أنه لن يُؤْمِنَ قومك إلا من قد آمن »(٣) ، أليس في هذه الآية الكريمة دليل على أن الكافرين ، إنما كانوا من قوم نوح فحسب ، وأن الفلك التي ستبنى إنما هي لإنقاذ المؤمنين من قومه ، وإغراق الكافرين منهم ، ثم أليس في قوله تعالى : «ويَصْنَعُ الفُلْكَ وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تَسْخَروا منّا فإنا نَسْخَرُ منكم كما تَسْخَرُون»(٤) دليل على أن الساخرين من نوح كانوا من قومه ، وأنهم هم أنفسهم الكافرون به ، والأمر كذلك بالنسبة إلى قوله تعالى : « قال ربِّ انصُرني بِمَا كَذَّبُون»(٥) ، وقوله تعالى : « فإذا

---

(١) سورة الإسراء : آية ١٥ .
(٢) سورة نوح : آية ٢٥ .
(٣) سورة هود : آية ٣٦ .
(٤) سورة هود : آية ٣٨ .
(٥) سورة المؤمنون : آية ٢٦ .

استويتَ أنت ومنّ معَك على الفُلك فقُل الحمدُ لله الذي نجّانا من القومِ الظالمين» (١)، وقوله تعالى : «فكذّبوه فنجيناهُ ومن معَه في الفُلكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبةُ المنذَرِين» ، (٢)وكل هذه الآيات وغيرها تضغط بشدة على أن الذين أغرقوا إنما كانوا من المكذبين لسيدنا نوح عليه السلام ، بل إن الآية الأخيرة لتشير بوضوح إلى أن ما حدث لهم كان بعد إنذارهم « فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » تصدبقاً لقوله تعالى « وما كنا معذّبينَ حتى نَبْعَثَ رسولاً ». (٣)

ومنها (سابعاً) أن الله سبحانه وتعالى رحمة منه بالعالمين ، أنه ما من أمة إلا وجاء أهلها رسول من عند الله العليّ القدير ، «ولقدْ بعثنا في كلّ أمةٍ رسولا» (٤) ، بل إنه لمن أصول العقائد الإسلامية أنه يجب الإيمان بأن الله أرسل في كل الأمم رسلاً(٥) ، يقول سبحانه وتعالى : «وإن مِن أمةٍ إلا خلا فيها نذير»(٦) ، ويقول : « وكمْ أرسلنا مِنْ نبيٍّ في الأولين »(٧)، « منهم من قصصْنا عليك ومنهم من لم نقصُصْ عليك » (٨) ، « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصُصْهم عليك »(٩) ، ومن هنا كان الخلاف على عدد الأنبياء عليهم السلام ، فمن قائل إنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، ومن قائل إنهم ثمانية آلاف نبي ، ومن قائل إنهم ثلاثة آلاف . . . إلخ(١٠) .

ومنها (ثامناً) أن حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، الذي يحتج به على أن الله

---

(١) سورة المؤمنون : آية ٢٨ .
(٢) سورة يونس : آية ٧٣ .
(٣) سورة الإسراء : آية ١٥ .
(٤) سورة النحل : آية ٣٦ .
(٥) محمد رشيد رضا : تفسير المنار جـ٧ ، ص ٥٠٠ .
(٦) سورة فاطر : آية ٢٤ .
(٧) سورة الزخرف : آية ٦ .
(٨) سورة غافر : آية ٧٨ .
(٩) سورة النساء : آية ١٦٤ .
(١٠) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم جـ٢ ص ٤٢٢-٤٢٨ ، وكذلك القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ص ٢٠١٤-٢٠١٥ ، وكذلك محمود الشرقاوي : الأنبياء في القرآن الكريم ، وكذلك كتابنا إسرائيل ص ٢٨٨-٢٨٩ .

ثم يرحم أحداً من طوفان نوح حتى الأطفال ، أنه نفسه — فيما أظن — دليل على أن الغارقين إنما كانوا من قوم نوح ، وليس من كل بقاع الأرض ، ولنقرأ الحديث الشريف - حيث التركيز على كلمة قوم — « فلو رحم الله من قوم نوح أحداً لرحم أم الصبي » .

ومنها (تاسعاً) أن الذين ينادون بعالمية الطوفان (١) هم أنفسهم الذين يرون أن الفترة ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، تقارب عشرة قرون ، فإذا كان المراد بالقرن مائة سنة — كما هو معروف — فبينهما ألف سنة ، وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس ، فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين ، بل إن بعضهم يذهب إلى أنه ما كان في زمن نوح شبر من الأرض إلا وهناك إنسان يدعيه ، وهناك رواية تنسب إلى الإمام مالك — عن زيد بن أسلم — أن أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل ، فهل يتفق ذلك مع رأي آخر لهم هو أن العالم كان في تلك الفترة قليل السكان بدرجة يستطيع أن يبلغ فيها دعوته للناس كافة ، وبالتالي فإن الكافرين به قد انتشروا في كل أنحاء المعمورة ، مما يستدعي أن يكون الطوفان عاماً .

ثم ما علاقة ذلك بفكرة العشرة الأجيال ، أو رؤساء الآباء ، ما بين آدم ونوح التي جاءت في التوراة(٢) ، بل ما علاقة الأخيرة بالعشرة الحكام الذين سبقوا الطوفان ، كما يقدمهم المؤرخ البابلي بيروسوس (٣) ؟

ومنها (عاشراً) أن الرواية التي تذهب إلى أن الطوفان قد حدث في العام الستمائة من حياة نوح — وتلك للعلم منقولة عن التوراة(٤) — وفي عام ٢٢٥٦ بعد هبوط آدم

---

(١) القرطبي : المرجع السابق ص ٣٢٥٩ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٧٨ ، ١٩٠ ، وكذلك ابن كثير : البداية والنهاية ص ١٠١ .

(٢) تكوين ٥ : ٥-٣٢ ، وهم كالآتي : آدم وعاش ٩٣٠ سنة ، وشيث وعاش ٩١٢ سنة ، وأنوش وعاش ٩٠٥ سنة ، وقينان وعاش ٩١٠ سنة ، ومهالئيل وعاش ٨٩٥ سنة ، ويارد وعاش ٩٦٢ سنة ، وأخنوخ وعاش ٣٦٥ سنة ، ومتوشالح وعاش ٩٦٩ سنة ، ولامك وعاش ٥٩٥ سنة ، ونوح وعاش ٩٥٠ سنة .

(٣) G.A. Barton, op. cit., P. 320 وكذا J. Finegan, op. cit., P. 30.

(٤) تكوين ٧ : ٦ .

إلى الأرض ، ألا تكفي كل هذه السنين لإيجاد أقوام غير قوم نوح في هذه الدنيا ؟ أم أن الأمر كان مقصوراً على قوم نوح ؟

وإذا كان طوفان نوح قد حدث في الفترة التي تسبق بداية العصر التاريخي في العراق القديم ، والتي يرى علماء الآثار أنها قد حدثت في حوالي عام ٢٧٠٠ ق.م(١) ، فإن عصور ما قبل الطوفان تزيد بآلاف السنين عما قدره علماء التوراة ، ونقله عنهم أصحاب هذه الروايات .

ومنها (حادي عشر) أن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم « قيل يا نوح اهبِطْ بسلامٍ مِنّا وبركاتٍ عليك وعلى أُممٍ مِمَّن مَعَك وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثم يَمَسُّهُمْ مناعذابٌ أليم » (٢) ، ألا يفهم من قوله تعالى « أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » أن هناك آخرين لم يشملهم طوفان نوح ، وأن الله سبحانه وتعالى سيمتعهم إلى حين ، ثم يمسهم عذاب أليم ؟ .

ومنها (ثاني عشر) أن المفسرين والمؤرخين الإسلاميين أنفسهم يكادون يجمعون على أن الطوفان إنما بدأ وانتهى في العراق القديم ، فهناك رواية مجاهد والشعبي التي تذهب إلى أن التنور إنما كان بأرض الكوفة ، ورواية قتادة من أنه كان بأرض الجزيرة ، فضلاً عن رواية ثالثة تذهب إلى أن سفينة نوح قد بدأت رحلتها من « عين وردة » ، وعين وردة هذه — كما يقول ياقوت الحموي — رأس عين المدينة المشهورة في الجزيرة (٣) ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء في القرآن الكريم من أن سفينة نوح قد استوت على الجودي — والجودي جبل يقع شرق جزيرة ابن عمر إلى جانب دجلة عند الموصل — فإذا كانت كل هذه الأماكن التي ذكرت إنما تقع في العراق ، فمن البدهي أن رحلة سفينة نوح إنما بدأت وانتهت في العراق .

---

(١) G. Roux, Ancient Iraq, 1966, P. 119–120. وكذلك -
Sir Leonard Woolley, Excavations At Ur, P. 16.

(٢) سورة هود : آية ٤٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١١ ، وكذلك ابن الأثير : المرجع السابق ص ٧٠ وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٩٠ .

ومنها (ثالث عشر) أن صاحب « تفسير جزء تبارك » يتجه إلى أن مسألة شمول الطوفان لجميع أقسام الأرض ، وعدم شموله لم يرد عنها في الكتاب نص قطعي ، وكلمة لأرض في قوله تعالى : «وقيلَ يا أرضُ ابلعي ماءك » ليست نصا في الدلالة على جميع أجزاء سطح الأرض ، وإنما هي تستعمل أحياناً كثيرة استعمالاً فصيحاً في الجهة الواحدة من جهات الأرض ، ففي سورة يوسف « قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظٌ عليم » ، « وكذلك مكنّا ليوسفَ في الأرض يتبوأ منها حيثُ يشاء » ، والمراد بالأرض في الموضعين « أرض مصر » ، لا الكرة الأرضية كلها ، وليس هذا مماراة منا في قدرة الله أن يعم سطح الأرض كلها بالطوفان ، وإنما يجب أن نقف في العقائد خاصة على ما جاء في صحيح النقل وارتاح إليه العقل(١) .

ومنها (رابع عشر) أن صاحبي « تفسير الجلالين » يتجهان في تفسيرهما لقوله تعالى : « وإن فرعون لعالٍ في الأرض »(٢) إلى أن الأرض هنا هي أرض مصر (٣) .

ومنها (خامس عشر) أن صاحب « تفسير جزء تبارك » يتجه في تفسير قوله تعالى : ربِّ اغفرْ لي ولوالديَّ ولمن دَخَلَ بيتيَ مؤمناً وللمؤمنين والمؤمناتِ ولا تَزِدِ الظالمين «لا تبَارا»(٤)إلىأن نوحاً عليهالسلام ختمدعاءهبالدعاء للمؤمنين والمؤمنات جملة واحدة ، يومئُ هذا من طرف خفي إلى أن هناك مؤمنين ومؤمنات غير جماعة بيته الذين نجو معه في السفينة ، وعلى هذا فالطوفان لم يعم الأرض كلها ، ويكون في بعض جهاتها البعيدة مؤمنون ومؤمنات لم يغرقوا ، وقد دعا لهم نوح مع أهل بيته المذكورين(٥) .

ومنها (سادس عشر) أن هناك جماعة من أهل فارس والهند ــ كما يروي المؤرخون الإسلاميون ــ يرون أن الطوفان كان خاصا ، وأنه كان ببابل ومجاوراتها ، ولم يصل إليهم ، وأن تاريخ الملك عندهم يمتد في الماضي إلى تاريخ أبعد من الذي قدرته التوراة

---

(١) عبد القادر المغربي : تفسير جزء تبارك ، المطبعة الأميرية ــ القاهرة ١٩٤٧ م ص ١٣٩ .
(٢) سورة يونس : آية ٨٣ .
(٣) جلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي : تفسير الجلالين ، دار الشعب ــ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٩٣ .
(٤) سورة نوح : آية ٢٨ .
(٥) عبد القادر المغربي : تفسير جزء تبارك . ص ١٤٣ .

لطوفان نوح ، وأن عمرانهم متصل من أعمق أجيال التاريخ إلى اليوم(١) .

ومنها (سابع عشر) أن الآثار تثبت ، دونما ريب ، أن هناك طوفاناً — بل طوفانات — حدثت في العراق القديم ، ومن ثم فإن الأثريين يكادون يتفقون — وعلى رأسهم سير وليم ويلكوكس ، وسير ليونارد وولي — على أن الطوفان لم يشمل الكرة الأرضية كلها ، وإنما كان طوفاناً كبيراً على وادي دجلة والفرات أغرق كل الأرض الصالحة للسكنى في هذه المنطقة بين الجبال والصحراء ، والتي هي في نظر سكان المنطقة — وبخاصة في تلك الفترة المبكرة — بمثابة العالم كله ، وتقدر المساحة التي شملها الطوفان — في نظر بعض علماء الآثار — بحوالي ٤٠٠ ميل طولاً (حوالي ٦٥٠ كيلومتراً) في ١٠٠ ميل عرضاً (حوالي ١٥٠ كيلومتر) ، وكان ذلك كافياً لأن يغمر الوادي كله ، إذ بلغ ٤٠ ألف ميل مربع ، ورغم أن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يحدد زمن الطوفان تحديداً تاما ، إلا أن هناك من يرى أنه ربما يرجع إلى قرب نهاية « عصر جمدة نصر » ، أي قبيل بداية الألف الثالثة ق.م(٢) .

ومنها (ثامن عشر) أنه من المعروف في كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر «الأرض»، ويراد بها أرضهم ووطنهم، كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون «وتكون لكما الكبرياء في الأرض»(٣)، يعني أرض مصر، وقوله تعالى: **﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾**(٤) فالمراد بالأرض هنا مكة المكرمة، وقوله تعالى: **﴿وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدن في**

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٣٦ وكذلك ابن كثير : البداية والنهاية ص ١١٨– ، وكذلك ابن الأثير : المرجع لسابق ص ٧٣ ، وكذلك الطبري : المرجع السابق ص ١٩٢

(٢) S.L. Woolley, Excavations At Ur, P. 36, Ur of the Chaldees, 1950, P 22F
وكذلك .W. Keller, op. cit., P. 50–51 ، وكذلك محمد عبد القادر : المرجع السابق ص ٩٥ ، وكذلك عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ص ١٢ .

(٣) سورة يونس: آية ٧٨.

(٤) سورة الإسراء: آية ٧٦.

الأرض مرتين﴾[1]، والمراد بها الأرض التي كانوا يعيشون فيها، أي فلسطين.

ولعل من الأفضل هنا أن ننقل فتوى الأستاذ الإمام محمد عبده في طوفان نوح، كما جاءت في تفسير المنار، رداً على سؤال الشيخ عبدالله القدومي بمدينة نابلس.

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية:

وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٤ شوال سنة ١٣١٧ هـ، الذي أنهيتم به أنه ظهر قبلكم نشء جديد من الطلبة ديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الأدلة القرآنية، وقد سمع من مقالتهم الآن: أن الطوفان لم يكن عاماً لأنحاء الأرض، بل هو خاص بالأرض التي كان بها قوم نوح عليه السلام، وأنه بقي ناس في أرض الصين لم يصبهم الغرق، وأن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاماً بل هو خاص بكفار قومه، لأنه لم يكن مرسلاً إلى قومه، بدليل ما صح «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة».

فإذا قيل لهم: إن الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً»، وقوله تعالى: **﴿لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾**، قالوا هي قابلة للتأويل ولا حجة فيها، وإذا قيل لهم: إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحاً عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وأنه يتعين أن يكون قومه أهل الأرض، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقياً لعدم وجود أحد غير قومه، ولو وجد غيره لم يكن مرسلاً إليهم، سخروا من المحدثين، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين، ورغبتهم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم، ورغبتم منا

(١) سورة الإسراء: اية ٤.

يقتضيه الحق ، ويطمئن إليه القلب .

والجواب على ذلك والحمد لله ، أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سنده ، فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين ، لا الظن ، إذا عدّ اعتقادها من عقائد الدين .

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع ، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالراوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني .

وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم ، أما أهل الكتاب وعلماء الأمة الإسلامية فعلى أن الطوفان كان عاماً لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا تكون إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض ، ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها ، غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين ألا ينفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقلي يقطع بأن الظاهر غير المراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج

إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ويقول السيد محمد رشيد رضا : وخلاصة هذه الفتوى أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاماً ، شاملاً لقوم نوح الذين لم يكن في الأرض غيرهم ، فيجب اعتقاده ، ولكنه لا يقتضي أن يكون عاماً للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملأون الأرض ، وكذلك وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قمم الجبال لا يدل على أنها من أثر ذلك الطوفان ، بل الأقرب أنه كان من أثر تكوين الجبال وغيرها من اليابسة في الماء ، فإن صعود الماء إلى الجبال أياماً معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر منها ، وكما قلنا فإن هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبّينها بنص قطعي ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت علماء الجيولوجية خلافه لا يضرنا ، لأنه لا ينقض نصاً قطعياً عندنا .

وبعد : فهذه قصة الطوفان ، كما قدمتها الآثار والتوراة ، وكذا القرآن الكريم ، ولعل مما يلفت النظر أنها جميعاً تتفق على أن القوم قد انحرفوا عن سواء السبيل ، ومن ثم فقد كان قضاء الله العادل في صورة طوفان أهلك الحرث والنسل ، ولم تكتب النجاة من عقاب الله لأحد ، إلا بطل القصة والذين آمنوا معه ، وهو الذي اتفقت الروايات جميعاً على أنه كان باراً تقياً ورعاً ، ولكن هناك خلافات جوهرية بين النص القرآني وبين غيره من النصوص - سواء كانت تلك النصوص بشرية كنص سومر وبابل ، أو نصوصاً يزعم لها أصحابها ما يزعمون من قداسة ، كنص التوراة .

ومن هذه الاختلافات (أولاً) أن النص القرآني كان هو النص الوحيد الذي

حدثنا أن نوحاً كان رسولاً من رب العالمين، وأنه قضى من الزمن ما شاء الله له أن يقضي في دعوة قومه إلى عبادة الله الواحد القهار، وأن الله — جل وعلا — لم يأت بالطوفان إلا بعد أن تحمل النبي الكريم في دعوته كل صنوف الأذى والاضطهاد، وإلا بعد أن جرّب نبي الكريم كل سبل الإقناع، دونما أية نتيجة، « قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدهم دعائي إلا فراراً، وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً، ثم إني دعوتهم جهاراً، ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا »(1)، وإلا بعد أن يئس النبي الكريم من أن يؤمن به قومه، فدعا « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا» (2)، وإلا بعد أن أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» (3)، وهكذا اتبع نبي الله الكريم كل ما يمكن اتباعه تصديقاً لقوله تعالى: « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً »(4).

ومنها (ثانياً) أن الناجين من الطوفان في القصة القرآنية، إنما نجو لأنهم آمنوا بالله العزيز الحكيم، وصدقوا بدعوة نوح عليه السلام، بعكس النصوص الأخرى التي جعلت نجاتهم، إنما ترجع إلى أنهم من أهل بطل القصة وذوي قرباه، ويزيد القرآن الكريم الأمر وضوحاً في هذه النقطة بالذات، فيقص علينا — من بين ما يقص من أحداث — ما حدث مع ابن نوح، وكيف كان من الغارقين، ثم كيف « نادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين، قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» (5). وهكذا يبدو واضحاً المبدأ القرآني العظيم « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »، « ولا تزر وازرة وزر أخرى »، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(6).

---

(1) سورة نوح : آيات 5—10.
(2) سورة نوح : آية 26، 27.
(3) سورة هود : آية 36.
(4) سورة الإسراء : آية 15.
(5) سورة هود : آيات 45—47.
(6) سورة الزلزلة : آية 7، 8.

ومنها (ثالثاً) أن زوجة بطل القصة في النصوص السومرية والبابلية ــ وكذا في نص التوراة ــ تنجو من الطوفان مع الناجين ، ولكن القرآن الكريم كان وحده هو الذي أخبرنا أن زوج النبي الكريم لم تكن من المؤمنين به « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين »(١) ، ولا شأن لنا بروايات ذهبت إلى غير ما ذهب إليه النص القرآني الكريم ، فإنما هي اجتهادات على مسئولية أصحابها ، وهي قبل ذلك باطلة لمخالفتها للقرآن الكريم .

ومنها (رابعاً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي يتفق إلى حد كبير ـــ مع الفارق الشاسع بين ما أنزله الله وما كتبته أيدي البشر ـــ مع أقدم نصوص قصة الطوفان في أن الطوفان إنما بدأ وانتهى ـــ أو على الأقل انتهى ـــ في العراق ، وذلك حين « غيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودى » .

ومنها (خامساً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تسامى عن مهاوي الشرك وضلال الوثنية ، فهو في صراحة تامة يذكر أن القوم قد حادوا عن عبادة ربهم وانصرفوا إلى عبادة الأوثان ، وفي كل هذا يقدم لنا وصفاً لله سبحانه وتعالى ـــ بما يتفق ومقام الذات العلية ـــ فلا يتنزل إلى الدرك الأسفل من التفكير الوثني في قصص العراق القديم ، أو يصف الله سبحانه وتعالى بما وصفته التوراة من أوصاف لا يرتضيها عقل ولا يقرها منطق ، بل هي أوصاف لا يرتضيها عقلاء الناس لأنفسهم في كثير من الأحيان .

ومنها (سادساً) أن النص القرآني الكريم هو النص الوحيد الذي تنزه عن التناقض الذي ساد قصة التوراة مثلاً .

ومنها (سابعاً) أن النص القرآني هو الوحيد الذي نزّه الله سبحانه وتعالى عن الندم على إحداث الطوفان ، بعكس النصوص الأخرى التي ذهبت إلى ندم الله ـــ أو الآلهة في النصوص البابلية ـــ على الإتيان بالطوفان ، بل ذهبت التوراة إلى أبعد من ذلك ، حين زعمت أن الله ـــ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـــ قد عزم ألا يحدث طوفاناً بعد ذلك ،

---

(١) سورة التحريم : آية ١٠ .

وأنه قد وضع علامة هي القوس في السماء ، ليتذكر وعده ، فلا يكون طوفان يغرق الأرض أبداً .

ومنها (ثامناً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي تنزه عن الماديات ، ذلك أن كلا من النصين — البابلي والتوراتي — يضحي فيه البطل بالأضاحي ، فتشم الآلهة في القصة البابلية ، ويشم الرب في قصة التوراة ، رائحة الشواء فيسكن غضبه ويتنسم رائحة الرضا ، بل إن القرآن الكريم ليرد على فحش يهود هذا — وهم يزعمون أنهم موحدون وأن كتابهم هذا تنزيل من عليّ قدير — بقوله تعالى « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم »(1) ويقول : « فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير » (2) .

ومنها (تاسعاً) أن النص القرآني هو الوحيد الذي لا تجد فيه نصا قطعيا على أن الطوفان قد شمل الأرض كلها — الأمر الذي ناقشناه من قبل — وإن كانت النصوص السومرية والبابلية ، إنما عنت بالأرض المنطقة التي يسكنها أصحاب الطوفان ، ثم جاءت يهود ، ونقلت ما نقلت من المصادر البابلية ، ثم مزجت ذلك كله بما أنزله الله على موسى عليه السلام ، ثم أخرجت لنا التوراة الحالية التي لا تمثل وحياً من عند الله ، كما أنها لا تمثل الكتابات الإنسانية ، وإنما هي خليط من هذا وذاك ، ومن ثم كانت روايتها أكثر الروايات تعرضاً للخطأ ، فضلا عن أنها لا تقدم لنا رواية سماوية مقدسة تماماً ، ولا وجهة النظر الإنسانية التي فيها ما في الإنسان نفسه من خطأ وصواب ، وإنما هي بين بين .

ومنها (عاشراً) أن النص القرآني هو النص الوحيد الذي لم يعتمد على غيره من المصادر القديمة ، ذلك أن السومريين بعد أن كتبوا روايتهم عن الطوفان ، جاء البابليون من بعدهم ، وأخذوا منها ما أخذوا ، ثم جاءت يهود ونقلت ما نقلت عن الاثنين ، وهكذا كانت كل رواية طوفانية تعتمد على رواية سبقت في التدوين — ولكن الأمر جد مختلف بالنسبة إلى القصة القرآنية ، والتي هي وحي من رب العالمين ، ذلك أنه في القرن السابع الميلادي ، وفي مكة المكرمة ، وفي غار حراء بدأ نزول الوحي على مولانا وسيدنا

---

(1) سورة الحج : آية ٣٧ .

(2) سورة الحج : آية ٢٨ .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالقرآن الكريم ، ولم يكن رسول الله — عليه الصلاة والسلام — ولا قومه ، على دراية بقصة الطوفان هذه ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » (١) .

ثم أليس كل ما جاء في هذه الدراسة يدل بوضوح على هيمنة القرآن الكريم على غيره من الكتب السماوية — فما بالك بالكتابات الإنسانية — مصداقاً لقوله تعالى ، مخاطباً الحبيب المصطفى — صلوات الله وسلامه عليه — « وأنزلنا إليك الكتاب ، بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه »(٢) ، ثم أليس هو الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »(٣) .

---

(١) سورة هود : آية ٤٩ .
(٢) سورة المائدة : آية ٤٧ .
(٣) سورة فصلت آية ٤٢



الباب الثاني

سِيرة إبراهيم الخَليل عَلَيْهِ السَّلَام في العِرَاق



الفصل الأول

معبودات قوم إبراهيم

لعل من الأفضل أن نشير هنا، وقبل الحديث عن معبودات قوم إبراهيم، إلى أننا قدمنا في الجزء الأول من هذه السلسلة وغيرها، دراسات مفصلة عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عن: نسبه وعصره، فضلاً عن موطنه الأصلي، وهجراته في بلاد الشام ومصر والحجاز[1]، ومن ثم فلسنا في حاجة إلى تكرار ذلك في هذا الجزء الرابع من سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»، والذي سوف تقتصر الدراسة فيه عن دعوة أبي الأنبياء، إبراهيم الخليل، عليه السلام، في موطنه الأصلي، في العراق القديم.

معبودات قوم إبراهيم: - من الحقائق المتفق عليها في تاريخ أبي الأنبياء، عليه السلام، أنه ولد ونشأ في العراق، كما أنه تلقى وحي ربه وبلّغ رسالاته، أول ما بلغها، في العراق كذلك، وأن قومه إنما كانوا يعبدون الأصنام، فضلاً عن عبادة الكواكب.

هذا ويكاد يتفق المؤرخون أن أهل بلاد الرافدين (بلاد النهرين = ميزوبوتاميا = بارابوتاميا) قد نسبوا إلى معبوداتهم صفات البشر، والتي لا تختلف عنها إلا أنها أكثر تجريداً وكمالاً، كما كانت ثياب الآلهة كثياب البشر،

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن سيدنا إبراهيم عليه السلام شملت الموضوعات التالية (١ - إبراهيم بين التوراة والقرآن الكريم ٢ - إسم الخليل ونسبه ٣ - موطن الخليل ٤ - عصر الخليل ٥ - هجرات الخليل ٦ - الرحلة إلى مصر ٧ - رحلة الخليل إلى الحجاز ٩ - قصة الذبيح ١٠ - زوجات الخليل)، وذلك في كتابين لنا. (انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٧٨ ص (٤٩ - ١٨٤)، دراسات تاريخية من القرآن الكريم - الجزء الأول - في بلاد العرب - الرياض ١٩٨٠ ص (١١٣ - ١٨٣).

ولكن ثياب الآلهة أبهى من ثياب الأمراء، ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار، وللآلهة أسر وأسلحة، وصراعها كصراع الناس، ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول، ومع ذلك فقد ميّز القوم آلهتهم عن البشر بالخلود، وبأنهم كانوا خيرين دائماً، ولم يكن الشر من عملهم، بل من أرواح خبيثة تفوق البشر، ولكنها دون الآلهة.

وكان الثالون الأعظم بين معبودات بلاد النهرين يتكون من: آنو وإنليل وإيا.

(١) **آنو**: ـ اعتبر القوم منذ أقدم العصور معبودهم «آنو» (وأصله من السومرية آن) بمثابة الإله الأعظم، وكان دائماً يتصدر قوائم الآلهة، ويلقب خاصة بملك السماوات، إلى جانب لقبيه إله السماوات وأبي السماوات، وعرشه في قمة قبة السماء، وله السلطة العليا، يخضع له آلهة السماء وآلهة الأرض معاً، وهو الذي يخّول لملوك الأرض السلطة التي يحكمون بها، ونظيره «زيوس» لدى اليونان، وامرأته هي الإلهة «أنتم»، واسمها مأخوذ من اسمه، بزيادة تاء التأنيث.

وكانت مدينة «أوروك» (وهي أونوك في السومرية، وإرك في التوراة، والوركاء في الوقت الحاضر) هي المركز الرئيسي في العصور القديمة لعبادتهما، وعندما انتقل مركز الثقل السياسي من سومر إلى بابل، أصبح «مردوك» إله بابل، سيد الآلهة، وبالتالي فقد حل محل «آنو»، ومع ذلك فقد أطلق الملك البابلي الشهير «حمورابي» (١٧٢٨ ـ ١٦٨٦ ق. م) على «آنو» لقب الإله العظيم في استهلال قانونه.

هذا وتشير أساطير القوم إلى أن «آنو» إنما كان يسكن قمة قبة السماء (سماء آنو)، وكان يحرس بوابته معبودان هما: تموز وجيزيدا، وكان يوضع أمامه: الصولج والعصا والتاج وعصا القيادة، قبل نشوء الملكية على وجه الأرض، وحين كان الآلهة في خوف من الطوفان هربوا وصعدوا إلى سماء

آنو، وجثوا، كما يفعل الكلب على الحائط، ورقدوا هناك حتى اشتموا الرائحة الجميلة للضحية.

(٢) **إنليل**: ـ وهو أكبر معبودات السومريين (ومعنى اسمه المركب «إن ـ ليل» سيد الريح) ولما كانت الريح تهب، في اعتقادهم، من الجبل، فقد سمي «الجبل الكبير»، ولما كان رمز الجبل في السومرية هو رمز بلد في الأكدية، فقد لقب إنليل أيضاً بسيد البلاد، وهو لقب حملة من أقدم النصوص السومرية، واحتفظ به من نقوش بابل وآشور التاريخية والدينية، وهكذا صار إله الجبل إله الأرض.

ومن ثم فقد فرض إنليل قانونه على سكان الأرض، وهو قانون، فيما يزعم القوم، مكتوب في ألواح القدر، كما أن إنليل لم يكن يكتف بتحديد مصائر الناس، وإنما كان أيضاً يشرف بنفسه على تنفيذ أحكامه، وهو أيضاً محارب عنيف يلقب بالثور الوحشي، وهو مستشار الآلهة، كما أنه هو الذي أحدث الطوفان.

وكانت زوجته «ننليل»، واسمها مأخوذ من اسمه، وذلك بوضع (nin) سيدة، موضع (En) سيد، وكانت مدينته «نيبور»، وهي «نفر» الآن (سوم ـ نيبرو) في بلاد بابل، مركز عبادتهما.

(٣) **إنكي**: ـ كان إنكي هو اسم ثالث إله من الثالوث، وهو نفسه الإله السامي «إيا» بمعنى «بيت الماء» وإنكي في السومرية بمعنى «سيد الأرض»، حيث كان القوم يعتقدون، فيما تروى أساطيرهم، أن هناك ثلاث أرضين، الأرض العليا حيث يحكم إنليل، والأرض السفلى حيث يهيمن المعبود «نرجل»، والأرض الوسطى التي تقع بين سطح الأرض والأرض السفلى، وهي مملكة «إنكي» أو «إيا»، وهو يلقب في النصوص القديمة بملك «إبسو» أي ملك المياه العذبة، فقد كان السومريون والأكديون يعتقدون أنه يوجد تحت أرضنا، عند مشارف الأرض الوسطى، سطح كبير من المياه العذبة

تطفو عليه أرضنا، وهو الحوض الذي تتدفق منه منابع الجداول والأنهار.

وكان «إيا» (انكي) هو إله السحر والمعّوذ بين الآلهة، ولا غرو فالماء كان يستعمل في التطهير والقضاء والتنبؤ، وكان ماء «إبسو» المقدس في معبد مدينة «أريدو» (أبو شهرين الحالين على مبعدة سبعة أميال جنوب غرب مدينة أور) يستخدم كثيراً في طقوس السحر للشفاء أو الوقاية من الأمراض.

وكان «إيا» كذلك إلهاً للحكمة، خلق الإنسان من كتلة من الطين (الطمي)، ثم نفخ فيها نسمة الحياة، وهو الذي أنقذ البشر من الفناء في زمن الطوفان ؟) وعلمهم مختلف الصناعات، ومنح الذكاء للملوك، وهو الذي أقام عبادة الآلهة على الأرض.

وكانت زوجته «ننكي»، ومعنى اسمها في السومرية «سيدة الأرض»، وقد سميت فيما بعد «دمكينا»، وكانت مدينة «أريدو» المركز الرئيسي لعبادتهما.

هذا وقد عرف القوم كذلك عبادة الكواكب، ومن ثم فقد كان هناك ثالوث آخر من أجرام سماوية هي: الشمس والقمر وكوكب الزهرة[1] (نجم الصباح)، وكان إله القمر يعدّ أقدم آلهة هذا الثالوث، ويعتبر أباً لإله الشمس وكوكب الزهرة، وعلى هذا كان إله الشمس أخاً للزهرة، وكانت الزهرة أختاً

(١) سادت جنوب بلاد العرب عبادة ثالوث من الكواكب هي القمر والشمس والزهرة، ويمثل القمر في هذا الثالوث دور الأب، كما تمثل الشمس دور الأم، بينما تمثل الزهرة دور الابن، وربما كان العرب الجنوبيون متأثرين في هذا الثالوث ببلاد النهرين، حيث يحتل هذا الثالوث فيها مكانة ممتازة، وإن كنت أميل إلى أن عبادة التثليث هذه كانت أمراً مشاعاً بين سكان المنطقة العربية كلها، ومن ثم فقد رأيناه في بلاد الرافدين وسورية وفينيقيا، وإلى حد ما في مصر، بل إن الرمز الذي اتخذه أهل بابل وآشور وسورية وآسيا الصغرى، لإله الشمس، وهو قرص ذو جناحين، إنما هو رمز الشمس في مصر، ومع ذلك فربما كان تأثير بلاد الرافدين الديني على جنوب بلاد العرب، أكبر من تأثير غيرهم من الساميين (محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ص ١٩).

له ، وإله الشمس ذكر كأبيه إله القمر ، أما كوكب الزهرة (عشتر) ، وهي تارة نجمة الصباح ، وتارة نجمة المساء ، فقد كان يكتنفها الغموض ، فكانت تارة ذكراً ، وتارة أنثى ، ولكن غلب الجانب الأنثوي ، وقضى على التعارض بين الذكورة والأنوثة بأن اتحدت في شخصها إلهة الحرب (جانب الذكورة) وإلهة الحب (جانب الأنوثة) .

(١) **إله القمر**: - يأتي إله القمر عند القوم ، في المرتبة التي تلي «إنكي» (إيا) ، وقد أطلق السومريون والأكديون عليه اسم «سين» وهو اسم سومري نقله الأكديون عن السومريين ، ونظائره السامية هي «ود» لدى عرب الجنوب(١) ، و «سهر» لدى الأراميين ، و «رخ» أو «يرخ» لدى الأموريين ،

---

(١) اعتبر عرب الجنوب القمر أبا في الثالوث الكوكبي ، ومن ثم فقد صارت له منزلة خاصة عندهم ، فهو المقدم على غيره ، وهو كبير الآلهة ، وهو الذي ينفرد بالكثرة المطلقة من الأسماء ، والألقاب في الأساطير والطقوس وأسماء الأعلام وغيرها ، وهكذا أصبح الإله القمر مهيمناً على سائر مناحي الحياة ، هيمنة أشبه ما تكون بهيمنة الشمس في الديانات السامية الشمالية ، حتى قيل إن الديانة العربية الجنوبية ديانة قمرية ، وذلك بسبب العوامل الجغرافية والمناخية ، حتى أصبحنا نرى في العربية «القمران» كتعبير يدل على الشمس والقمر.

هذا ويعرف الإله القمر بالإله «ود» عدن المعنيين ، و «المقة» عند السبئيين ، و «عمّ» في قتبان ، و «سين» في حضرموت ، فأما «ود» فهو في طليعة الآلهة المدونة في نصوص المسند ، وهو إله «معين» الكبير ، فضلاً عن قبائل عربية أخرى ، كثمود ولحيان ، كما كان من الأصنام الكبرى في الحجاز عند ظهور الإسلام ، وقد حكى القرآن الكريم عنه بأنه إله جاهلي قديم ، وجد قبل زمن الطوفان ، وقد عبده قوم نبي الله نوح عليه السلام ، كما كان المعبود القومي لدويلة أوسان ، وكان معبده الرئيسي في وادي نعمان .

وأما «المقه» إله سبأ الكبير ، ويتكون اسمه من «إل» ، وهو إسم الإله «إيل» الشهير عند الساميين ، ومن «مقهو» بمعنى قوي ، ومن ثم يصبح معنى الإسم «إيل قوي» بمعنى «الله قوي» وقد اتخذ القوم الثور رمزاً للإله «المقه» ، وهو من الرموز الدالة على الإله القمر عند الساميين القدامى .

وأما الإسم «عم» فهو من الأسماء السامية الواسعة الانتشار ، والتي كانت من أوصاف الآلهة ، ثم صارت علماً على إله قتبان ، وأما «سين» إله حضر موت ، فهو اسم سومري ، وليس سامياً ، نقله الأكديون عن السومريين ، ويبدو أن الآلهة القمرية كانت أكثر من ذلك ، =

ولإله القمر عند السومريين اسم آخر هو «ننا» بمعنى رجل السماء، وقد حرفه الأكديون الساميون إلى «نتر» بمعنى المنير، ويرمز إليه في كثير من الأحيان بالهلال، وبجانبه قرص الشمس، رمزاً لإله الشمس، ونجمة في وسط دائرة، رمزاً لكوكب الزهرة.

والإله «سين» هو سيد الشهر، ينظم أيام الشهر والسنة، ومن ثم فهو الذي يقيس الزمن، وهو الذي ينهي الأيام والشهور والسنين للملوك المذنبين بالدموع والتأوهات، وكان رمزه الهلال، هذا وكانت لحركات القمر دور هام في التنبؤ، وكان خسوف القمر أهول الظواهر وأشدها روعاً، وكان ينسب إلى هجوم محل الإله (سين» من سبع أرواح شريرة في السماء، وكانت صورة الكارثة تختلف حسب الشهر الذي يقع فيه الخسوف فكانت ترسل الدعوات إلى الإله، وتقدم إليه القرابين، وأخيراً يولد من جديد أشد بهاء من ذي قبل منتصراً على الظلمات والموت، وذلك عن طريق القوس التي يدافع بها عن نفسه ضد القوى التي تعترض مجراه، أو تحاول حجب نوره.

وكانت زوجته «ننجل» بمعنى السيدة الكبيرة، وإلى هذا الإسم يرجع الإسم «نكل» الذي يطلقه عليها كل من الأراميين وأهل أوجاريت (تل شمرا)، وقد أنجبا الإله شمس والإلهة عشتر، ويعتبر «نسكو» إله النار، في بعض الأحيان، ابناً لهما.

وكانت مدينة «أور» (تل المقير، على مبعدة ١٢٠ ميلاً شمال مدينة البصرة) مركز عبادة «سين» وزوجته «ننجل» وولدهما «نسكو» (سدرننا)، ثم

= فهناك في النقوش العربية الجنوبية «ورخن»، والظاهر أنه كان يدل على الهلال، فقد استعملت في اللغات السامية كلها تقريباً ألفاظ مشابهة لهذه اللفظة لمعايير متصلة بالهلال، منها «يرخ» بالعبرية، و «يرخا» بالسريانية والأرامية، و «أرخو» بالآشورية، و «أرخ» بالبابلية، و «رخ» بالعربية اليمنية وبالحبشية، وكلها بمعاني الهلال والقمر والشهر، ومنها جاء الفعل «أرخ» من العربية الفصحى، أي حسب الأيام والشهور على دورة القمر، والإسم «التاريخ» وأخيراً، فهناك من يرى أن اسم «سيناء لا بد وأن يكون له علاقة بإله القمر «سين».

انتقلت عبادتهم جميعاً إلى الشمال في «حران» (حاران، وتقع على نهر بلخ، على مبعدة ٦٠ ميلاً من اتصاله بالفرات)، وقد انتشرت عبادة القمر من أور إلى كل أرجاء بابل، ومن «حران» إلى كل من سورية وفينيقيا، وكان البدو الأراميون والعرب يعبدون إله القمر، ولا يستبعد أن يكون لاسم «شبه جزيرة سيناء» علاقة بإله القمر «سين».

(٢) **إله الشمس**: - يأتي إله الشمس (شمش) في المرتبة الثانية بعد أبيه إله القمر، وكان السومريون يسمونه «أوتو» ويسمون الشمس «ببر» وهي تشرق، أما الساميون فقد أطلقوا على الإله الأكدي اسم الشمس نفسها (شمش) وكان العبرانيون والأراميون ينطقون «شمش»، والعرب «شمس»[١]، وأهل أوجاريت «شبش، وكان عرب الجنوب والأوجاريتيون يعتبرونها إلهة مؤنثة، بينما كان السومريون والأكديون يعتبرونها إلهاً ذكراً، وكان الحيثيون يميزون بين إمله للشمس، وإلهة للشمس يسمونها «أرنا».

وكان يرمز لإله الشمس في بابل وآشور وسورية وآسيا الصغرى بقرص ذي جناحين، أي بصورة الشمس في مصر، ومن ألقابه في بلاد الرافدين «نور العالم»، هذا وكان إله الشمس، في نظر القوم، هو القاضي الأعظم الذي أملى قوانين العدالة على الملوك، وكانت مدينة «لارسا» في سومر،

(١) عبدت الشمس في قتبان وحضر موت وسبأ تحت اسم شمس، وغالباً ما كانت أسماء الشمس في بلاد العرب الجنوبية تبدأ ب «ذات»، وكانت إلهة الشمس تسمى عند المعينيين «نكرح»، وربما بمعنى «ذات حميم»، كما كانت تسمى عند السبئيين «ذات غضرن» و «ذات حميم»، بمعنى ذات حرارة في الغالب، وهذا المعنى قريب من «آل حمون» و «بعل حمون» في العبرية، وإن فسر البعض «ذات حميم» بمعنى ذات الحمى، والحمى الموضع الذي يحمى، ويخصص للإله أو المعبد أو الملك أو سيد القبيلة، فيكون حرماً آمناً لا يجوز لأحد انتهاكه أو التعدي عليه، وأما في النقوش القتبانية فهي «ذات صهرن» «ذات رحبن»، فضلا عن اسم آخر للشمس ذكرته الكتابات القتبانية، وأعني «إ ث ر ت»، وهو بعينه اللفظ العبراني «أشرت»، ويرجح «هومل»، ويؤيده نقش جلازر رقم ١٦٠٠، أن هذا الإسم القتباني إنما يشير عادة إلى آلهة الشمس، وإلى زوج الإله «ود».

ومدينة «سبر» من أكبر، مركزين لعبادة شمش منذ أقدم الأزمان، وأما زوجته فهي «أيا».

(٣) **الإلهة الزهرة**: ـ كانت الإلهة الزهرة (عشتر = عشتار) أهم إلهة في سومر وأكبر، وكان السومريون يسمونها «أنينا» بمعنى سيدة السماء، و «عشتر» هو الإسم الأكدي السامي، ونظيره «عشتار» لدى الفينيقيين والعبريين، إلهة أنثى، و «عنتر» لدى العرب الجنوبيين إله ذكر[1]، وهي تأتي في المرتبة بعد «سين» أبيها، و «شمش» أخيها مباشرة، وهي أخت «أرشكيجل» إلهة العالم السفلى.

وكان يرمز إليها بنجمة ذات ثمانية أشعة أو ستة عشر شعاعاً، منقوشة داخل دائرة، وهي التي ترشد النجوم إلى طريقها، وهي نجمة الصباح تارة، والمساء تارة، وهي إلهة الحب واللذة حين تكون إلهة المساء، ترفع إلى عرش الملك من تهواه من البشر، وقد مجدها الآشوريون كإلهة محاربة، سلاحها المفضل هو القوس، وحيوانها الأثير هو الأسد، نراها واقفة على ظهره في أغلب الصور التي تمثلها، وقد انتشرت عبادتها في سومر وأكد، ثم انتقلت من أكد إلى أشور، ثم امتدت غرباً وشمالاً وشرقاً مع جيوش آشور الفاتحة.

هذا، وإلى جانب هذه المعبودات الوثنية، كانت كل قوى الطبيعة، وكل قوى الخير، تؤله عند السومريين والبابليين، كما كان لكل مدينة معبودات، حتى أصبح عدد المعبودات كثيراً جداً، غير أن أهمها جميعاً، إنما كان مردوك وآشور.

---

(١) كان الإله العربي «عشتر» ذكراً، بينما كانت نظائره في جميع الأديان السامية الأخرى مؤنثة، وهكذا رأينا الشعر العربي يذكر الزهرة مذكرة، وحتى عند العرب الذين عرفهم «نيلوس» كان هذا النجم مذكراً، ولما كانت العادة أن يقدم القربان من جنس المقرب إليه، إن كان ذكراً فذكر، وإن كان أنثى فأنثى، وحيث نظر للقمر كشيخ كان قربانه رجلاً هرماً ما ممتلىء الوجه، وأما هنا فكان ينظر إلى الزهرة كطفل صغير يتفق ومكانته بين العائلة المقدسة، كابن لإله القمر، وأمه إلهة الشمس.

(١) **مردوك** : ـ بلغ هذا المعبود الوثني من الشهرة مبلغاً ربما بم يبلغه إله وثني آخر من تاريخ الشرق الأدنى القديم ، وقد ارتبط مصيره بمصير مدينة بابل ، والتي كان لها شأن عظيم في التاريخ القديم ، سياسياً وعسكرياً ودينياً وإجتماعياً ، ويدل على هذه الصلة الوثيقة بين مردوك وبابل قول إرميا ، النبي العبراني ، «قولوا أخذت بابل ، خزي بيل ، تضعضع مردوخ» وذلك عند سقوط بابل عام ٥٣٩ ق . م .

وكان مردوك ، في نظر القوم ، هو ابن انكى البكر ، ومن ثم فقد ورث عنه العلم والسحر ، وصار مثله المعوذين الآلهة ، وكان الساحر عندما يمارس مهنته إنما يعمب باسم مردوك ، كما يعمل باسم أبيه «أيا» ، وفي الأمور المستعصية كان مردوك يلجأ إلى أبيه انكى طلباً للمعونة ، وكما كان «أيا» إله الحكمة ، كان مردوك أحكم الحكماء ، والخبير بين الآلهة .

هذا ، وكما تبيّن لنا مقدمة قانون حمورابي المكانة العليا التي وصل إليها مردوك في الإمبراطورية البابلية ، تبين لنا قصيدة الخلق البابلية مكانته السامية أيضاً ، حيث أسبغت عليه خمسين إسماً أو لقباً ، مما جعل «دورم» يزعم أنه في نسبة هذه الأوصاف جميعاً إلى إله واحد ، اتجاهاً إلى التوحيد ، وهو يجد هذا الاتجاه أيضاً في عصر الدولة الكلدانية ، إذا صارت الآلهة المختلفة مجرد جوانب من شخص مردوك .

وكانت «صبريانيتم» بمعنى الفضية أو اللامعة كالفضة ، زوجة لمردوك ، وكان الاثنان يبجلان حينما تعلو مكانة بابل ، وعندما فتح ملوك آشور أرض بابل أبدوا ولاءهم لآلهتها ، وهي في مقدمتها مردوخ وزوجه ، وكذا في أيام الكلدانيين والفرس ، بل ظلا موضع الاجلال بعد ذلك أيام السلوقيين ، سواء في الحياة الخاصة أو الاحتفالات الرحية .

(٢) **آشور** : ـ وهو الإله القومي للآشوريين ، وكبير آلهتهم الوثنية ،

وكانوا ينطقون اسمه «أسور» (بسين مشددة) وقد حل في قصيدة الخلق الآشوري محل مردوك، كما حل مردوك لدى البابليين محل أنليل إله السومريين من قبل، مما يشير إلى أن الدين كان عوناً للسياسة، وصدى لمصالح المدن والشهوب والملوك.

وكان معبد الإله الوثني آشور، وتقع على الضفة الغربية لنهر الدجلة، على مبعدة ٤٠ ميلاً، جنوب الزاب الأعلى، وكان معبده يسمى «اشرا»، ويقيم فيه مع زوجه «ننليل» (ملكة اشرا)، والتي كانت في الأصل زوجاً لإنليل، فجعلها الآشوريون زوجاً لإلههم آشور كذلك، وكان لآشور معبد آخر خارج المدينة يسمى «أكستو».

وقد أطلق القوم على إلههم لقب «الجبل الكبير»، وهو، فيما يزعم القوم، خالق الآلهة ومنجبها وسيدها وملكها، ومنه يستمد الملوك الصولجان والتاج والعرش، وهو ملك الآلهة، وهو يرأس في معبده مجتمع الآلهة التي تقرر أقدار البشر، وهو الذي يأمر بخروج ملوك آشور إلى الحرب، ويكتب لهم النصر، وإليه يساق المغلوبون من أعدائهم خاضعين، ويؤتى بتماثيل آلهتهم إلى معبده[1].

---

(١) انظر عن هذا الفصل (محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة ـ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٩ ـ ٢٨، ول ديورانت قصة الحضارة ـ الجزء الثاني ـ ترجمة محمد بدران ـ القاهرة ١٩٦١ ص ٢١١ ـ ٢٢٥، سبنيتو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ـ ترجمه وزاد عليه يعقوب بكر ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٧٣ ـ ٧٦، ٢٥٢ ـ ٢٦٥، ل. ديلابورت: بلاد ما بين النهرين: ترجمه محرم كمال ـ القاهرة ص ١٦٥ ـ ١٧٥، ليو أوينهام: بلاد ما بين النهرين ـ ترجمه سعدي فيضي ـ بغداد ١٩٨١، محمد أبو المحاسن عصفور: معالم حضارات الشرق القديم ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٢١٦ ـ ٢٢٣، وكذا P. Dhorme Langues et ecritures Semitiques, Paris, 1930, P. 22-67, 86-102. وكذا W. R. Smith, Lectures on the Religion of the Semites, London, 1927, P. 56-59. وكذا A. Heidel, The Balylonian Genesis, Chicago, 1951, P. 60 F. وكذا J. Gray Near Eastern Mythology, London, 1969, P. 17-51. وكذا J. Hastings, ERE, I, P. 882 F.

الفصل الثاني

دعوة إبراهيم عليه السلام

أشرنا آنفاً إلى أن قوم إبراهيم إنما كانوا يمارسون عبادة الأصنام، فضلاً عن عبادة الكواكب، ومن ثم فمن الأفضل هنا أن نناقش موقف أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام من ممارسات قومه الوثنية في شتين، الواحد: موقف إبراهيم من عبادة الكواكب، والثاني: موقفه من عبادة الأصنام.

(١) **موقف إبراهيم من عبادة الكواكب**: ـ قدم لنا القرآن الكريم تلك المناظرة التي دارت بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه من عبدة الكواكب في الآيات الكريمة من سورة الأنعام، يقول عز من قال: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، وحاجه قومه قال اتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وتلك

حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم﴾[1].

والآيات الكريمة تفيد أن إبراهيم، صلوات الله وسلامه عليه، تطلع إلى السماء فرأى كوكباً يعبده القوم (ولعله كوكب الزهرة) فيما يعبدون، فقال: «هذا ربي، ثم اصطبر قليلاً حتى أفل الكوكب، فقال: لا أحب الآفلين»، أي أنه لا يحب الآلهة المتغيرة المتحولة التي لا تبقى في مكان واحد، ولا تستقر على حال.

ثم تطلع بعد ذلك إلى السماء، فرأى القمر ساطعاً يأخذ نوره بالأبصار، فقال: هذا ربي، لكنه لم يلبث إلا يسيراً، ثم أفل واحتجب نوره، فقال إبراهيم: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين.

ثم رأى الشمس في كبد السماء بعد ذلك، يعم نورها الأرجاء، تملأ أشعتها الكون دفئاً وضياء، ثم ما لبث أن رآها تأفل، كما أفل الكوكب، وكما أفل القمر، من قبل، فقال: يا قوم إني بريء مما تشركون[2].

هذا وقد اختلف المفسرون من وقت هذه الرؤية؟ وفي وقت هذا القول من عمر إبراهيم عليه السلام؟ وهل كان ذلك في مقام النظر والاستدلال لنفسه؟ أم كان في مقام المناظرة والحجاج لقومه؟.

وهكذا ذهب فريق إلى أن ذلك الوقت اعتبار، ولا يترتب عليه حكم، لأن الأحكام إنما تثبت بعد البلوغ.

---

(١) سورة الأنعام: آية ٧٥ - ٨٣، وانظر: تفسير الطبري ١١/ ٤٧٠ - ٥٠٦، في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٥ - ١١٤٣، تفسير النسفي ٢/ ١٩ - ٢١، تفسير الجلالين ص ١٧٤ - ١٧٦، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٠ - ٢٤٧، صفوة التفاسير ١/ ٤٠١ - ٤٠٣، تفسير البحر المحيط ٤/ ١٦٥ - ١٦٩، تفسير الكشاف ٢/ ٣٠ - ٣٣، تفسير القرطبي ص ٢٤٥٩ - ٢٤٦٧، تفسير المنار ٧/ ٤٤٤ - ٤٨٦.

(٢) محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليل - القاهرة ١٩٤٧ ص ٣٩.

وقد اعتمد أصحاب هذا الاتجاه على ما روي في التفسير بالمأثور من عبادته، عليه السلام، لهذه الكواكب في صغره اتباعاً لقومه، حتى أراه الله تعالى بعد كمال التمييز حجته على بطلان عبادتها، والاستدلال بأفولها وتعددها وغير ذلك من صفاتها على توحيد خالقها، وأن ذلك كله كان قبل النبوة ودعوتها، ومنه قصة طويلة مروية عن محمد بن إسحاق فيها أن إبراهيم عليه السلام، ولدته أمه في مغارة أخفته فيها خوفاً عليه من ملكهم «نمرود بن كنعان» أن يقتله، إذ كان قد أخبره المنجمون بأنه سيولد في قريته غلام يفارق دينهم، ويكسر أصنامهم فشرع يذبح كل غلام ولد في الشهر الذي وصف أصحاب النجوم من السنة التي عينوا، وفيها أن إبراهيم كان يشب في اليوم، كما يشب غيره في شهر، وفي الشهر كما يشب غيره في سنة، وأنه طلب من أمه بعد خمسة عشر يوماً من ولادته، أن تخرجه من المغارة، فأخرجته فنظر وتفكر في خلق السماوات والأرض، وذكر رؤيته للكواكب فالقمر فالشمس[1].

وكان الله تعالى قد خصّه بالعقل الكامل والنظرة السليمة، ومن ثم فقد تفكر في نفسه وقال: لا بد لهذا الخلق من خالق، وهو إله الخلق، ثم نظر حال تفكره، فرأى الكوكب وقد ازدهر فقال: هذا ربي على ما سبق إلى وهمه، وذلك في حالة طفولته، وقبل استحكام النظر في معرفة الرب سبحانه وتعالى، وقد استدل أصحاب هذا القول على صحته بقوله: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين، وهذا يدل على نوع من التحيّر، وذلك لا يكون إلا في حالة الصغر، وقبل البلوغ وقيام الحجة[2].

---

(١) تفسير المنار ١١/ ٤٦٤، وانظر: تفسير النسفي ٢/ ٢٠، تفسير الطبري ١١/ ٤٨١ - ٤٨٢، تفسير القرطبي ص ٢٤٦، محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ح -١ - ص ١١٦ - ١١٧، إسرائيل حـ ١ - ص ٢٨٠.

(٢) محمد حسني: المرجع السابق ص ٤٠.

وليس هناك إلى سبيل من شك في أن هذا القول غير صحيح تماماً، لأسباب كثيرة، منها أن رواية ابن إسحاق وأمثالها، إنما هي موضوعة لهذه المسألة، وقد أخذها ابن إسحاق عن بعض اليهود الذي كانوا يلقنون المسلمين أمثال هذه القصص، ليلبسوا عليهم دينهم، فتبطل ثقة يهود وغيرهم[1]، ومنها أن الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، معصومون في كل حال من الأحوال، ولا يجوز أن يكون لله عز وجل رسول يأت عليه وقت من الأوقات، إلا وهو بالله عارف، وله موحد، ومن كل منقصة منزه، ومن كل معبود سواه، سبحانه وتعالى، بريء، وإن هذا القول لينقصنه تماماً كون الله تعالى قد أتى إبراهيم رشده من قبل، وأطلعه على أسرار الكون، وملكوت السماوات والأرض، قال تعالى: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾**[3].

وقال أبو حيان في بحره المحيط: لما أوضح لهم أن الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً، ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ، فرأى القمر أول طلوعه، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ، وأكبر جرماً، وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم، وبيّن أنها مساوية للنجم من صفة الحدوث[4]، وروى ابن جريج عن القاسم عن إبراهيم النخعي قال: فرجت له السماوات السبع فنظر إليهن حتى انتهى إلى العرش، وفرجت له الأرضون فنظر إليهن، ورأى مكانه في الجنة، فذلك قوله تعالى: **﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾**[5].

(١) تفسير المنار ١١/ ٤٦٤.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٥١.

(٣) سورة الأنعام: آية ٧٥.

(٤) تفسير البحر المحيط ٤/ ١٦٧.

(٥) تفسير القرطبي ص ٢٤٥٩ - ٢٤٦٠.

وهكذا استحق إبراهيم عليه السلام، بصفاء فطرته وخلوصها للحق، أن يكشف الله لبصيرته عن الأسرار الكامنة في الكون، والدلائل الموحية بالهدى في الوجود، قال تعالى: ﴿**وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين**﴾، وبمثل هذه الفطرة السليمة، وهذه البصيرة المفتوحة، وعلى هذا النحو من الخلوص للحق، ومن إنكار الباطل في قوة، نرى إبراهيم حقيقة هذا الملك، ملك السماوات والأرض، ونطلعه على الأسرار المكنونة في صميم الكون، ونكشف له عن الآيات المبثوثة في صحائف الوجود، ونصل بين قلبه وفطرته وموحيات الإيمان ودلائل الهدى في هذا الكون العجيب، لينتقل من درجة الإنكار على عبادة الآلهة الزائفة، إلى درجة اليقين الواعي بالإله الحق[٨].

وبديهي أن من يكن هذا مقامه، لا يعقل بحال من الأحوال، أن يرى الكوكب فيقول: هذا ربي، عن عقيدة، فإبراهيم الخليل لأرشد من أن يعتقد ذلك، قال الزجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: «واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام»، وقال عز وجل: ﴿**بقلب سليم**﴾ أي لم يشرك قط، قال: والجواب عندي أنه قال «هذا ربي» على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**أين شركائي**﴾، وهو جلا وعلا واحد لا شريك له، والمعنى: أين شركائي على قولكم[٢].

ومن العجيب، كما يقول صاحب تفسير المنار، أن ابن جرير اختار هذا القول، مع تقريره القول المقابل له على أحسن وجه، وهو الذي جزم به الجمهور، من أنه كان مناظراً لقومه ، وقد احتج ابن جرير أولاً بالرواية،

(١) في ظلال القرآن ٢/ ١١٣٩.

(٢) تفسير القرطبي ص ٢٤٦١.

(٣) قال أبو جعفر في نفسيره (١١/ ٤٨٣ - ٤٨٤): وأنكر من غير أهل الرواية هذا القول الذي =

وهي، كما يقول صاحب تفسير المنار، لا تصلح حجة على دعوى شرك الخليل، عليه الصلاة والسلام، ولو في الصغر، على أنها مطلقة، وثانياً: بالعبارة التي قالها بعد أفول القمر، يعني قوله تعالى: **﴿لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين﴾**[1].

وهناك وجه آخر للنظر، وهو الذي جزم به الجمهور[2]، من أن ذلك كان في مقام المناظرة والحجاج لقومه، وأن هذه الرؤية، وهذا القول إنما كانا بعد بلوغ إبراهيم عليه السلام، وحين شرفه الله بالنبوة، وأكرمه بالرسالة، وقد حدث بين أصحاب هذا الرأي خلاف في تفسير الآية وتأويلها وما تحمل من معان، فذكروا فيها وجوهاً:

الوجه الأول: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أراد أن يستدرج قومه بهذا القول، ويعرفهم جهلهم وخطأهم في تعظيم النجوم وعبادتها، لأنهم

= روي عن ابن عباس وعمن روى عنه، من أن إبراهيم قال للكوكب أو القمر: هذا ربي، وقالوا: غير جائز أن يكون لله نبي ابتعثه بالرسالة، أتى عليه وقت من الأوقات وهو بالغ، إلا هو لله موحد، وبه عارف، ومن كل ما يعبد من دونه بريء، قالوا: ولو جاز أن يكون قد أتى عليه بعض الأوقات وهو به كافر، لم يجز أن يختصه بالرسالة، لأنه لا معنى فيه إلا وفي غيره من أهل الكفر به مثله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه مناسبة، فيحابيه باختصاصه بالكرامة، قالوا: وإنما أكرم من أكرم منهم لفضله في نفسه، فأثابه لاستحقاقه الثواب بما أثابه من الكرامة، وزعموا أن خبر الله عن قيل إبراهيم عند رؤيته الكوكب أو الشمس أو القمر «هذا ربي» لم يكن لجهله بأن ذلك غير جائز أن يكون ربه، وإنما قال ذلك على وجه الإنكار منه أن يكون ذلك ربه، وعلى العيب لقومه في عبادتهم الأصنام، إذ كان الكوكب والقمر والشمس أضوأ وأحسن وأبهج من الأصنام، لوم تكن مع ذلك معبودة، وكانت آفلة زائلة غير دائمة، فالأصنام التي هي دونها في الحسن وأصغر منها في الجسم، أحق أن لا تكون معبودة ولا آلهة، قالوا: وإنما قال ذلك لهم، معارضة.

(١) سورة الأنعام: آية ٧٧، تفسير المنار ٧/ ٤٦٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٢٤٢، تفسير القرطبي ص ٢٤٦١ تفسير الكشاف ٢/ ٣١، تفسير البحر المحيط ٤/ ١٦٧، تفسير الفخر الرازي ١٣/ ٤٧، تفسير المنار ١١/ ٤٦٥.

كانوا يرون أن الأمر كله إليها ، لا إلى الله خالقهم ، فأراهم إبراهيم تعظيمه ما يعظمون ، فلما أفل الكوكب ، وأفل القمر ، وأفل الشمس ، أراهم النقص الداخل على النجوم بسبب الغيبوبة والأفول ، ليثبت خطأ ما كانوا يعتقدون فيها من الألوهية[1] ، ويقول الأستاذ النجار : ويرى فريق من الناس أنها تدرج في تكوين العقيدة ، ذلك أن القوم كانوا يعبدون الأصنام ينحتونها على أسماء الكواكب كالشمس والقمر ونحوهما ، فأراد أن يلزمهم أن الكواكب والشمس والقمر لا تصلح لأن تكون آلهة ، وإنما الإله هو الذي خلقهن وخلق السماوات والأرض ، وبيده ملكوت كل ما فيهما ، وأن التماس الصحة والعافية والرزق من غيره تعالى باطل[2] .

ويقول الإمام ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، كان في هذا المقام مناظراً لقومه ، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه ، وبيّن في المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيّرة ، وهي القمر وعطارد والشمس والمريخ والمشتري وزحل ، وأشدهم إضاءة وأشرفهن عندهم : الشمس ثم القمر ثم الزهرة ، فبيّن أولاً صلوات الله وسلامه عليه ، أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تملك لنفسها تصرفاً ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة ، لماله في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من الشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن

---

(١) محمد حسني : المرجع السابق ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ـ القاهرة ص ٨٠ .

الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال ، ومثل هذه لا تصلح للإلهية ، ثم انتقل إلى القمر فبيّن فيه مثل ما بيّن في النجم ، ثم انتقل إلى الشمس كذلك ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع : «قال : يا قوم إني بريء مما تشركون» أي أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن ، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون «إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» ، أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وخالق كل شيء ، وربه ومليكه وإلهه ، كما قال تعالى : **﴿إن ربكم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾**[1] .

وقال الإمام الزمخشري : كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب ، فأراد أن ينبههم على ضلالهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى ألا يكون شيء منها إلّهاً ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها ، وقوله : «هذا ربي» قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه ، لأن ذلك أدعى إلى الحق ، ثم يكر عليه فيبطله بالحجة[2] ، وقال أبو حيان في بحره : لما أوضح لكم أن هذا الكوكب الذي رآه لا يصلح أن يكون رباً ، ارتقب ما هو أنور منه وأضوأ ، فرأى القمر أول طلوعه ، ثم لما غاب ارتقب الشمس إذ كانت أنور من القمر وأضوأ ، وأكبر

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) تفسير الكشاف ٢/ ٣١ .

جرماً وأعم نفعاً، فقال ذلك على سبيل الاحتجاج عليهم، وبيّن أنها مساوية للنجم في صفة الحدوث[1].

وأما الوجه الثاني: فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال هذا على سبيل الاستفهام الإنكاري والتوبيخ للقوم، وتقديره أهذا ربي الذي تزعمون، وقد جرى العرف على إسقاط حرف الاستفهام، وهو كثير في كلامهم، ومن هذا القبيل، قوله تعالى: ﴿ **أفإن مت فهم الخالدون** ﴾، يعني أفهم الخالدون، والمعنى فيما نحن بصدده، أيكون هذا رباً، ودلائل النقص فيه ظاهرة. ويقول الإمام النسفي: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى شيئاً منها ليس بإله، لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن محدثاً أحدثها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها، فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه قال: «هذا ربي» أي قال لهم: هذا ربي في زعمكم، أو المراد أهذا استهزائهم، وإنكار عليهم، والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت، والصحيح أن هذا قول من ينصف خصمه، مع علمه أنه مبطل، فيحكي قوله، كما هو، غير متعصب لمذهبه لأنه أدعى إلى الحوار، وأنجى من الشعب، ثم يكر عليه بعد حكايته، فيبطله بالحجة، فلما أفل قال: «لا أحب الآفلين» أي لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال، لأن ذلك من صفات الأجسام، «فلما رأى القمر بازغاً قال: هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»، نبه قومه على أن من اتخذ القمر إلهاً، فهو ضال، وإنما احتج عليهم بالأفول دون البزوغ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال، لأن الاحتجاج به أظهر، لأنه انتقال مع

---

(١) تفسير البحر المحيط ٤/ ١٦٧.

خفاء واحتجاب ، فلما رأى الشمس بازغة قال : «هذا ربي» ، وإنما ذكره لأنه أراد الطالع ، أو لأنه جعل المبتدأ مثل الخبر ، لأنهما شيء واحد معني ، وفيه صيانه الرب عن شبهة التأنيث ، ولهذا قالوا : في صفات الله تعالى علام ، ولم يقولوا علامة ، وإن كان الثاني أبلغ ، تفادياً من علامة التأنيث ، «فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون» ، أي من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها[1] .

وأما الوجه الثالث : لو كان إلهاً ، كما تزعمون ، لما غاب ، فهو كقوله تعالى : **﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾** ، يعني عند نفسك وبزعمك ، وقد جرى العرب على إضمار القول ، ومنه قوله تعالى : **﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا﴾** .

وأما الوجه الرابع : أن في هذه الآية إضماراً تقديره : يقولون : هذا ربي ، أي يقولان : ربنا تقبل منا[2] .

على أن هناك أخيراً وجهاً خامساً ، يذهب إلى أن الله سبحانه وتعالى قال في حق إبراهيم : **﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض﴾** ، هذا فضلاً عن تشبيه إراءة الله تعالى إياه هذا الملكوت وما يترتب عليه من إبطال ربوبية الكواكب بإراءته ضلال أبيه وقومه في عبادة الأصنام ، ومن إسناد هذه الإراءة إلى الله تعالى الدال على تمييز ما رأى بها على ما كان يرى قبلها ، ومن تعليل الإراءة بما تقدم ، ومن التعقيب على ذلك بمحاجة قومه ، وقوله تعالى إنه آتاه الحجة عليهم[3] ، كل هذا وغيره ، فضلاً عن منزلة إبراهيم العالية عند الله تعالى ، واتخاذ إياه خليلاً ، وأنه كان أمة قانتا لله

---

(١) تفسير النسفي ٢/ ١٩ - ٢٠ .

(٢) محمدحسني : المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) تفسير المنار ٧/ ٤٦٥

حنيفاً، ثم أمر الله تعالى لأشرف خلقه سيدنا ومولانا وجدنا محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، أن اتبع ملة إبراهيم[1]، كل ذلك وغيره من أوصاف إبراهيم من القرآن الكريم، إنما يؤكد، التأكيد كل التأكيد، أنه من المحال، بحال من الأحوال، أن يعبد إبراهيم الكواكب، ويتخذها رباً، وأما قوله: لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين»، فإن الأنبياء، عليهم السلام لا يسألون الله التثبيت، ومنه قوله: «واجنبني وبنّي أن نعبد الأصنام».

وأخيراً، وكما يقول ابن كثير في تفسيره: كيف يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون﴾**[2]، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة»، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله إني خلقت عبادي حنفاء»، وقال تعالى: **﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله﴾**، وقال تعالى: **﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم، قالوا بلى﴾**، فإذا كان في حق سائر الخلق، فكيف يكون إبراهيم الخليل الذي جعله الله أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين، ناظراً في هذا المقام، بل هو أولى الناس بالفطرة السليمة، والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ، بلا شك ولا ريب، ومما يؤيده أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك، لا ناظراً، قوله تعالى: **﴿وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به، إلا أن يشاء ربي شيئاً، وسع ربي ربي كل**

---

(١) انظر: سورة النساء: آية ١٢٥، الأنعام: آية ١٦١، هود: آية ٧٥: النحل: آية ١٢٠، ١٢٣، الأنبياء: آية: ٥١، الممتحنة: آية ٤.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٥١ ـ ٥٢، وانظر: العمران: آية ٩٥، النساء: آية ٩٥، النساء: آية ١٢٥، الأنعام: آية ١٦١، النحل: آية ١٢٠ ـ ١٢٣.

شيء علماً أفلا تذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه، نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم﴾[1] .

وهكذا يختم القرآن الكريم هذا الفصل من قصة إبراهيم مع قومه ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ يعني ما جرى بين إبراهيم وقومه، واستدل به على حدوث الكواكب والشمس والقمر بالأفول، وكانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله تعالى إبراهيم ليدحض بها حجتهم التي جاءوا بها يجادلونه، ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه، وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله، ولا أنه صاحب القوة والسلطان في الكون، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة، فلما واجههم إبراهيم بأن من كان يخلص نفسه لله، لا يخاف من دونه، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة، لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها، سقطت حجتهم، وعلت حجته، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ومنزلة، وهكذا يرفع الله من يشاء درجات، متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه ﴿إن ربك حكيم عليم﴾[2] .

وهكذا يبدو واضحاً من هذه المناظرة التي دارت بين إبراهيم وقومه، أن الأنبياء، عليهم السلام، قد عمدوا إلى طرق خاصة في الإقناع، وأن أبي الأنبياء، عليه السلام، قد عمد إلى طريقة تدل على صفاء ذهنه، وسرعة بديهته، وهي طريقة المجاراة والتظاهر بالتصديق، ليصل إلى غايته، وهي إظهار فساد تلك العبادات، وكاشفة عابديها بأن آلهتهم غير جديرة بالعبادة أو

(١) سورة الأنعام: آية ٨٠ - ٨٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٣ - ٢٤٤ (بيروت ١٩٨٦).

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ١١٤٢.

التقديس، لأنها آلهة زائفة يقوم دليل الحدوث فيها، ذلك بأن لها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها[1] .

(٢) **موقف إبراهيم من عبادة الأصنام** : ـ كان قوم إبراهيم، كما أشرنا من قبل، يعبدون الأصنام، كما كانوا يعبدون الكواكب والنجوم، ومن ثم فقد أرسله الله تعالى إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده، قال تعالى: **﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون، وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين، أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده أن ذلك على الله يسير، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإليه تقلبون، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء، ومالكم من دون الله من ولي ولا من نصير، والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو احرقوه، فأنجاه الله من النار، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون، وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً، ومأواكم النار وما لكم من ناصرين، فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم، ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب، وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾**[2] .

---

(١) محمد حسني: المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) سورة العنكبوت: آية ١٦ ـ ٢٧، وانظر: تفسير النسفي ٣/ ٢٥٢ ـ ٢٥٦، تفسير القرطبي ص ٥٠٥١ ـ ٥٠٥٦، صفوة التفاسير ٢/ ٤٥٥ ـ ٤٥٨، في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٢٦ ـ ٢٧٣٣، تفسير ابن كثير ٣/ ٦٤٩ ـ ٦٥٦ (وانظر: عن موقف إبراهيم من عبادة الأصنام: سورة =

وهكذا تشير هذه الآيات الكريمة بوضوح إلى دعوة أبي الأنبياء، سيدنا إبراهيم ﷺ مرسومة الخطوط واضحة المعالم، بشر فيها وأنذر، غير أن القوم قد تملكهم الغرور، وركبوا رؤوسهم، وقد عزّ عليهم أن يرجعوا إلى الحق أو يثوبوا إلى الرشد، وهم يحسبون أن آلهتهم تنجيهم من عذاب أليم ينتظرهم، ولم تكن تلك الآلهة التي أصموا آذانهم عن كلمة الحق فيها، غير نصب وأوثان من خشب وحجارة لا تنفع ولا تضر، لكنهم كانوا يعظمونها ويقدسونها، ويقدمون لها القرابين، ويركعون أمامها ويسجدون، ومن ثم فقد أعدوا عدتهم لمقاومة دعوة إبراهيم، حفاظاً على أوثانهم وأصنامهم.

وهنا لعل من الأفضل هنا أن نناقش موقف إبراهيم عليه السلام منهم ومن أوثانهم، وكذا موقفهم منه، عليه السلام، في شقين، الأول مع أبيه، والآخر مع قومه:

(أ) **بين إبراهيم وأبيه**: ـ كان والد إبراهيم في طليعة عابدي الأصنام وصانعيها من الأخشاب، والداعين لها، وكان يعرضها على الناس ليشتريها منه من يرغب فيها، وقد عزّ على إبراهيم أن يكون والده[1] زعيماً من زعماء المشركين، وإماماً من أئمة الإفك المبين، وهو أقرب قومه إليه، وأولى الناس بتصديق دعوته، والإيمان برسالته، فرأى إبراهيم عليه السلام من واجبه أن يبصر والده بأمره، ويحذره عاقبة كفره بما فيه الخير له، برأيه، وحرصاً على أن يكون مسلكه سليماً، فيتبع الدين القويم والطريق المستقيم، وقرر أن تكون مفاتحته والده في الأمر بالحسنى، إذ ما كان له أن يرشده إلى الحق بغيرها، وهو المؤمن بما للأبوة من جليل القدر، ورفعة الشأن.

= الأنعام: آية ٧٤، مريم: آية ٤١ ـ ٤٨، الشعراء: آية ٦٩ ـ ٨٩، الصافات: آية ٨٣ ـ ٩٩).

(١) انظر الآراء التي دارت حول «آزر» وهل هو والد الخليل أم عمه؟ (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٥٣ ـ ٦١.

ويقص علينا القرآن الكريم، كيف بدأ النبي الكريم دعوته مع أبيه بلهجة تسيل أدباً ورقة، يهديه بها صراطاً مستقيماً، فأشار إلى الأصنام مبيناً أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا ترى، ولا تشعر بعابد يعبدها، أو عاص يعصاها، ثم بيّن لأبيه أنه ليس مخترعاً للدعوة، وأنها من لدن عليّ قدير، وأنه قد تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه، وأنه لا ضرر عليه إذا اتبع ملة ولده أو عمل برأيه، واختتم نصحه برجاء تقدم به إلى أبيه أن يحذو حذوه، ويسلك سبيله، وإلا فالطريق التي يسلكها غير طريق الهدى، هي طريق ملأى بالأشواك، وهي طريق الشيطان الرجيم، وهو عدو لا يرشد إلى خير، ولا يبتغي إلا إيقاع الناس في الشر وإهلاكهم، فقد عصى ربه فطرده وأبعده عن رحمته، فتوّعد الناس بالإغواء والضلالة[1].

ولكن «آزر» رفض الدعوة، بل وأصر على عناده، وصمم على كفره، وتجاهل بنوته، وأنكر إشفاقه به، ونصحه له، وهدّده إن لم ينته عن دعوته هذه ليرجمنه، وليهجرنه ملياً، وكان آزر في ذلك مغمضاً عينيه عن اعتبارات النبوة، متجاهلاً إياها، فاستنكر النصيحة، وسفه الرأي، وسخر من الشرعة الجديدة، فما كان من الخليل، تأدباً مع أبيه وحدباً عليه، إلا أن يدعو له بالمغفرة، وأن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة مريم، قال تعالى: ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبيّاً، إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، يا أبت إنه قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً، قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً، قال**

(١) محمد حسني: المرجع السابق ص ٣١.

سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقي﴾[1].

وهكذا تشير هذه الآيات الكريمة إلى شخصية إبراهيم الرضي الحليم، تبدو وداعته وحلمه في ألفاظه وتعبيراته التي يحكي القرآن الكريم ترجمتها بالعربية، وفي تصرفاته ومواجهته للجهالة من أبيه[2]، ويصف الله تعالى خليله إبراهيم بأنه كان صديقاً نبيًّا، فجمع الله له بين الصديقية والنبوة، فالصديق كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العمل العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، ولا غرو فإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، أفضل الأنبياء والمرسلين قاطبة بعد سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب[3].

وقال الإمام الرازي في التفسير الكبير: وإيراد الكلام بلفظ «يا أبت» في كل خطاب، دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن العقاب، وإرشاده إلى الصواب، وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن، لأنه نبهه أولاً إلى بطلان عبادة الأوثان، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة في العقول، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام، مع رعاية الأدب والرفق، وقوله «إني أخاف» دليل على

---

(١) سورة مريم: آية ٤١ - ٤٨، وانظر: تفسير ابن كثير ٣/ ١٩٨ - ٢٠٠، تفسير القرطبي ص ٤١٤٩ - ٤١٥٣، تفسير النسفي ٣/ ٣٦ - ٣٨، تفسير ابن ناصر السعدي ٥/ ٥٣ - ٥٦، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٠ - ٢٣١٣، صفوة التفاسير ٢/ ٢١٨ - ٢١٩، تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٢٥ - ٢٢٧، تفسير البيضاوي ٢/ ١٦ - ١٨.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١١.

(٣) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥/ ٥٤ (مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ).

شدة تعلق قلبه بمصالحه، قضاء لحق الأبوة[1].

غير أن أباه، كما يقول الإمام البيضاوي، قابل استعطافه ولطفه بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل قوله «يا أبت» ب «يا ابني» وقدّم الخبر وصدره بالهمزة لانكار نفس الرغبة، كأنها مما لا يرغب عنها عاقل[2].

وهكذا تشير الآيات الكريمة بوضوح، كيف راعى إبراهيم الخليل المجاملة والرفق والخلق الحسن كما أمر، ففي الحديث «أوحى إلى إبراهيم إنك خليلي، حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار»، فطلب من أبيه أولاً العلة في خطئه طلب منبه على تماديه، موقظ لإفراطه وتناهيه، لأن من يعبد أشرف الخلق منزلة، وهم الأنبياء، كان محكوماً عليه بالغي المبين، فكيف بمن يعبد حجراً أو شجراً لا يسمع ذكر عابده، ولا يرى هيآت عبادته، ولا يدفع عنه بلاء، ويقضي له حاجة، ثم ثني بدعوته إلى الحق مترفقاً به، متلطفاً، فلم يسم أباه بالجهل المفرط، ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي شيئاً من العلم ليس معك، وذلك علم الدلالة على الطريق السوّى، فهب أني وإياك في مسير، وعندي معرفة بالهداية دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل وتتيه، ثم ثلث بنهيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي عصى الرحمن الذي جميع النعم منه أوقعك في عبادة الصنم وزينها لك، فأنت عابده في الحقيقة، ثم ربع بتخويفه العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعية والوبال، مع مراعاة الأدب حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق به، وأن العذاب لاحق به، بل قال أخاف أن يمسك عذاب بالتفكير المشعر بالتقليل، كأنه قال إني أخاف أن يصيبك نفياً من عذاب الرحمن، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في

---

(1) تفسير الفخر الرازي ٢١/ ٢٢٦.

(2) تفسير البيضاوي ٢/ ١٧.

جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب، كما أن رضوان الله أكبر من الثواب في نفسه، وصدّر كل نصيحة بقوله: يا أبت، توسلاً إليه واستعطافاً، وإشعاراً بوجوب احترام الأب، وإن كان كافراً[1].

غير أن الخلاف بين أبي الأنبياء وأبيه إنما كان عميق الجذور، فإذا أبو إبراهيم يقابل الدعوة بالاستنكار والتهديد والوعيد، بل ويأمر ولده بالهجرة، ما دام راغباً عن آلهته، حيث لا أمل في اتفاق، ولم يغضب إبراهيم الحليم، ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه «قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً، وأعتز لكم وما تدعون من دون الله، وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً»، وهكذا يرد الخليل عليه السلام على تهديد أبيه «سلام عليك»، فلا جدال ولا أذى، ولا رد للتهديد والوعيد، سأدعو الله أن يغفر لك فلا يعاقبك بالاستمرار في الضلال وتولى الشيطان، بل يرحمك فيرزقك الهدى، وقد عودني ربي أن يكرمني فيجيب دعائي، وإذا كان وجودي إلى جوارك ودعوتي لك إلى الإيمان تؤذيك فسأعتزلك أنت وقومك، وأعتزل ما تدعون من دون الله من الآلهة، وأدعو ربي وحده، بسبب دعائي لله، ألا يجعلني شقياً[2].

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبعد أن بنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام، في قوله «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»[3].

ولم يجد سيدنا إبراهيم من بين القوم من يؤمن به، إلا ابن أخيه لوط، عليه السلام، يقول سبحانه وتعالى: **﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى**

(١) تفسير النسفي ٣/ ٣٦ - ٣٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٠٠.

ربي، **إنه هو العزيز الحكيم﴾**[1]، ومن ثم فقد اعتزل إبراهيم أهله، وودع والده، ثم هجره لحكمة هي حرصه على أن لا يكون في إقامته مع أبيه معنى الرضا بعصيانه وكفرانه.

ويكتب الله، جل جلاله، لخليله عليه السلام، وكذا لابن أخيه لوط، النجاة من القوم الكافرين، بعد أن أعدوا العدة لإحراقه **﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾**[2].

وليس في هذه الآيات الكريمة ما يشير إلى هجرة أبي إبراهيم معه، ولو / آمن أبوه به، ثم هاجر معه، لكان ذلك حدثاً هاماً جديراً بالتنصيص عيه، تكريماً له ولإبراهيم في نفس الوقت، ولم يكن ابن أخيه لوط أقرب إليه من أبيه، حتى ينال وحده شرف الهجرة، ومثوبة التوحيد[3].

بل إن القرآن الكريم ليشير بصراحة ووضوح إلى أن إبراهيم إنما تبرأ من أبيه، بعد ما تبيّن له أنه عدو لله قال تعالى: **﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾**[4]، هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم قد أمر المسلمين أن يقتدوا

---

(١) سورة العنكبوت: آية ٢٦.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٦٨ - ٧١، وانظر: تفسير البيضاوي ٢/ ٧٦ - ٧٧، تفسير القرطبي ص ٤٣٤٣ - ٤٣٤٥، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٧ - ٢٣٨٨، تفسير النسفي ٣/ ٨٣ - ٨٥، صفوة التفاسير ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٩، زاد المسيرة ٥/ ٣٦٧ - ٣٦٩، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٤ - ٢٩٦.

(٣) محمود عمارة: اليهود في الكتب المقدسة - القاهرة ١٩٦٩ ص ١٢ - ١٣.

(٤) سورة التوبة: آية ١١٤، وانظر: تفسير الطبري ١٤/ ٥١١ - ٥٣٦، تفسير القرطبي ص ٣١١٢ - ٣١١٥، تفسير ابن كثير ٢/ ٦١٠ - ٦١٤، تفسير المنار ١١/ ٤٥ - ٤٩، مسند الإمام أحمد ٢/ ١١٦ (طبعة دار المعارف)، صفوة التفاسير ١/ ٥٦٥ - ٥٦٦، في ظلال القرآن ٣/ ١٧٢١ - ١٧٢٢.

بإبراهيم والذين معه، إلا من استغفاره، قال تعالى: ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءا وامنكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير**﴾[1].

وحكمة تحريم الاستغفار للمشركين أن الله تعالى لا يغفر الشرك أبداً، قال تعالى: ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك**﴾، ومن ثم فطلب الغفران للمشركين معدوم الفائدة، ويوهم أمراً بالملأ، وهو أنه يجوز شرعاً أن يغفره، ولما كان هذا الخطر يعارضه استغفار سيدنا إبراهيم لأبيه، وقد كان من الكافرين، وأحكام الأصول لا نسخر فيها، فيشعر استغفاره ذلك بجوازه ببيّن الله عذره في ذلك الاستغفار بأنه استغفر لوالده بناء على وعد من الوالد أن يتوب، فلما تبيّن له أنه عدو لله ولم يتب، تبرأ منه، فليس ما فعله دليلاً للجواز، لأنه إنما يكون دليلاً إذا استغفر له، وهو يعلم أنه كافر، فالحكم بأن الله لا يغفر الشرك وأن طلبه غير جائز لم يتغير، فلا يجوز طلبه، ولا ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يطلبوه، ولو لأقاربهم[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أمرين، يختلف القرآن فيهما عن التوراة، الواحد: أن أبا إبراهيم لم يهاجر أبداً مع النبي الكريم، فضلاً عن عدم الإيمان به، والآخر: أن الهجرة إنما كانت «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين»، وليست هذه الأرض بحال من الأحوال «حران» (حاران)،

---

(١) سورة الممتحنة: آية ٤، وانظر: تفسير الفخر الرازي ٢٩/ ٣٠٠ ـ ٣٠١، تفسير روح المعاني ٢٨/ ٦٩ ـ ٧٣، تفسير الطبري ٢٨/ ٦٢ ـ ٦٣، تفسير الطبرسي ٢٨/ ٤٧ ـ ٤٩، تفسير الزمخشري ٤/ ٩٠، تفسير القاسمي ١٦/ ٥٧٦٥ ـ ٥٧٦٦، تفسير القرطبي ص ٦٥٣٥، تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٣ ـ ٥٤.

(٢) محمد حسني: المرجع السابق ص

كما ذهب إلى ذلك كعب الأحبار، وإنما هي موضع خلاف بين المفسرين، فيما بين مكة وبيت المقدس ومصر[1]، وكلها أماكن حط الخليل رحاله فيها بعد هجرته من حاران، موطنه الأصلي، وليس أور التي في منطقة الفرات الأدنى، ومن ثم فقد كانت هجرة الخليل من حاران إلى كنعان، ثم مصر، فكنعان فالحجاز، فكنعان مرة ثالثة، حيث استقر هناك في حبرون (مدينة الخليل الحالية)[2].

(ب) **بين إبراهيم وقومه**: ـ لا ريب في أن جدنا الأكبر، سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إنما كان عظيماً بكل ما وسعته هذه الكلمة من معان، ولم تكن الشدائد التي وقفت في طريقه، والأهوال التي اعترضت سبيله، لتقل من غربه أو توهن من عزمه، فلقد كان، عليه السلام، في أحرج موقف حيال من بعث بالحق إليهم، ذلك أن قومه وأهله، وعلى رأسهم أبوه، كل أولئك قد نقم عليه دعوته وضاق به صدراً وضاعف من دقة موقفه إزاء المناوئيين، تلك الغلطة التي بدت في لهجة أبيه، وذلك التهديد الذي قابل به دعوته، وأمره إياه بهجره وإصراره على ما هو فيه من ضلال وعبادة أصنام، كما رأينا من قبل، قد حزت كل هذه الأحداث في نفس إبراهيم، لكنها لم تكن لترجعه القهقري، أو لتدخل على قلبه اليأس، أو لتفقده الأمل في نصر الله تعالى، فصمد كالطود الراسخ، وزاده الإصرار من جانب الكفار، قوة على قوة، وإيماناً مع إيمان، فاعتزل أباه، واعتز بالله، ومضى في طريقه غير وجل أو هياب، موطناً النفس على تحمل المكاره، مستنصراً بخالقه وباعثه إلى الناس رسولاً نبيّاً[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي ص٤٣٤٥، تفسير البيضاوي ٢/ ٧٦ ـ ٧٧، ابن كثير: قصص الأنبياء ١/ ١=١ ـ ٢=١ (القاهرة ١٩٦٨)، تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٦.

(٢) انظر: عن موطن الخليل وهجراته (محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٦١ ـ ١٣٢).

(٣) محمد حسني: المرجع السابق ص ٤٨.

وهكذا كانت مواقف إبراهيم مع قومه متعددة، فتارة يحاج والده، وتارة يحاج الجمهور، وتارة يحاج الملك، وتارة يفعل ما يستفزهم إلى محاجته، كتكسير الأصنام ليحاجوه في شأنها، إلى أن أوقدوا النار لتحريقه، فنجاته منها، بعد أن ألقى فيها[1].

ويقص علينا القرآن الكريم، في آيات كريمة من سورة مريم[2]، كيف بدأ إبراهيم الخليل عليه السلام دعوته مع أبيه يهديه بها صراطاً مستقيماً، كما أشرنا من قبل، وكيف أن أباه قد رفض الدعوة، وهدده إن لم ينته عنها ليرجمنّه وليهجرنه ملياً، فما كان من أبي الأنبياء ـ تأدباً مع أبيه وحدباً عليه ـ إلا أن يدعو له بالمغفرة، وإلا أن ينتظر إجابة دعوته إلى حين.

غير أن الأمور سرعان ما بدأت تتأزم بين الخليل وقومه، حين بذل أبو الأنبياء الجهد، كل الجهد، لصرفهم عن عبادة الأوثان، والاتجاه إلى عبادة الله، الواحد القهار، إلا أن القوم ظلوا في طغيانهم يعمهون، مما دفع الخليل إلى أن يجرب معهم وسائل حسنة، ومن ثم فقد حطم الأصنام وترك كبيرهم، لعل القوم يفكرون في هذا الموقف الجديد، أملاً في أن يهديهم الله سواء السبيل، فيعرفوا أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً، ولا تمنع عنها ضراً، فضلاً عن أن يكون ذلك للقوم أنفسهم، إلا أن هذه العقول المتحجرة، لم تزد على أن تلجأ إلى العنف لنصرة أصنامها، ولم تجد لها مخرجاً من الموقف الجديد، إلا أن تلقي بإبراهيم في نار، ظنوا أنها ستكون القاضية على الخليل، وأنها الحل السعيد لمشكلتهم، مع هذا الذي سفه عقولهم وحطم أصنامهم، دون أن يفكروا مرة في مقابلة الحجة بالحجة، ودون أن يرجعوا إلى الحق ما دام الحق مع إبراهيم، وتلك ـ ويم الله ـ عادة من طمس الله على قلوبهم، وأعمى أبصارهم، في كل زمان ومكان، لا

---

(١) عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٨١.

(٢) سورة مريم: آية ٤١ ـ ٤٨.

يعرفون إلا القوة الطاغية ضد العقول المستنيرة، التي تبغي لهم الخير والفلاح.

ولنقرأ هذه الآيات الكريمة من سورة الأنبياء ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين، قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين، وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم، قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ؛ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾[1].

وتقدم لنا الآيات الكريمة كما يقول صاحب الظلال حلقة من سيرة أبي الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، تبدأ بالإشارة إلى سبق هداية إبراهيم إلى الرشد، ويعني به الهداية إلى التوحيد، فهذا هو الرشد الأكبر الذي تنصرف إليه لفظة «الرشد» في هذا المقام، ثم تشير إلى محاجة إبراهيم قومه «إذ قال

---

(١) سورة الأنبياء: آية ٥١ ـ ٧٠، وأنظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩١ ـ ٢٩، تفسير القرطبي ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤٥، في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٢ ـ ٢٣٨٨، صفوة التفاسير ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨، تفسير النسفي ٣/ ٨١ ـ ٨٤ تفسير الخازن٣/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢، تفسير ابن ناصر السعدي ٥/ ١١٨ ـ ١٢٢، تفسير الجلالين ص ٤٢٥ ـ ٤٢٧.

لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون»، فكانت قولته هذه دليل رشده، فقد سمى تلك الأحجار والخشب باسمها، فقال «هذه التماثيل»، ولم يقل إنها آلهة واستنكر أن يعكفوا عليها بالعبادة، وكلمة «عاكفون» تفيد الانكباب الدائم المستمر، وهم لا يقضون وقتهم كله في عبادتها، ولكنهم يتعلقون بها، فهو عكوف معنوي لازمني، وهو يسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين أبداً على هذه التماثيل.

وكان جوابهم وحجتهم أن «قالوا إنا وجدنا آباءنا له عابدين»، وهو جواب يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وانطلاق للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية، فالإيمان بالله طلاقة وتحرر من القداسات الوهمية التقليدية، والوراثات المتحجرة التي لا تقوم على دليل «قال لقد كنتم وآباؤكم في ضلال مبين»، وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها، فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، إنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق.

وعندما واجههم إبراهيم بهذه الطلاقة في التقدير، وبهذه الصراحة في الحكم، راحوا يسألون: «قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين»، وهو سؤال المزعزع العقيدة الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه، ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد، فهو لا يدري أي الأقوال حق، والعبادة تقوم على اليقين، لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل، وهذا هو هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير.

فأما خليل الرحمن، صلوات الله وسلامه عليه، فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره وفكره، يقولها كلمة المؤمن المطمئن

لإيمانه «قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين» ، فهو رب واحد، رب السموات والأرضين ، ربوبية ناشئة عن كونه الخالق ، فهما صفتان لا تنفكان ، فهذه هي العقيدة المستقيمة الناصعة ، لا كما يعتقد المشركون أن الآلهة أرباب ، في الوقت الذي يقرون أنها لا تخلق ، وأن الخالق هو الله ، ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق وأن الخالق هو الله ، ثم هم يعبدون تلك الآلهة التي لا تخلق شيئاً وهم يعلمون .

ثم يعلن إبراهيم عليه السلام لمن كان يواجههم من قومه بهذا الحوار ، أنه قد اعتزم في شأن آلهتهم أمراً لا رجعة فيه «وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين» ، ويترك ما اعترفه من الكيد للأصنام مبهماً لا يفصح عنه ، ولا يذكر السياق كيف ردوا عليه ، ولعلهم كانوا مطمئنين إلى أنه لن يستطيع لآلهتهم كيداً ، فتركوه ، «فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون» ، وتحولت الآلهة المعبودة إلى قطع صغيرة من الحجارة والأخشاب المهشمة ، إلا كبير الأصنام فقد تركه إبراهيم ، لعلهم يسألونه كيف وقعت الواقعة ، وهو حاضر، فلم يدفع عن صغار الآلهة ، ولعلهم حينئذ يراجعون القضية كلها ، فيرجعون إلى صوابهم ، ويدركون منه ما في عبادة هذه الأصنام من سخف وتهافت .

وعاد القوم ليروا آلهتهم جذاذاً ، إلا ذلك الكبير ، ولكنهم لم يرجعوا إليه يسألونه ، ولا إلى أنفسهم يسألونها ، إن كانت هذه الآلهة فكيف وقع لها ما وقع ، دون أن تدافع عن نفسها شيئاً ، وهذا كبيرهم كيف لم يدفع عنها؟ ذلك لأن الخرافة قد عطلت عقولهم عن التفكير، ولأن التقليد قد غلّ أفكارهم عن التأمل والتدبر، فإذا هم يدعون هذا السؤال الطبيعي لينقموا على من حط آلهتهم ، وصنع بها هذا الصنيع «قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين» ، وعندئذ تذكر الذين سمعوا إبراهيم ينكر على أبيه ومن معه

عبادة التماثيل ، ويتوعدهم أن يكيد لآلهتهم بعد انصرافهم عنها «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» .

ويبدو من هذا أن إبراهيم عليه السلام كان شاباً صغير السن ، حينما آتاه الله رشده ، فاستنكر عبادة الأصنام وحطمها ، ولكن أكان قد أوحى إليه بالرسالة في ذلك الحين؟ أم هو إلهام هداه إلى الحق قبل الرسالة ، فدعا إليه أباه ، واستنكر على قومه ما هم فيه؟ وهذا هو الأرجح ، فيما يرى صاحب الظلال ، وهناك احتمال أن يكون قولهم «سمعنا فتى» يقصد به إلى تصغير شأنه ، بدليل تجهيلهم لأمرهم في قولهم «يقال له إبراهيم» ، للتقليل من أهميته ، وإفادة أنه مجهول لا خطر له؟ قد يكون هذا هو المراد ، وهذا ما نميل إليه ونرجحه ، ولكن الأستاذ سيد قطب ، يرجح أنه كان فتى حديث السن في ذلك الحين .

ثم أرادوا التشهير به ، وإعلان فعلته على رؤوس الأشهاد «قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم» ، فهم ما يزالون يصرون على أنها آلهة ، وهي جذاذ مهشمة ، ومن ثم فقد أراد إبراهيم أن يسخر منهم «قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» .

ويبدو أن هذا التهكم الساخر قد هزهم هزاً ، وردهم إلى شيء من التدبر والتفكير «فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون» ولكنها لم تكن إلا ومضة واحدة أعقبها الظلام ، وإلا خفقة واحدة عادت بعدها قلوبهم إلى الخمود «ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» ، ومن ثم فإن الخليل عليه السلام يجيبهم بعنف وضيق ، على غير عادته وهو الصبور الحليم ، لأن السخف هنا يجاوز صبر الحليم «قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا

تعقلون»، وهي قولة يظهر فيها ضيق الصدر، وغيظ النفس، والعجب من السخف الذي يتجاوز كل مألوف».

وعند ذلك أخذتهم العزة بالإثم «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين»، فيا لها من آلهة ينصرها عبادها، وهي لا تملك نفعاً ولا ضراً، ولا تحاول لها ولا لعبادها نصراً، ولكن كلمة الله العليا ردت على كلمتهم «حرقوه»، فأبطلت كل قول، وأحبطت كل كيد، لأن كلمة الله العليا لا ترد «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم».

وأما كيف لم تحرق النار إبراهيم؟ والمشهور المعروف أن النار تحرق الأجسام الحية، فلا نسأل عن ذلك، لأن الذي قال للنار: كوني حارقة، هو الذي قال لها: كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، وهي الكلمة الواحدة التي تنشىء مدلولها عند قولها كيفما كان هذا المدلول، مألوفاً للبشر أو غير مألوف، وعز من قال «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون»[1].

ومن عجب أن يحاول بعض المؤرخين الإسلاميين كما أشرنا في الجزء الأول من هذه السلسلة[2]، أن يقدموا لنا قصصاً تدعو إلى العجب في هذه المواقف الجادة، فيرون أن «نمروداً» ـ وهو الملك المعاصر لإبراهيم فيما يقولون ـ أمر بجمع الحطب، حتى أن المرأة العجوز كانت تحمل الحطب على ظهرها، وتقول: «اذهب به إلى هذا الذي يذكر آلهتنا»، وحتى أن المرأة لتنذر إن بلغت ما تريد أن تحتطب لنار إبراهيم، وأن أمه نظرت إليه في النار، فطلبت أن تجيء إليه فيها، على أن يدعو إبراهيم ربه ألا يضرها شيء من حر النار، ففعل، وهكذا ذهبت إليه فاعتنقته وقبلته، ثم عادت وقد

(١) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٨٤ ـ ٢٣٨٨.

(٢) انظر: محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم ـ الرياض ١٩٨٠ ١/ ١٢٩ ـ ١٣٤.

اطمأنت على ولدها[1] ، ويتسابق البعض الآخر في رواية الأساطير ، فيذهب إلى أنها إنما كانت ابنة نمرود ، وليست أم الخليل ، هي التي ذهبت إليه في النار ، وأن الخليل قد زوجها بعد ذلك من ولده مدين ، فحملت منه عشرين بطناً ، أكرمهم الله بالنبوة[2] .

ولست أدري كيف احتاج نمرود ، وهو في رأي هذا النفر من المؤرخين قد ملك الدنيا بأسرها ، إلى أن تحمل المرأة العجوز ما لا تطيق ، وإلى أن ينتظر نذر النساء بجمع الحطب لناره ، وهل كان جمع الحطب يحتاج إلى فترة تمضي بين أن يتحقق للمرأة ما طلبت وبين أن توفي بنذرها حطباً للنار التي أعدها النمرود للخليل عليه السلام؟ ، وأما قصة أم إبراهيم فأمرها عجب ، فكيف رأته في النار سليماً معافى ، ثم اعتنقته وقبلته ، ثم كيف سمح لها القوم ـ وخاصة زوجها ـ بأن تذهب إليه؟ أم أن أصحابنا المؤرخين أرادوا أن تذهب خلسة ، كما وضعته خلسة[3] فيما يزعمون ، وإن كان الأعجب من

---

(1) تاريخ الطبري ١/ ٢٤١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١/ ٩٨ ـ ٩٩ (بيروت ١٩٦٥) ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/ ١٤٦ (الرياض ١٩٦٦) .

(2) الديار بكري : تاريخ الخميس ص ٩٣ ـ ٩٥ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .

(3) يروى الأخباريون أن أصحاب النجوم قد أخبروا النمرود أن غلاماً يقال له إبراهيم سوف يولد في شهر كذا من سنة كذا من عهده ، وأنه سيفارق دين القوم ويحطم أصنامهم ، ومن ثم فقد أمر النمرود بقتل كل غلام يولد في تلك الفترة ، غير أن أم إبراهيم قد أخفت حملها ، ثم وضعته سراً في مغارة قريبة من المدينة ، ومن ثم فقد نجا إبراهيم من القتل ، ثم أعلمت زوجها بأن الغلام قد مات على زعم ، وأخبرته بالحقيقة على زعم آخر ، وعلى أي حال ، وطبقاً للرواية ، فقد أخذت تتردد على وليدها يوماً بعد آخر ، وأنها كانت تتعجب كثيراً من أنه كان يشب في اليوم ما يشبه غيره في الشهر (انظر : تاريخ الطبري ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦) الكامل لابن الأثير ١/ ٩٤ ـ ٩٥ ، المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ١/ ١٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ١/ ١٤٨ ، تاريخ الخميس ص ٨٩ ـ ٩١ ، ١١٤ ، كتاب البدء والتأريخ للمقدسي ٣/ ٤٥ ـ ٤٨ ، المحبر ص ٣٩٢ ـ ٣٩٤ ، مروج الذهب ١/ ٥٦) ، وفي الواقع أن مثل هذه الروايات والأساطير إنما دارت كذلك عن مولد موسى والمسيح عليهما السلام (تاريخ =

ذلك أن تكون هذه المرأة بالذات هي بنت النمرود، وأن يزوجها أبو الأنبياء من ولده مدين، وأن تنجب له عشرين بطناً من الأنبياء، وأخيراً ما الهدف من هذا القصص وأمثاله، كقصة الميرة، وقصة جيوش الذباب، وقصة أفراخ النور[1].

وأياماً كان الأمر، فليس هناك إلى سبيل من شك في أن حادث إلقاء إبراهيم في النار ونجاته، إنما كان معجزة للخليل عليه السلام حفظه الله بها، ورد كيد الكافرين في نحورهم، روى المفسرون أن القوم حين ألقوا إبراهيم عليه السلام في النار مقيداً مغولاً، قال: حسبي الله ونعم الوكيل، وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال: حسبي الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد عليه السلام، حين قالوا إن الناس قدجمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيماناً، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل[2].

وروى أبيّ بن كعب عن النبي ﷺ «أن إبراهيم حين قيدوه ليلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»، قال: ثم رموا به في المنجنيق من مضرب شاسع، فاستقبله جبريل فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فقال جبريل: فاسأل ربك، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي، فقال الله تعالى، وهو أصدق القائلين «يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم»، قال بعض العلماء:

=|اليعقوبي ١/ ٣٣، مروج الذهب ١/ ٦١، تاريخ الطبري ١/ ٣٨٦ - ٣٨٨، تاريخ ابن كثير ١/ ٢٣٧ - ٢٣٨، متى ٢/ ١ - ٢٣).

(١) تاريخ الطبري ١/ ٢٨٨ - ٢٩٠، تاريخ ابن الأثير ١/ ١١٥ - ١١٧، تاريخ ابن كثير ١/ ١٤٩، تاريخ الخميس ص ٩٥ - ٩٦، المقدسي ٣/ ٥٦، أخبار الزمان للمسعودي ص ١٠٤ - ١٠٩، تفسير مقاتل ١/ ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٤.

جعل الله فيها حراً يمنع بردها، وبرداً يمنع حرها، فصارت سلاماً عليه، قال أبو العالية: ولو لم يقل «برداً وسلاماً»، لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل «على إبراهيم» لكان بردها باقياً على الأبد[1].

وروى عن الإمام علي وابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً، لمات إبراهيم من بردها، ولم تبق يومئذ نار إلا أطفئت، ظنت أنها تعني، وعن ابن عباس: لوم لم يقل ذلك لأهلكته ببردها، والمعنى، كما يقول الإمام النسفي، أن الله تعالى نزع عنها طبعها الذي طبعها عليه من الحر والإحراق، وأبقاها على الإضاءة والإشراق كما كانت، وهو على كل شيء قدير[2].

وروى الحافظ أبو يعلي عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «لما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار، قال: اللهم إنك في السماء واحد، وأنا في الأرض واحد أعبدك»، ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»[3].

وقال سعيد بن جبير ـ ويروى أيضاً عن ابن عباس ـ قال: لما ألقى إبراهيم، جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان أمر الله أسرع منه، قال الله: ﴿**يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم**﴾، قال: لم يبق نار في الأرض إلا طفئت، وقال كعب الأحبار: لم ينتفع أحد يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال كعب وقتادة والزهري: ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فلذلك أمر رسول الله ﷺ، بقتلها وسماها فويسقة، وروى ابن أبي حاتم عن مولاة الفاكه بن المغيرة

(١) تفسير القرطبي ص ٤٣٤٣ ـ ٤٣٤٤.

(٢) تفسير القرطبي ص ٤٣٤٤، تفسير النسفي ٣/ ٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٩٤، تفسير الدر المنثور ٤/ ٣٢٣، تفسير القرطبي ص ٤٣٤٣.

المخزومي قالت: دخلت على عائشة، فرأيت في بيتها رمحاً، فقلت يا أم المؤمنين ما تصنعين بهذا الرمح، نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى في النار لم يكن في الأرض دابة إلا تطفىء النار، غير الوزغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله».



الفصل الثالث

بين إبراهيم والملك

فشا في الناس أمر الدعوة التي أخذ أبو الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليه، ينشرها ويروج لها، وإذا القوم لا حديث لهم غير إبراهيم ودعوته، وأحس الملك أن خاتمته قد دنت، أو على أن زلزالاً يهدد عرشه، وقد يقضي عليه بعد حين من الدهر، ومن ثم فقد ازداد غضبه، وكاد يطير منه الصواب، فأمر بدعوة إبراهيم، وقامت بينهما مناظرة، ليس أبلغ من القرآن الكريم في عرضها، يقول عز من قال: **﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت، قال أنا أحي وأميت، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[1].

وتحكى الآيات الكريمة حواراً بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وملك في أيامه يجادله في الله، لا يذكر السياق باسمه، لأن ذكر اسمه لا يزيد من العبرة التي تمثلها الآية شيئاً، وهذا الحوار يعرض على النبي ﷺ، وعلى الجماعة المسلمة في أسلوب التعجيب من هذا المجادل، الذي حاج

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٨، وانظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٢٩ ـ ٤٣٨، تفسير النسفي ١/ ١٣٠، تفسير ابن ناصر السعدي ١/ ١٥٣ ـ ١٥٤، تفسير الجلالين ص ٥٦ ـ ٥٧، تفسير القرطبي ص ١٠٩١ ـ ١٠٩٦، صفوة التفاسير ١/ ١٦٥، تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩، تفسير المنار ١١/ ٣٨ ـ ٤٠، في ظلال القرآن ١/ ٢٩٦ ـ ٢٩٨.

إبراهيم في ربه، وكأنما مشهد الحوار يعاد عرضه من ثنايا التعبير القرآني العجيب[1].

وجاء في تفسير المنار: قال الأستاذ الإمام (أي الإمام محمد عبده) - وعزاه إلى المحققين، الكلام متصل بما قبله، وشاهد عليه، كأنه يقول: انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية الله له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عليه، فيظل على نور من ربه، وإلى الذي حاجه كيف كان بولاية الطاغوت له، يعمى عن نور الحجة وينتقل من ظلمات الشبه والشكوك إلى أخرى، قالوا: الاستفهام في قوله تعالى: **﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾**، للتعجيب من هذه المحاجة وغرور صاحبها وغباوته، مع الإنكار[2].

ويقول صاحب الظلال: إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكراً لوجود الله أصلاً، إنما كان منكراً لوحدانيته في الألوهية والربوبية، ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجري فيه وحده، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله، ولكنهم يجعلون له أنداداً ينسبون إليها فاعلية وعملاً في حياتهم، وكذلك كان منكراً أن الحاكمية لله وحده، فلا حكم إلا حكمه في شئون الأرض وشريعة المجتمع[3]، على أن الأستاذ النجار إنما يذهب إلى أن قصة إبراهيم المحكية في القرآن إنما تشعرنا أن هؤلاء القوم إنما كانوا يعبدون ملوكهم مع آلهتهم، يدل على ذلك المحاجة التي كانت بين إبراهيم وبين الملك، فأحب الملك أن يرجع إبراهيم عن نحلته الجديدة المخالفة لنحلة قومه، وأن يعبده وآلهته[4].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٧.

(٢) تفسير المنار ١١/ ٣٩.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٧.

(٤) عبد الوهاب النجار: المرجع السابق ص ٨١.

وعلى أية حال، فإن هذا الملك المنكر المتعنت، إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغي من أجله أن يؤمن ويشكر، هذا السبب هو «أن آتاه الله الملك»، وجعل في يده السلطان[1]، أو كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده: إن الذي حمله على هذه المحاجة هو إيتاء الله تعالى الملك له، فكان منشأ إسرافه في غروره، وسبب كبريائه وإعجابه بقدرته[2]، مع أن المفروض أن يشكر ويعترف بنعمة الله عليه، لولا أن المُلْك يُطغى ويُبطر من لا يقدرون نعمة الله، ولا يدركون مصدر الإنعام، ومن ثم يصنعون الكفر في موضع الشكر، ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا مهتدين، فهم حاكمون لأن الله حكّمهم، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم، فهم كالناس عبيد الله، يتلقون مثلهم الشريعة من الله، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع، فهم خلفاء لا أصلاء، ومن ثم يعجب الله من أمره، وهو يعرضه على نبيه[3].

هذا ويروي المفسرون في سبب هذه المحاجة روايتين، إحداهما: أنهم خرجوا إلى عيد لهم، فدخل إبراهيم على أصنامهم فكسرها، فلما رجعوا قال لهم: أتعبدون ما تنحتون، فقال: فمن تعبد، قال: أعبد ربي الذي يحي ويميت، وقال بعضهم أن نمرود كان يحتكر الطعام، فكانوا إذا احتاجوا إلى الطعام يشترونه منه، فإذا دخلوا عليه سجدوا له، فدخل إبراهيم فلم يسجد له، فقال: ما لك لا تسجد لي، قال: أنا لا أسجد إلا لربي، فقال له نمرود: من ربك، قال إبراهيم: ربي الذي يحي ويميت، وذكر زيد بن أسلم أن النمرود هذا قعد يأمر الناس بالميرة، فكلما جاء قوم يقول: من ربكم وإلهكم، فيقولون أنت، فيقول: ميروهم، وجاء إبراهيم عليه السلام

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٧.

(٢) تفسير المنار ١١/ ٣٩، وانظر: تفسير النسفي ١/ ١٣٠، صفوة التفاسير ١/ ١٦٥، تفسير الطبري ٥/ ٤٣١.

(٣) في ظلال القرآن ١/ ٧٢٩٧

يمتار فقال له: من ربك وإلهك، فقال: ربي الذي يحي ويميت، فلما سمعها نمرود قال: أنا أحي وأميت، فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر، وقال: لا تميروه، فرجع إبراهيم إلى أهله دون شيء، فمر على كثيب رمل كالدقيق، فقال في نفسه: لو ملأت غرارتي من هذا، فإذا دخلت به فرح الصبيان حتى أنظر لهم، فذهب بذلك، فلما بلغ منزله فرح الصبيان وجعلوا يلعبون فوق الغرارتين، ونام هو من الإعياء، فقالت امرأته: لو صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا انتبه، ففتحت إحدى الغرارتين فوجدت أحسن ما يكون من الحواري (الدقيق الأبيض، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه) فخبزته، فلما قام وضعته بين يديه فقال: من أين هذا؟، فقالت: من الدقيق الذي سقت، فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم ذلك[1].

وأما وقت هذه المحاجة فهو موضع خلاف، فذهب رأي إلى أن ذلك إنما كان بعد أن كسر إبراهيم الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، وسفه أحلام عابديها[2]، وذهب رأي آخر إلى أنها كانت بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن إبراهيم اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم، فجرت بينهما هذه المناظرة[3]، على أنه قد يفهم من رواية ابن الأثير أن ذلك كان قبل تكسيره الأصنام[4].

وأما هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، فهو، فيما يرى كثير من المفسرين والمؤرخين، «النمرود بن كنعان بن كوش»، والذي كان، فيما يزعمون، واحداً من ملوك أربعة ملكوا الأرض كلها: نمرود وبختنصر

---

(١) تفسير القرطبي ص ١٠٩٢ - ١٠٩٣، وانظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٣٣ - ٤٣٤، تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٩.

(٢) تفسير المنار ١١/ ٣٩.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١/ ٩٦.

(نبوخذ نصر) وهما كافران، وسليمان بن داود وذي القرنين، وهما مؤمنان، كما كان نمرود هذا أول جبار تجبر في الأرض، وأول ملك في الأرض، وهو كذلك صاحب الصرح في بابل، وأول من صلب وأول من قطع الأيدي والأرجل، إلى غير ذلك من صفات أسبغت عليه، ولا يعلم إلا الله سبحانه وتعالى، من أين أتى بها مؤرخونا، وكثير منهم ممن يعتد بهم، ولهم مكانة عالية في التاريخ، فضلاً عن التفسير[1].

والواقع أن تلك الأسطورة التي تتردد في المصادر العربية عن الملوك الأربعة الذين حكموا الدنيا بأسرها [3] تتفق والحقائق التاريخية المتعارف عليها، بحال من الأحوال، فأول هؤلاء الملوك، وهو نمرود، والذي يهمنا هنا، قد لا يعلم أصحاب هذه الأسطورة أن التاريخ البابلي لا يعرف ملكاً بهذا الاسم، حتى الآن على الأقل، ولست أدري من أين جاء به أصحابنا المؤرخون الإسلاميون، وأكبر الظن أنهم أخذوه من مسلمة أهل الكتاب، حيث جاء في توراة يهود «وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض... وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكأنه في أرض شنعار»[2]، على أن التاريخ يعرف بلداً باسم «نمرود»، على مجرى الزاب الأعلى، وقد كانت عاصمة للإمبراطورية الآشورية على أيام الملك «سرجون الثاني» (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م)، وهي نفسها مدينة «كالح» في التوراة[3]، والتي أسسها «أشور بانيبال الثاني» عام ٨٨٣ ق. م، وتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، وعلى مبعدة ٢٢ ميلاً جنوب الموصل الحالية، وهكذا خلط كاتب سفر التكوين من التوراة بين الملك والمدينة،

---

(١) انظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٣١ - ٤٣٣، تفسير القرطبي ص ١٠٩٢، تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٨، تاريخ الطبري ١/ ٢٣٣ - ٢٣٤، تاريخ ابن الأثير ١/ ٩٤، أبو الفداء ١/ ١٣، المقدسي ٣/ ٤٥ - ٤٨، تاريخ الخميس ص ٨٩ - ٩١، مروج الذهب ١/ ٥٦، المحبر ص ٣٩٢ - ٣٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ١٤٨.

(٢) تكوين ١٠/ ٨ - ١٠.

(٣) تكوين ١٠/ ٧١١

ثم جاء مؤرخونا ونقلوا ما في التوراة، وكأنه التاريخ الذي يرقى فوق كل هواتف الريبة والشك، وهو غير ذلك بكل مقاييس منهج البحث التاريخي والديني.

هذا فضلاً عن مؤرخينا أنفسهم هم الذين يزعمون أن النمرود إنما كان من الأنباط، الذين لم يستقلوا بشبر واحد من الأرض، ومن ثم فإن النمرود إنما كان عاملاً للضحاك، وهو فارسي، على السواد وما اتصل به يمنة ويسرة[1]، وليت هؤلاء الذين كتبوا ذلك كانوا يعرفون أن الأنباط لم يكونوا في العراق، وإنما في شمال غرب الجزيرة العربية، وأن عاصمتهم إنما كانت «البتراء»، وأنهم أقاموا دولة مستقلة، فيما بين القرنين الثاني قبل الميلاد، وأوائل الثاني بعد الميلاد، حيث استولى الرومان على البتراء عام ١٠٦ م، على أيام «تراجان (٩٨ - ١١٧ م)»، ومن ثم فالفرق الزمني بين عهد الخليل عليه السلام وبين عهد الأنباط، جهد كبير[2].

وأما أن نمرود هذا إنما كان أول من تجبر في الأرض، فليس هناك من دليل يؤكده، أو حتى يعضده، والأمر كذلك إلى بنائه لصرح بابل، بل إن هذا الصرح نفسه في حاجة إلى دليل يؤيد وجوده، وأما أنه أول من ملك في الأرض، فمن المعروف تاريخياً أن مصر إنما كانت أول «أمة» في التاريخ نمت فيها عناصر الأمة بمعناها الكامل الصحيح، وبعدها كانت أول «دولة» بالمعنى السياسي المنظم، نجحت في أن تؤسس أول ملكية عرفتها البشرية على طوال تاريخها وبالتالي فإن الملك «مينا» (نعرمر = عحا) مؤسس الأسرة المصرية الأولى، إنما كان أول ملك في التاريخ، وأن ذلك كان حوالى عام

(١) انظر عن دولة الأنباط (محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم - الرياض ١٩٨٠ ص ٤٩٣ - ٥٢٣ - طبعة ثانية).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ٢٩١ - ١٩٢، الكامل لابن الأثير ١/ ١١٦ - ١١٧، تفسير القرطبي ص ١٠٩٢.

٣٢٠٠ قبل الميلاد، وقبل عهد إبراهيم عليه السلام (١٩٤٠ - ١٧٦٥ ق. م) والذي شرفت مصر بزيارته لها على أيام الملك «سنوسرت الثالث (١٨٧٨ - ١٨٤٣ ق. م) من ملوك الأسرة الثانية عشرة(١٩٩١ - ١٧٨٦ ق. م)، بأكثر من ثلاثة عشر قرناً من الزمان[١].

وأما أنه أول من صلب وقطع الأيدي والأرجل، فيعارضه إن ذلك إنما كان فرعون موسى، كما جاء في القرآن الكريم عن فرعون موسى[٢]، وكما جاء في تفسير النسفي[٥]، هذا إلى وجود تاريخي يصور وسائل التعذيب هذه في زمان فرعون موسى، وقد ورد النص في معبد عمداً، ويرجع إلى السنة الرابعة من عهد الفرعون «مرنبتاح» (١٢٢٤ -١٢١٤ ق. م) وهو الفرعون الذي شاع في الناس أنه فرعون الخروج[٤]، وهذا ما نميل إليه من دراساتنا عن فرعون موسى[٥].

وعلى أية حال، فإن بعض المفسرين إنما يذهبون إلى أن الناس كانوا يمتارون من عند هذا الذي آتاه الله المُلك، الطعام، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار، فإذا مرّ به ناس قال (أي الملك): من ربكم، قالوا أنت، حتى مرّ إبراهيم، قال من ربك، قال: الذي يحي ويميت[٦]، أو كأنه كان قد سأله عن ربه الذي يدعو إلى عبادته، وقد كسر الأصنام التي تعبد من دونه وسفه

---

(١) انظر (محمد بيومي مهران: مصر - الكتاب الأول - الإسكندرية ١٩٨٨ ص ٢٤١ - ٢٧٢ - طبعة رابعة، إسرائيل - الكتاب الأول - الإسكندرية ١٩٧٨ ص ٧٢ - ٨٢، ٩١ - ١٠٤).

(٢) انظر: سورة الأعراف: آية ١٢٣ - ١٢٦، طه: آية ٧١ - ٧٦.

(٣) تفسير النسفي ٢/ ٧٠.

(٤) أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة - القاهرة ١٩٧٣ ص ١١٠، وكذا:
A. Youssef, Merenptah's fourth year Text at Amada, ASAE, L VIII, 1 964, P.273 F.

(٥) محمد بيومي مهران: إسرائيل ١/ ٣٥١ - ٤٣٩.

(٦) تفسير الطبري ٥/ ٤٣٣.

أحلام عابديها لأجله، فأجاب بهذا الجواب، فأنكره الملك الطاغية الذي حكي عنه ادعاء الألوهية لنفسه، وقال «أنا أحي وأميت»، أحي من أحكم عليه بالإعدام بالعفو عنه، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله، فدل جوابه هذا على أنه لم يفهم قول إبراهيم ﷺ [1]، ذلك لأن إبراهيم عليه السلام وهو رسول موهوب موهبة ربانية إنما يعني من الاحياء والاماتة الانشاء، إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاءً، فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه، ولكن الذي حاج إبراهيم في ربه، رأى في كونه حاكماً لقومه، وقادراً على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهراً من مظاهر الربوبية، فقال لإبراهيم: أنا سيد هؤلاء القوم، وأنا المتصرف فيهم وفي شئونهم، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له وتسلم بحاكميته[2].

وقال قتادة وابن إسحاق والسدى وغير واحد: وذلك أنه أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما، فيقتل، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والظاهر والله أعلم، أنه ما أراد هذا، لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم، ولا في معناه، لأنه غير مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يعي لنفسه هذا المقام، عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك، وأنه هو الذي يحي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: «ما علمت لكم من إله غيري»، ولهذا قال إبراهيم، لما ادعى هذه المكابرة: «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب»[3].

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده: لم يقل «فقال إني أحي وأميت»، لأن جوابه مقطع عن الدليل لا يتصل به بالمرة، فإنه أراد أن يكون سبباً للإحياء والإماتة، والكلام في الإنشاء والتكوين، لا في اتخاذ الأسباب والتوسل في

(١) تفسير المنار ١١/ ٣٩.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٨.

(٣) تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٨.

الشيء المكون، فالمراد بالذي يحي ويميت الذي ينشىء الحياة في جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها، ويزيل الحياة بالموت، وعبر ب «الذي» الدال على المعهود المعروف صلته دون «من» التي فيها الإبهام، وبالمضارع الدال على التجدد والاستمرار، الإفادة أن هذا شأنه دائماً، كما هو معهود معروف لمن نظر في الأكوان نظر المفكر المستدل، ولما رأى إبراهيم أنه لم يفهم أن مراده بالذي يحي ويميت مصدر التكوين الذي يحيا كل حيّ بإحيائه، ويموت بقطع إمداده بالحياة «قال إبراهيم فإن الله يأت بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب»، فهذا إيضاح لقوله الأول، وإزالة لشبهة الخصم، لا أنه جواب آخر، كما فهم الجلال وغيره، والمعنى إن ربي الذي يعطي الحياة ويسلبها بقدرته وحكمته، هو الذي يطلع الشمس من المشرق، أي هو المكون لهذه الكائنات بهذا النظام والسنن الحكيمة التي نشاهدها عليها، فإن كنت تفعل كما يفعل، فغيّر لنا نظام طلوع الشمس، وائت بها من الجهة المقابلة للجهة التي جرت سنته تعالى بظهورها منها[1].

وهذا، كما يقول الإمام النسفي، ليس بانتقال من حجة إلى حجة، كما زعم البعض، لأن الحجة الأولى كانت لازمة، ولكن لما عاند اللعين حجة الإحياء، بتخلية واحد وقتل الآخر، كلمة من وجه لا يعاند، وكانوا أهل تنجيم، وحركة الكواكب من المغرب إلى المشرق معلومة لهم، والحركة الشرقية المحسوسة لنا قسرية، كتحريك الماء النمل على الرحى، إلى غير جهة حركة النمل، فقال إن ربي يحرك الشمس قسراً على غير حركتها، فإن كنت رباً فحركها بحركتها، فهو أهون[2]، «فبهت الذي كفر»، ذلك لأن التحدي قائم، والأمر ظاهر، ولا سبيل إلى سوء الفهم أو الجدال أو المراء، وكان التسليم أولى والإيمان أجدر، ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق

(١) تفسير المنار ١١/ ٣٩، وانظر: تفسير الجلالين ص ٥٧.

(٢) تفسير النسفي ١/ ١٣٠.

يمسك بالذي كفر، فيبهت ويبلس ويتحير، ولا يهديه الله إلى الحق، لأنه لم يلتمس الهداية، ولم يرغب في الحق، ولم يلتزم القصد والعدل «والله لا يهدي القوم الظالمين»[1] .

وهذا التنزيل على هذا المعنى، كما يقول الإمام ابن كثير، أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني، انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ترديه، وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني، ويبيّن بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني[2] .

وانطلاقاً من كل هذا، فلا محل للشبهة التي يوردها بعض الناس على حجة إبراهيم عليه السلام، وهي أنه كان للنمرود أن يقول له: إذا كان ربك هو الذي يأتي بالشمس من المشرق، وهو قادر على ما طالبتني به من الاتيان بها من المغرب، فليأت بها يوماً ما، قال بعض المقلدين: ولا يمكن أن يسأل إبراهيم ربه ذلك، لأن فيه خراب العالم، وقال بعض المرتابين: إنه لو قال له نمرود ذلك لألزمه، وقد فهم نمرود، على طغيانه وغروره، من الحجة ما لا يفهم هؤلاء القائلون، فهم أن مراد إبراهيم أن هذا النظام في سير الشمس لا بد له من فاعل حكيم، إذ لا يكون مثله بالمصادفة والاتفاق، وإن ربي الذي أعبده هو ذلك الفاعل الحكيم الذي قضت حكمته بأن تكون الشمس على ما نرى، ومن فهم هذا لا يمكن أن يقول: اطلب من هذا الحكيم أن يرجع عن حكمته ويبطل سنته، كذلك لا محل لقول بعضهم لم سكت إبراهيم عن كشف شبهته الأولى، إذ زعم أن ترك القتل إحياء، فقد علمت أن مسألة الشمس قد كشفت ذلك انكشافاً لا يخفى إلا على من تخفى عليه الشمس[3].

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩٨.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٤٦٩.

(٣) تفسير المنار ١١/ ٤٠.

الفصل الرابع

سر الحياة والموت

كان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام محباً لربه، خالق الناس جميعاً، غاية الحب، محباً للتحدث بما لهذا الرب من قوة، دونها كل قوة، وبما يقدر عليه هذا الرب العظيم، بما لا يقدر عليه مخلوق في الوجود، محباً لإظهار ما خفى من أسرار تلك الوحدانية التي برأت النسم، وخلقت الدنيا من العدم، وتقول للشيء كن فيكون، وبهذا الشوق إلى اجتلاء أسرار القدرة الإلهية، والتحدث بما لله من عظمة وقوة، سأل إبراهيم ربه «رب أرني كيف تحيي الموتى».

قال تعالى: **﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أو لم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾**[1].

يقول الأستاذ الباقوري، طيب الله ثراه، «فأول ما ينبغي أن يبدأ به

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٠، وانظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٨٥ ـ ٥١٢، في ظلال القرآن ١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨، صفوة التفاسير ١/ ١٦٦ ـ ١٦٧، تفسير ابن ناصر السعدي ١/ ١٥٦، تفسير الجلالين ص ٥٧ ـ ٥٨، تفسير القرطبي ص ١١٠٥ ـ ١١١٠، تفسير ابن كثير ١/ ٤٧١ ـ ٤٧٢، تفسير البحر المحيط ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥، تفسير المنار ٣/ ٤٤ ـ ٤٩، علي بن أحمد الواحدي: أسباب النزول ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٣ ـ ٥٥، تفسير النسفي ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣.

الحديث حول هذه الآية الكريمة، هو أن أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام، كان بغير شك مؤمناً بقدرة الله على إحياء الموتى، إيماناً لا يرقى إلى سمائه غبار الشكوك والأوهام، وقد أراد بسؤاله هذا أمراً يزيد إيمانه، ويضاعف يقينه، فأعطاه الله تبارك وتعالى مثالاً من الحس، تتضح به سورة إحياء الموتى، والمعاني المجردة حين توضع في صور تدركها الحواس، تكون أبيّن وأتم وضوحاً.

والذين يتأملون كتاب الله يرونه في مجال إقامة الحجة، يضع المعاني المجردة في صورة حسيّة يزداد بها إيمان المؤمن وتتضح بها لغير المؤمن سبل الإيمان، وهذه الصور الحسية منبثة في القرآن الكريم انبثاثاً، لا يستعصى على رائديه فمن ذلك قول الله عز وجل في سورة الرعد **﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾**، فالمعنى المجرد الذي أشارت إليه هذه الآية هو أن الذين اتخذهم الكافرون أولياء من دون الله يفزعون إليهم، لا يقدرون على جلب النفع لهم، ولا دفع الضرر عنهم، والصورة الحسية لهذه الصورة المعنوية هي أن هؤلاء الكفار في دعائهم آلهتهم هذه، مثلهم كمثل من يبسط كفيه إلى الماء ويريده أن يبلغ فاه، والماء لا يشعر بمن يبسط إليه كفه طلباً للري، ولا يقدر أن يجيب دعاءه فيبلغ فاه، ذلك هو الفرق بين المعنى يذكر مجرداً، والمعنى يذكر في صورة تدركها الحواس.

فإبراهيم عليه السلام كان يطلب صورة حسية تنطوي على المعنى المجرد للإيمان بقدرة الله على إحياء الموتى، وقد أعطاه الله تعالى هذه الصورة، لا لتغرس الإيمان في نفسه، فإن إيمانه موجود لا شك فيه، ولكن لتزيده قوة واستمساكاً، من حيث كانت الصورة الحسية في مجتلى الأعين، تظاهر الصورة المعنوية في أعماق النفوس، ومن أجل هذا أجاب الله تعالى إبراهيم على دعائه قائلاً: **﴿أو لم تؤمن؟﴾** فقال عليه السلام: بلى، يعني

آمنت، ولكنني أطلب ذلك ليطمئن قلبي، يعني ليزيد سكوناً وطمأنينة بمظاهرة المحسوس للمعقول، فتفضل الله عليه بإعطائه الدليل القائم على الحس والعيان، لمظاهرة الدليل القائم على الحجة والبرهان[1].

ويقول صاحب الظلال: إنه التشوف إلى ملامسة سر الصنعة الإلٓهية، وحين يجيء هذا التشوف من إبراهيم الأواه الحليم، المؤمن الراضي الخاشع العابد القريب الخليل، فإنه يكشف عما يختلج أحياناً من الشوق والتطلع لرؤية أسرار الصنعة الإلهية في قلوب أقرب المقربين، إنه تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان وثباته وكماله واستقراره، وليس طلباً للبرهان أو تقوية الإيمان، إنما هو أمر الشوق الروحي إلى ملابسة السر الإلهي في أثناء وقوعه العملي، ومذاق هذه التجربة في الكيان البشري مذاق آخر غير مذاق الإيمان بالغيب، ولو كان إيمان إبراهيم الخليل، الذي يقول لربه، ويقول له ربه، وليس وراء هذا إيمان، ولا برهان للإيمان، ولكنه أراد أن يرى يد القدرة وهي تعمل، ليحصل على مذاق هذه الملابسة فيتروح بها، ويتنفس في جوها، ويعيش معها، وهي أمر آخر غير الإيمان الذي ليس بعده أيمان[2].

هذا وقد اختلف المفسرون في السبب المباشر لتوجيه الخليل هذا السؤال لربه سبحانه وتعالى، فذهب فريق إلى أن إبرهيم عليه السلام مر على دابة ميتة قد توزعتها دواب البر والبحر، قال: «رب أرني كيف تحيي الموتى»، وقال الحسن وعطاء الخرساني والضحاك، فيما يروي الواحدي عن سعيد عن قتادة، وابن جريج: كانت جيفة حمار بساحل البحر (بحيرة طبرية في رواية عطاء) قالوا: فرآها قد توزعتها دواب البر والبحر، فكان إذا مدّ البحر جاءت الحيتان ودواب البحر فأكلت منها، فما وقع منها يقع في

---

(١) أحمد حسن الباقوري: مع القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

الماء، وإذا جذر البحر جاءت السباع فأكلت منها فما وقع منها يصير تراباً، فإذا ذهبت السباع جاءت الطير فأكلت منها، فما سقط قطعته الريح في الهواء، فلما رأى ذلك إبراهيم تعجب منها وقال: يا رب قد علمت لتجمعنها، فأرني كيق تحيّيها لأعاين ذلك.

وقال ابن زيد: مرَّ إبراهيم بحوت ميت، نصفه في البر، ونصفه في البحر، فما كان في البحر فدواب البحر تأكله، وما كان منه في البر فدواب البر تأكله، فقال له إبليس الخبيث: متى يجمع الله هذه الأجزاء من بطون هؤلاء، فقال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، بذهاب وسوسة إبليس منه[1].

وقد أراد الخليل عليه السلام أن يصير له علم اليقين عين اليقين، لأن الخبر ليس كالمعاينة فتطلعت نفسه إلى مشاهدة ميت يحييه ربه، ولم يكن إبراهيم عليه السلام، ولن يكون، شاكاً في قدرة الله تعالى على أحياء الموتى، ولكنه أحب أن يصير له الخبر عياناً، قال الأخفش: لم يرد رؤية القلب ولكن أراد رؤية العين، وقال الحسن البصري وقتادة وسعيد بن جبير والربيع: سأل ليزداد يقيناً على يقينه[2].

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن مسألة إبراهيم ربه ذلك المناظرة والمحاجة التي جرت بينه وبين النمرود في ذلك، قال محمد بن إسحاق بن يسار: إن إبراهيم لما احتج على نمرود فقال: ربي الذي يحيي ويميت، وقال النمرود: أنا أحيي وأميت، ثم قتل رجلاً وأطلق رجلاً، قال: قد أمت هذا، وأحييت هذا، قال له إبراهيم: فإن الله يحيي بأن يرد الروح إلى جسد ميت، فقال له نمرود: هل عاينت هذا الذي تقوله، ولم يقدر أن يقول

---

(١) علي بن أحمد الواحدي النيسابوري: أسباب النزول ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) تفسير القرطبي ص ١١٠٦، وانظر: تفسير الطبري ٥/ ٤٨٥ - ٤٨٦.

نعم رأيته، فتنقل إلى حجة أخرى، ثم سأل ربه أن يريه إحياء الميت لكي يطمئن قلبه عند الاحتجاج، فإنه يكون مخبراً عن مشاهدة وعيان[1].

وذهب فريق ثالث إلى أن ذلك إنما كان عند البشارة التي أتته من الله بأنه اتخذه خليلاً، فسأل ربه أن يريه عاجلاً من العلاقة على ذلك، ليطئمن قلبه بأنه قد اصطفاه لنفسه خليلاً، ويكون ذلك لما عنده من اليقين مؤيداً[2]، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدي: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، استأذن ملك الموت ربه أن يأتي إبراهيم فيبشره بذلك، فأتاه فقال: جئتك أبشرك بأن الله تعالى اتخذك خليلاً، فحمد الله عز وجل وقال: ما علاقة ذلك، قال: أن يجيب الله دعاءك، وتحيي الموتى بسؤالك، ثم انطلق وذهب، فقال إبراهيم: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي بعلمي إنك تجيبني إذا دعوتك، وتعطيني إذا سألتك، إنك اتخذتني خليلاً[3].

على أن هناك وجهاً رابعاً للنظر يذهب إلى أن الخليل عليه السلام قال ذلك لربه، لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى، قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر بن أيوب في قوله: «ولكن ليطمئن قلبي»، قال قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها[4].

وروى ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال: التقي عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو: أي آية في القرآن أرجى عندك، فقال عبدالله بن عمرو «قل يا عبادي الذين أسرفوا

---

(١) تفسير الطبري ٥/ ٤٨٦، الواحدي: المرجع السابق ص ٥٤.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٨٧.

(٣) الواحدي: المرجع السابق ص ٥٥، تفسير الطبري ٥/ ٤٨٧ - ٤٨٨، تفسير القرطبي ص ١١٠٨.

(٤) تفسير الطبري ٥/ ٤٨٩ - ٤٩٠، تفسير الدر المنثور ١/ ٣٣٥.

على أنفسهم» حتى ختم الآية، فقال ابن عباس: لكني أقول قول الله عز وجل: ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى** ﴾، فرضي من إبراهيم قوله «بلى»، قال فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان، وهكذا رواه الحاكم في المستدرك[1].

وقال أبو جعفر في التفسير: وأولى الأقوال عندي بتأويل الآية، ما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم، قال: رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تؤمن»، وأن تكون مسألته ربه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه، ذلك أن إبراهيم لما رأى الحوت الذي بعضه في البر وبعضه في البحر، قد تعاوره دواب البر ودواب البحر وطير الهواء، ألقى الشيطان في نفسه فقال: متى يجمع الله هذا من بطون هؤلاء، فسأل إبراهيم ربه حينئذ أن يريه كيف يحي الموتى ليعاين ذلك عياناً، فلا يقدر بعد ذلك الشيطان أن يلقي في قلبه مثل الذي ألقى فيه عند رؤيته ما رأى من ذلك، فقال له ربه: **أولم تؤمن**؟. يقول: أولم تصدق يا إبراهيم بأني على ذلك قادر، قال بلى يا رب، لكن سألتك أن تريني ذلك ليطمئن قلبي، فلا يقدر الشيطان أن يلقى في قلبي مثل الذي فعل عند رؤيتي هذا الحوت[2].

والحديث الشريف الذي ذكره الطبري في تفسيره، ورد في صحيح البخاري بسنده عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالشك في إبراهيم، إذ قال رب أرني كيف تحيّ الموتى قال أولم تؤمن، قال بلى، ولكن ليطمئن قلبي»[3]، وكذا رواه مسلم في صحيحه بسنده عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٧١ ـ ٤٨٢، المستدرك للحاكم ١/ ٦٠.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٩١ ـ ٤٩٢.

(٣) صحيح البخاري ٦/ ٣٩، فتح الباري ٦/ ٢٩٣ ـ ٣٩٤، ٨/ ١٥٠ ـ ١٥١.

وسعيد المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرني كيف تحيّي الموتى قال أولم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، ، ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت في السجن طول لَبْث يوسف لأجبت الداعي»[1].

فالحديث صحيح إذن، ما في ذلك من ريب، ولكن تفسيره بشك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى تفسير خاطىء فاسد، ما في ذلك من ريب أيضاً، ولعل من أحسن وأصح ما نقل المزني وغيره من قول النبي ﷺ، إن الشك مستحيل في حق إبراهيم، إذ الشك في إحياء الموتى لو كان متطرقاً إلى الأنبياء، لكنت أنا أحق به من إبراهيم، ولقد علمتم أني لم أشك، فاعلموا أن إبراهيم لم يشك، وإنما خص إبراهيم بالذكر لكون الآية قد يسبق إلى بعض الأذهان الفاسدة أن القصد منها احتمال الشك، فنفي ذلك عنه.

وقال الخطابي: ليس في قوله ﷺ: نحن أحق بالشك من إبراهيم، اعتراف بالشك على نفسه، ولا على إبراهيم، لكن فيه نفى الشك عنهما، ومعناه: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقد قال ﷺ ذلك على سبيل التواضع، وكذلك قوله: لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، وفيه الإعلام بأن المسألة من إبراهيم لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبيل زيادة العلم بالعيان، والعيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال[2].

وقال ابن عطية: وما ترجم به الطبري عندي مرود (يعني شك إبراهيم في قدرة الله على إحياء الموتى)، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول

---

(1) صحيح مسلم ١٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣ (دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٩٨١).

(2) محمد حسن عبد الحميد: المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٦.

ابن عباس «هي أرجى آية» ، فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى ، وسؤال الأحياء في الدنيا ، وليست فطنة ذلك ، ويجوز أن يقول : هي أرجى آية لقوله «أو لم تؤمن» أي أن الإيمان كاف لا يحتاج معه إلى تنقير وبحث ، وأما قول عطاء بن أبي رباح «دخل قلب إبراهيم ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حيث المعاينة على ما تقدم، وأما قول النبي ﷺ : «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ، بمعناه أنه لو كان شاكاً لكنا نحن أحق به ، ونحن لا نشك ، فإبراهيم عليه السلام، أحرى ألا يشك ، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم ، والذي روى فيه عن النبي ﷺ أنه قال : «ذلك محض الإيمان» إنما هو في خواطر التي لا تثبت ، وأما الشك فهة توقف بين أمرين ، لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام، وإحياء الموتى إنما يثبت بالسمع ، وقد كان إبراهيم عليه السلام أعلم به ، يدلك على ذلك قوله : «ربي الذي يحيي ويميت» ، فالشك يبعد على من تثبت قدمه من الإيمان فقط، فكيف بمرتبة النبوة والخلة ، والأنبياء معصومون من الكبائر، ومن الصغائر التي فيها رذيلة إجماعاً .

وإذا تأملت سؤاله عليه السلام وسائر ألفاظ الآية لم تعط شكاً ، وذلك أن الإستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود ، متقرر الوجود عند السائل والمسئول ، نحو قولك «كيف علم زيد» ونحو ذلك ، ومتى قلت : كيف زيد، فإنما السؤال عن حال من أحواله ، وقد تكون «كيف» خبراً عن شيء ، شأنه أن يستفهم عنه بكيف ، نحو قولك : كيف شئت فكن ، ونحو قول البخاري : كيف كان بدء الوحي ، و «كيف» من هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء ، والإحياء متقرر ، ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبرون عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصح ، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح ، مثال ذلك أن يقول مدع : أنا أرفع هذا الجبل ، فيقول المكذب له : أرني كيف ترفعه ، فهذه طريقة

مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأن يقول: إفرض أنك ترفعه، فارني كيف ترفعه، فلما كانت عبارة الخليل عليه السلام بهذا الاشتراك المجازي، خلص الله له ذلك، وحمله على أن بيَّن له الحقيقة فقال له: «أولم تؤمن قال بلى»، فكمل الأمر وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

ويقول الإمام القرطبي: هذا ما ذكره ابن عطية، وهو بالغ، ولا يجوز على الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، مثل هذا الشك، فإنه كفر، والأنبياء متفقون على الإيمان بالبعث، وقد أخبر الله أن أنبياءه وأولياءه ليس للشيطان عليهم سبيل، فقال تعالى: **﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**، وقد اللعين: **﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾** وإذا لم يكن له عليهم سلطنة، فكيف يشككهم؟ وإنما سأل أن يشاهد كيفية جمع أجزاء الموتى بعد تفريقها، وإيصال الأعصاب والجلود بعد تمزيقها، فأراد أن يترقى من علم اليقين، فيقول: أرني كيف، طلب مشاهدة الكيفية[1].

ويقول صاحب تفسير المنار: فهم بعض الناس من سؤال إبراهيم عليه السلام أنه كان قلقاً مضطرباً في اعتقاده بالبعث وذلك شك فيه، وما أبلد أذهانهم وأبعد أفهامهم عن إصابة المرمى، وقد ورد في الصحيحين «نحن أولى بالشك من إبراهيم»، أي أننا نقطع بعدم شكه، كما نقطع بعدم شكنا أو أشد قطعاً، نعم ليس في الكلام ما يشعر بالشك، فإنه ما من أحد إلا وهو يؤمن بأمور كثيرة إيماناً يقيناً، وهو لا يعرف كيفيتها، ويوّد لو يعرفها... ذلك لأن طلب المزيد من العلم، والرغبة في إسكانه الحقائق، والتشوق إلى الوقوف على أسرار الخليقة مما فطر الله عليه الإنسان، وأكمل الناس علماً وفهماً أشدهم للعلم طلباً، وللوقوف على المجهولات تشوفاً، ولن يصل أحد

---

(١) تفسير القرطبي ص ١١٠٦ - ١١٠٧.

من الخلق إلى الإحاطة بكل شيء علماً، وقتل كل موجود فقهاً وفهماً، وقد كان طلب الخليل عليه الصلاة والسلام رؤية كيفية إحياء الموتى بعينيه من هذا القبيل، فهو طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه القدسية من معرفة خفايا أسرار الربوبية، لا طلب للطمأنينة في أصل عقد الإيمان بالبعث الذي عرفه بالوحي والبرهان، دون المشاهدة والعيان[1].

وفي صفوة التفاسير: سؤال الخليل ربه بقوله «كيف تحيى الموتى»، ليس عن شك في قدرة الله، ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء، ويدل عليه وروده بصيغة «كيف»، وموضوعها السؤال عن الحال، ويؤيد المعنى قول النبي ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» ومعناه: ونحن لم نشك فلأن لا يشك إبراهيم أحرى وأولى[2].

وهكذا كان إبراهيم عليه السلام،، كما يقول صاحب الظلال، ينشد اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل، واطمئنان التذوق للسر المحجب، وهو يجلي ويتكشف، ولقد كان الله يعلم إيمان عبده وخليله، ولكنه سؤال الكشف والبيان، والتعريف بهذا الشوق وإعلانه، والتلطف من السيد الكريم الودود الرحيم، مع عبده الأواه الحليم المنيب، ولقد استجاب الله لهذ الشوق والتطلع في قلب إبراهيم، ومنحه التجربة الذاتية المباشرة ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهن يأتينك سعياً، واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾، وهكذا أمر الله إبراهيم أن يختار أربعة من الطير، فيقربهن منه ويميلهن إليه، حتى يتأكد من شياتهن ومميزاتهن التي لا يخطىء معها معرفتهن، وأن يذبحهن ويمزق أجسادهن، ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة، ثم يدعوهن فتتجمع أجزاءهن مرة أخرى، وترتد إليهن الحياة، ويعدن إليه ساعيات، وقد كان طبعاً.

(١) تفسير المنار ١١/ ٤٦.

(٢) صفوة التفاسير ١/ ١٦٧.

ورأى إبراهيم السر الإلهي يقع بين يديه، طيوراً فارقتها الحياة، وتفرقت مزقها من أماكن متباعدة، تدب فيها الحياة مرة أخرى، وتعود إليه سعياً، وأما كيف؟ فهذا هو السر الذي يعلو على التكوين البشري إدراكه، إنه قد يراه كما رآه إبراهيم، وقد يصدق به، كما يصدق به كل مؤمن، ولكنه لا يدرك طبيعته ولا يعرف طريقته، إنه من أمر الله، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو لم يشأ أن يحيطوا بهذا الطرف من علمه، لأنه أكبر منهم، وطبيعته غير طبيعتهم، ولا حاجة لهم به في خلافتهم، إنه الشأن الخاص للخالق الذي لا تتطاول إليه أعناق المخلوقين، فإذا تطاولت لم تجد إلا الستر المسدل على السر المحجوب، وضاعت الجهود سدى، جهود من لا يترك السر المحجوب لعلام الغيوب[1].

ويقول الإمام الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب: أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية قطعهن، وعلى أن إبراهيم قطع أجزاءها، وروى أنه عليه السلام أمر بذبحها ونتف ريشها، وتقطيعها جزءاً جزءاً، وخلط دمائها ولحومها، وأن يمسك رؤوسها، ثم أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال، على كل جبل ربعاً من كل طائر ثم يصيح بها «تعالين بإذن الله»، قال الراوي: فأخذ كل جزء يطير إلى الآخر حتى تكاملت الجثث، ثم أقبلت كل جثة إلى رأسها، وانضم كل رأس إلى جثته، وصار الكل أحياء بإذن الله تعالى.

هذا ويقول صاحب مفاتيح الغيب أن الاجماع قد انعقد على ما قاله، ولكن الأستاذ الباقوري يقول: إنه لن يستطيع منصف أن يقبل القول بالاجماع على هذه الصورة، ولا هو يستطيع أن يتصور إجماعاً بغير أن يكون فيه مثل أبي مسلم الأصفهاني، فكيف وأبو مسلم ينكر هذا الذي قيل،

(١) في ظلال القرآن ١/ ٣٠٢.

فيقول: إن إبراهيم عليه السلام لما طلب إحياء الميت من الله تعالى أراه الله تعالى مثالاً قرب به الأمر عليه، وعلينا أن نفهم من الكلمة القرآنية ﴿ **صرهن إليك** ﴾[1] الإمالة والتمرين على الإجابة، يعني جل ثناؤه: خذ أربعة من الطير فمرنها تمريناً تعتاد به إن أنت دعوتها أن تأتيك، فإذا صارت كذلك واعتادته وقبلت التمرين، فاجعل على كل جبل من هذه الطيور الأربعة واحداً حال حياته، ثم ادع الجميع يأتينك سعياً.

وقال أبو مسلم: والغرض ذكر مثال محسوس من عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل السهولة، وأنكر أبو مسلم أن يكون المراد من كلمة «صرهن»: قطعهن، ومضى يحتج لرأيه هذا بوجوه: أولها: أن كلمة «صر» معناها في اللغة: الإمالة، وأما التقطيع والذبح فليس في الآية ما يدل عليه، فكان إدراجه في الآية إلحاقاً وزيادة بغير دليل، وهذا لا يجوز.

وثاني الوجوه: أنه لو كان المراد بكلمة صرهن قطعهن، لم يقل إليك، فإن الكلمة عنيئذ لا تتعدى بحرف إلى، وإنما يتعدى الفعل بهذا الحرف إذا كان بمعنى الإمالة، فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون في الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: فخذ إليك أربعة من الطير فصرهن يعني فقطعهن، قلنا لهذا القائل: إن التزام التقديم والتأخير من غير دليل ملجىء إلى ذلك التزام بغير ملزم، وهو خلاف الظاهر.

وثالث الوجوه: أن الضمير في كلمة «ثم ادعهن» عائد إلى الأربعة من الطير، لا إلى الأجزاء، وإن كانت الأجزاء متفرقة متفاصلة، وكان الموضوع

---

(١) انظر عن معنى «فصرهن إليك» تفسير الطبري ٥/ ٥٩٥ - ٥٠٥، معاني القرآن للفراء ١/ ١٧٤، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٨١، تفسير القرطبي ص ١١٠٩ - ١١١٠، تفسير الجلالين ص ٥٨، تفسير ابن ناصر السعدي ١/ ١٥٦، تفسير النسفي ١/ ١٣٢، تفسير ابن كثير ١/ ٤٧١، صفوة التفاسير ١/ ١٦٦، أبو بكر السجستاني: غريب القرآن ص ٤١ (القاهرة ١٩٨٠).

على كل جبل بعض تلك تلك الأجزاء، لا إليها، وهو خلاف الظاهر، وأيضاً الضمير في كلمة «يأتينك سعياً» عائد إليها، لا إلى الأجزاء.

ويرى الأستاذ الباقوري أن رأي أبي مسلم أدنى إلى القبول بأيسر كلفة، من حيث كان غير محوج إلى تقدير محذوف لفهم الآية، ثم من حيث كانت اللغة نصيراً له أي نصير، فإن هذه المادة تعطي معنى الميل، كما تقول: إني إليكم لأصول، أي مشتاق مائل، ثم يرى أن معنى قوله سبحانه «فصرهن إليك» أملهن إليك ووجهن نحوك، كما يقال: صر وجهك إلي، أي أقبل به عليّ[1].

على أن القائلين بالقول المشهور (أي الذبح وليس الإمالة) قد احتجوا على رأي أبي مسلم بوجوه: الأول: أن كل المفسرين الذي كانوا قبل أبي المسلم أجمعوا على أنه حصل ذبح تلك الطيور وتقطيع أجزائها، فيكون إنكار ذلك إنكاراً للإجماع، والثاني: أن ما ذكره غير مختص بإبراهيم ﷺ، فلا يكون له فيه مزية على الغير، والثالث: أن إبراهيم أراد أن يريه الله كيف يحيى الموتى، وظاهر الآية يدل على أنه أجيب إلى ذلك، وعلى قول أبي مسلم لا تحصل الإجابة في الحقيقة.

والرابع: أن قوله تعالى: ﴿**ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً**﴾، يدل على أن تلك الطيور جعلت جزءاً جزءاً، قال أبو مسلم في الجواب عن هذا الوجه: إنه أضاف الجزء إلى الأربعة، فيجب أن يكون المراد بالجزء هو الواحد من تلك الأربعة، والجواب أن ما ذكرته (أي الرازي) وإن كان محتملاً، إلا أن حمل الجزء على ما ذكرنا أظهر، والتقدير: فاجعل على جبل من كل واحد منهن جزءاً أو بعضاً.

ويقول صاحب المنار: وآية فهم الرازي وغيره فيها، خلاف ما فهمه

(١) احمد حسن الباقوري: مع القرآن ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٩٨ ـ ٢٠٠.

جميع المفسرين من قبله، ولم يقل أحد: إن فهم فئة من الناس حجة على فهم الآخرين، على أن ما فهمه أبو مسلم هو المتبادر من عبارة الآية الكريمة، وما قالوه أخذوه من روايات حكموها في الآية، ولآيات الله الحكم الأعلى، وعلى ما في تلك الرواية هي لا تدل.

وأما قوله: إن ما ذكره أبو مسلم غير مختص بإبراهيم فلا يكون فيه مزية، فهو مردود بأن هذا المثال لكيفية إحياء الله للموتى أو لكيفية التكوين، فيه توضيح لها، وتحديد لما يصل إليه علم البشر من أسرار الخليقة، ولا دليل على أن العلم بذلك كان عاماً بين الناس، فيقال: إنه لا خصوصية فيه لإبراهيم، على أنه يرد مثل هذا الإيراد على حجة إبراهيم على الذي آتاه الله الملك، وحجته على عبدة الكواكب في سورة الأنعام، فإن مثل هذه الحجج التي أيد الله تعالى بها إبراهيم، مما يحتج به الرازي وغيره، فهل ينفى ذلك أن تكون هداية من الله لإبراهيم، وإخراجاً من ظلمات الشبه التي كانت محيطة بأهل زمنه إلى نور الحق[1]، وقد قال الله تعالى: ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء، إن ربك حكيم عليم** ﴾[2].

وأما قوله: إن إجابة إبراهيم إلى ما سأل لا تحصل بقول أبي مسلم، وإنما تحصل بقول الجمهور، فلأمر بعكسه، وذلك أن إتيان الطيور بعد تقطيعها وتفريق أجزائها، من الجبال لا يقتضي رؤية كيفية الإحياء، إذ ليس فيها إلا رؤية كيفية الإحياء، إذ ليس فيها إلا رؤية الطيور، كما كانت قبل التقطيع، لأن الإحياء حصل في الجبال البعيدة، وافرض أنك رأيت رجلاً قتل وقطع إرباً إرباً، ثم رأيته حياً فتقول إذن أنك عرفت كيفية إحيائه، هذا ما يدل عليه قولهم.

---

(١) تفسير المنار ١١/ ٤٨ (القاهرة ١٩٧٣).

(٢) سورة الأنعام: آية ٨٣.

وأما قول أبي مسلم فهو الذي يدل على غاية ما يمكن أن يعرف البشر عن سر التكوين والإحياء، وهو توضيح معنى قوله تعالى للشيء «كن فيكون»، ولولا أن الله تعالى بين لنا ذلك، بما حكاه عن خليله، لجاز أن يطمح في الوقوف على سر التكوين الطامحون، ولو فهم الرازي هذا لما قال: إنه لا خصوصية لإبراهيم على الغير، وهذا النوع من الجواب قريب من جواب موسى، إذ طلب رؤية الله تعالى، ونهى عما زاد على ذلك.

وجملة القول، فيما يرى صاحب تفسير المنار، أن تفسير أبي مسلم للآية هو المتبادر الذي يدل عليه النظم، وهو الذي يجلي الحقيقة في المسألة، فإن كيفية الإحياء هي عين كيفية التكوين في الابتداء، وإنما تكون بتعلق إرادة الله تعالى بالشيء المعبر عنه بكلمة التكوين «كن» فلا يمكن أن يصل البشر إلى كيفية له، إلا إذا أمكن الوقوف على كنه إرادة الله تعالى، وكيفية تعلقها بالأشياء، وظاهر القرآن، وما هو عليه المسلمون، أن هذا غير ممكن، فصفات الله منزهة عن الكيفية، والعجز عن الإدراك فيها، هو الإدراك؛ وهو ما أفاده قول أبي مسلم رحمه الله تعالى، ومما يؤيده في النظم المحكم قوله تعالى: ﴿ثم اجعل﴾ فإنه يدل على التراخي الذي يقتضيه إمالة الطيور وتأنيسها على أن لفظ «صرهن» يدل على التأنيس، ولولا أن هذا هو المراد لقال: فخذ أربعة من الطير فقطعهن، واجعل على كل جبل منهن جزءاً، ولم يذكر لفظ الإمالة إليه، ويعطف جعلها على الجبال ب «ثم»، ويدل عليه أيضاً ختم الآية باسم العزيز الحكيم، دون اسم القدير، والعزيز: هو الغالب الذي لا ينال.

وما صرف جمهور المتقدمين عن هذا المعنى على وضوحه، إلا الرواية بأنه جاء بأربعة طيور من جنس كذا وكذا، وقطعها وفرقها على جبال الدنيا، ثم دعاها فطار كل جزء إلى مناسبه، حتى كانت طيوراً تسرع إليه، فأرادوا تطبيق الكلام على هذا، ولو بالتكلف، وأما المتأخرون فهمهم أن يكون في الكلام خصائص للأنبياء من الخوارق الكونية، وإن كان المقام

مقام العلم والبيان والإخراج من الظلمات إلى النور، وهو أكبر الآيات، ولكل أهل زمن غرام في شيء من الأشياء يتحكم في عقولهم وأفهامهم، والواجب على من يريد فهم كتاب الله تعالى أن يتجرد من التأثر بكل ما هو خارج عنه، فإنه الحاكم على كل شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولله در أبي مسلم ما أدق فهمه، وأشد استقلاله فيه[1].

بقيت الإشارة إلى أن المفسرين قد اختلفوا في هذه الأربعة من الطيور، فذهب ابن إسحاق ومجاهد وابن جريج إلى أنها: الديك والطاووس والغراب والحمام، وقال ابن زيد: قال فخذ أربعة من الطير: قال: فأخذ طاووساً وحماماً وغراباً وديكاً، مخالفة أجناسها وألوانها، وقال ابن عباس: هي الغرنوق والطاووس والديك والحمامة، إلى غير ذلك من آراء، وإن كان لا طائل تحت تعيين هذه الطيور الأربعة، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن[2].

---

(١) تفسير المنار ١١/ ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) تفسير الطبري ٥/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥، تفسير ابن كثير ١/ ٤٧١.

الباب الثالث

سِيرة يُونس عَلَيْهِ السَّلَام



يُونسُ عَلَيْهِ السَّلَام

(١) **قصة يونس عليه السلام**: ـ هو يونس بن متى، وهو اسم أبيه على ما في صحيح البخاري وغيره، وصححه ابن حجر قال: ولم أقف في شيء عن الأخبار على اتصال نسبه[١]، روى البخاري بسنده عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى، ونسبه إلى أبيه»، ورواه أحمد ومسلم وأبو داود من حديث شعبة به، قال شعبة، فيما حكاه أبو داود عنه، لم يسمع قتادة عن أبي العالية سوى أربعة أحاديث هذا أحداها[٢]، وقال ابن كثير في التفسير: وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»، ونسبه إلى أمه[٣]، وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي وائل عن عبدالله قال قال رسول الله ﷺ «لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»[٤]، وقال ابن الأثير وغيره: إنه اسم أمه، ولم ينسب أحد من الأنبياء إلى أمه غيره وغير عيسى عليهما السلام[٥]، وفي العهد القديم دعى «يونان بن

---

(١) تفسير روح المعاني: ١٧/ ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٣٦.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٩٣، وصحيح مسلم: ٧/ ١٠٢، تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢.

(٤) مسند الإمام أحمد: ١/ ٣٩٠، تفسير ابن كثير: ٤/ ٦٣٩.

(٥) تفسير روح المعاني: ١٧/ ٨٣، تاريخ ابن الأثير: ١/ ٣٦٠.

أمتاي»[1] وقد ذكر في القرآن الكريم بيونس وبذي النون، والنون هو الحوت (السمكة)، ويجمع على «نينان» كما في البحر، وأنوان أيضاً، كما في القاموس[2]، ويقول الرازي في التفسير الكبير: إنه لاخلاف في أن ذا النون هو يونس عليه السلام لأن النون هو السمكة، وأن الإسم إذا دار بين أن يكون لقبامحضا، وبين أن يكون مفيداً، فحمله على المفيد أولى، خصوصاً إذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف[3].

هذا وقد ذكر يونس عليه السلام في القرآن باسمه أربع مرات، في سورة النساء (١٦٣) والأنعام (٨٦) ويونس (٩٨) والصافات (١٣٩)، وذكر بالوصف في موضعين، حيث لقبه الله تعالى «بذي النون» (أي الحوت) في سورة الأنبياء (٨٧)، وبصاحب الحوت في سورة القلم (٤٨) لأن الحوت التقمة ثم نبذه، غير أن ذكر النبي الكريم في سورتي الأنبياء والصافات إنما فيه شيء من التفضيل، قال تعالى: **﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿وإن يونس لمن المرسلين، إذ أبق إلى الفلك المشحون، فساهم فكان من المدحضين، فالتقمه الحوت وهو مليم، فلولا أنه كان من المسبحين،**

---

(١) يونان: ١/ ١.

(٢) تفسير روح المعاني: ١٧/ ٨٣، القاموس المحيط: ٤/ ٢٧٦.

(٣) تفسير الفخر الرازي: ٢٢/ ٢١٢.

(٤) سورة الأنبياء: آية ٨٧ - ٨٨، وانظر: تفسير الطبري ١٧/ ٧٦ - ٨٢ (بيروت ١٩٨٤)، تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٩ (بيروت ١٩٨٦)، تفسير النسفي: ٣/ ٨٧ - ٨٨ (دار الفكر - بيروت) تفسير البحر المحيط ٦/ ٣٣٥ - ٣٣٦، تفسير روح المعاني: ١٧/ ٨٢ - ٨٧ (بيروت ١٩٧٨)، صفوة التفاسير للصابوني ٢/ ٢٧٣ (بيروت ١٩٨١)، تفسير الفخر الرازي: ٢٢/ ٢١٢ - ٢١٧، تفسير القرطبي ص ٤٣٦٩ - ٤٣٧٥ وانظر: صحيح البخاري: كتاب الأنبياء ٤/ ١٩٣، صحيح مسلم ٧/ ١٠٢ - ١٠٣.

للبث في بطنه إلى يوم يبعثون، فنبذناه بالعراء وهو سقيم، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون، فآمنوا فمتعناهم إلى حين»[1].

والآيات الكريمة تذكر أن يونس عليه السلام كان مرسلاً إلى قوم، غير أنها لا تذكر أين كان قوم يونس عليه السلام، وإن كان المفهوم أنهم كانوا في بقعة قريبة من البحر، على أن الروايات تذهب في الغالب الأعم إلى أنه أرسل إلى أهل «نينوى»[2] من أرض الموصل بالعراق[3]، وفي السيرة النبوية الشريفة أن «عداسا»، وهو غلام نصراني لعتبة وشيبة ابني ربيعة، قدم لسيدنا رسول الله ﷺ وهو في الطائف، طبقاً من عنب، ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: باسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي أهل البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى، فقال

---

(١) سورة الصافات: آية ١٣٩ - ١٤٨، وانظر: تفسير القرطبي ١٥/ ١٢١ - ١٢٥ (القاهرة ١٩٦٧)، تفسير روح المعاني ٢٣/ ١٤٢ - ١٤٤، تفسير الطبرسي ٢٣/ ٨٣ - ٨٦ (بيروت ١٩٦١)، تفسير الطبري ٢٣/ ٩٨ - ١٠٦ (بيروت ١٩٨٤)، تفسير البيضاوي ٢/ ٢٩٩ - ٣٠٠، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٣ - ١٦٦ (القاهرة ١٩٣٨)، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢ - ٣٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٣١ - ٢٣٧، قصص الأنبياء ١/ ٣٨٠ - ٣٩٨، تفسير النسفي ٤/ ٢٨ - ٣٠، الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥/ ٢٩١ - ٢٩٢، صحيح البخاري - كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿**وإن يونس لمن المرسلين**﴾ ٤/ ١٩٣، صحيح مسلم ٧/ ١٠٢ - ١٠٣ - كتاب الفضائل، باب ذكر يونس عليه السلام.

(٢) نينوى: عاصمة الإمبراطورية الآشورية، وتقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة، على فم رافد صغير يدعى «الخسر» على مبعدة ٢٥ ميلاً من التقاء الدجلة بالزاب، قبالة الموصل، وكان العبرانيون يعممون إسم نينوى ليشمل كل المنطقة حول التقاء الزاب بالدجلة (تكوين ١٠/ ١١ - ١٢، يونان ١/ ٢، ٣/ ٢ - ٧، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ٩٩٠).

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٣، تفسير ابن كثير ٢/ ٦٧٠، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٤، البداية والنهاية ١/ ٢٣٢.

له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى، فقال رسول الله ﷺ: ذاك أخي، كان نبياً، وأنا نبي فأكب عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه[1].

وفي تفسير الفخر الرازي عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين، فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفاً، وبقي سبطان ونصف، فأوحى الله تعالى إلى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب إلى حزقيل الملك، وقل له حتى يوجه نبياً قوياً أميناً، فإني ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني إسرائيل، فقال له الملك: فمن ترى، وكان في مملكته خمسة من الأنبياء، فقال: يونس بن متى، فإنه قوي وأمين، فدعا الملك بيونس وأمره أن يخرج، فقال يونس: هل أمرك الله بإخراجي، قال: لا، قال: فهل سماني لك، قال: لا، قال: فهنا أنبياء غيري، فألحوا عليه فخرج مغاضباً للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوماً هيأوا سفينة فركب معهم[2].

ولعل من الأهمية بمكان الإشارة إلى عدة أمور في هذا النص، منها (**أولاً**) أن الملك الذي غزا قوم يونس في فلسطين ربما كان، فيما نميل إليه ونرجحه، إنما هو «سرجون الثاني» الآشوري (٧٢٢ - ٧٠٥ ق. م)، فهو فيما يحدثنا التاريخ، الملك الذي غزا بني إسرائيل واستولى على السامرة، وسبى منهم تسعة أسباط ونصف[3]، كما أن «نينوى» كانت عاصمة آشور وقت ذاك، غير أن «نينوى» لا يمكن الذهاب إليها عن طريق بحر الروم (البحر المتوسط)، إلا إذا صحت تلك الرواية التي تقول إن الحوت التقمة

(١) انظر: السير النبوية لابن هشام ٢/ ٢٦٦ - تحقيق أحمد حجازي السقا.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٢، وانظر: تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٣.

(٣) ملوك أول ١١/ ٣٥، محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٨٨٤ - ٨٨٦، ٩٤٠ - ١٩٥٠، وكذا

A. G. Lie, The Inscriptions of Sargon, II, Part, I, The Annalas, P. 6.

J. Finegan, op - cit, P. 210. وكذا A. L. Oppenheim, ANET, 1966, P. 284

من ذلك المكان الذي ألقي به فيه من السفينة (والذي ربما كان شمال أيلة أو إيلات على خليج العقبة) ثم انطلق به من ذلك المكان حتى مرّ به على الأيلة، ثم انطلق به حتى مرّ على دجلة، ثم انطلق به حتى ألقاه في نينوى[1] (أي أنه دار به حول شبه الجزيرة العربية من خليج العقبة، فالبحر الأحمر، فخليج عدن، ثم بحر العرب فخليج عمان ثم الخليج العربي، فنهر دجلة ثم نينوى).

ومنها (**ثانياً**) أن النبي شعيب عليه السلام، ربما لا يقصد به هنا شعيب النبي العربي الذي بعث في مدين، وإنما النبي الإسرائيلي أشعياء، وذلك لسببين، **أحدهما**: أن أشعياء كان معاصراً أو قريباً من فترة الغزو الأشوري لإسرائيل حيث كان يعيش في الفترة (٧٣٤ - ٦٨٠ ق. م)، بينما النبي العربي شعيب كان يعيش حوالي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بل إن هناك من يرجح أنه هو نفسه صهر موسى عليه السلام، **وثانيهما**: أن الملك حزقيل المذكور في النص هو الملك اليهودي «حزقيال» (٧١٥ - ٦٨٧ ق. م).

وأياً كان الأمر، فما أن ركب يونس عليه السلام السفينة، ووصلت إلى وسط اللجة حتى ناوأتها الرياح والأمواج وكان هذا إيذانا عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة، وأنه لا بد أن يلقى في الماء لكي تنجو السفينة من الغرق، فاقترعوا على من يلقونه من السفينة، فخرج سهم يونس، وكان معروفاً عندهم بالصلاح، ولكن سهمه خرج بشكل أكيد، فألقوه في البحر، أو ألقى هو نفسه، فالتقمه الحوت وهو مليم[2]، ثم تذهب الرواية بعد ذلك إلى أن الله أنجى يونس، ثم أوحى إليه أن يذهب إلى ملك من أرسل إليهم وأن يطلب إليه أن يرسل معه بني إسرائيل، فقالوا له: ما

---

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٥.

(٢) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٨.

نعرف ما تقول ، ولو علمنا أنك صادق لفعلنا ، ولقد أتيناكم من دياركم وسبيناكم ، فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم ، فطاف ثلاثة أيام يدعوهم إلى ذلك فأبوا عليه ، فأوحى الله تعالى إليه ، قل لهم : إن لم تؤمنوا جاءكم العذاب ، فأبلغهم فأبوا ، فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يصلبونه فلم يقدروا عليه ، ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم ، فقالوا : انظروا واطلبوه في المدينة ، فإن كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء وإن كان قد خرج فهو كما قال ، فطلبوه فقيل لهم إنه خرج العشي ، فلما آيسوا أغلقوا أبواب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم ، وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والأمهات ، ثم قاموا ينتظرون الصبح ، فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها ، وصاح الصبيان ، وثغت الأغنام والبقر، فرفع الله تعالى عنهم العذاب ، فبعثوا إلى يونس عليه السلام فآمنوا به ، وبعثوا معه بني إسرائيل ، فعلى هذا القول ، كما يقول الإمام الرازي ، كانت رسالة يونس عليه السلام ، بعدما نبذه الحوت ، ودليل هذا القول قوله تعالي في الصافات ﴿ **فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ ، وفي هذا القول رواية أخرى ، وهي أن جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام : انطلق إلى أهل نينوى وأنذرهم أن العذاب قد حضرهم ، فقال يونس عليه السلام : التمس دابة ، فقال الأمر أعجل من ذلك ، فغضب وانطلق إلى السفينة ، وباقي الحكاية كما مرت إلى أن التقمه الحوت ، فانطلق إلى أن وصل إلى نينوى ، فألقاه هناك[1] .

على أن هناك وجهاً آخر للنظر يذهب إلى أن قصة الحوت كانت بعد

---

(١) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٢ - ٢١٣ ، تفسير المعاني ١٧/ ٨٣.

دعائه أهل نينوى وتبليغه رسالة الله إليهم ، ولكنهم استعصوا عليه ، فضاق بهم صدراً ، وعاد مغاضباً[1] ، ولم يصبر على معاناة الدعوة معهم ، ظاناً أن الله لن يضيّق عليه الأرض ، فهي فسيحة ، والقرى كثيرة ، والأقوام متعددون ، وما دام هؤلاء يستعصون على الدعوة فسيوجهه الله إلى قوم آخرين ، ذلك معنى «فظن أن لن نقدر عليه» أي أن لن نضيق عليه[2] ، وذلك لأن يونس عليه السلام ظن ، كما يقول الإمام الرازي ، أنه مخيّر إن شاء أقام وإن شاء خرج ، وأنه تعالى لا يضيق عليه في اختياره ، وكان من المعلوم أن الصلاح في تأخر خروجه ، وهذا من الله تعالى بيان لما يجري مجرى العذر له من حيث خرج ، لا على تعمد المعصية ، لكنه لظنه أن الأمر في خروجه موسع يجوز أن يقدم ويؤخر، وكان الصلاح خلاف ذلك[3] .

هذا وقد ظن الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان أنه من القدرة ، فاستشكل ذلك ، إذ لا يظن أحد ، فضلاً عن النبي عليه السلام ، عدم قدرة الله تعالى، وفزع إلى ابن عباس في ذلك[4] ، «روى أن ابن عباس، رضي الله عنهما ، دخل يوماً على معاوية فقال: لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها ، فلم أجد لنفسي خلاصاً إلا بك ، قال: وما هي يا معاوية ، فقرأ الآية ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ فقال: أو يظن نبيّ الله أن لا يقدر عليه ، قال:

---

(١) يقول الألوسي في روح المعاني: وقيل مغاضباً لربه عز وجل، وحكى في هذه المغاضبة كيفيات وتعقب (أبو حيان) ذلك في البحر بأنه يجب إطراح هذا القول، إذ لا يناسب ذلك منصب النبوة ، وينبغي أن يتأول لمن قال ذلك من العلماء كابن مسعود والحسن والشعبي وابن جبير وغيرهم بأن يكون معنى قولهم لربه لأجل ربه تعالى وحمية لدينه ، فاللام لام العلة ، لا اللام الموصولة للمفعول به (روح المعاني ٣/ ٨٣ ـ ٨٤، وانظر أيضاً: تفسير البحر المحيط ٦/ ٣٣٥، تفسير الطبري ١٧/ ٧٦ ـ ١/ ٧، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٤).

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٣ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٥ .

(٤) تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٤.

هذا من القدر لا من القدرة[1]، ويقول الرازي في التفسير الكبير (٢٢/ ٢١٥): من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف في أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى آحاد المؤمنين، فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام.

وعلى أي حال، وكما أشرنا من قبل، فلقد اتجه يونس عليه السلام إلى شاطيء البحر، فوجد سفينة مشحونة فركب فيها، حتى إذا كانت في اللجة ثقلت، وقال ربانها: إنه لا بد من إلقاء أحد ركابها في البحر لينجو سائر من فيها من الغرق، فساهموا فجاء السهم على يونس، فألقوه أو القى هو بنفسه، فالتقمه الحوت[2] وهو مليم، لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها، وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له، وروى عن عبدالله بن رافع مولى أم سلمة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش له لحماً ولا تكسر له عظماً، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسّاً فقال في نفسه ما هذا، فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر، قال: وسبّح وهو في بطن الحوت، فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة، قال: ذلك عبدي يونس عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه من كل يوم وليلة عمل صالح، قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه في الساحل، كما قال الله تعالى «وهو سقيم»، رواه ابن جرير، ورواه البزار في مسنده[3]، وعن عوف الأعرابي قال: لما صار يونس في بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجله، فلما تحركت سجد

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٨٧.

(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢٣٩٣.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧ - ٣٠٨، تفسير الطبري ١٧/ ٨١، ٢٣/ ١٠٠، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٦، ٢٦/ ١٦٥، تفسير القرطبي ص: ٤٣٧٠ - ٤٣٧١.

مكانه، ثم نادى: يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع ما اتخذه أحد[1]، وفي رواية «يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس»[2].

هذا وقد اختلف المفسرون في المدة التي لبثها يونس عليه السلام في بطن الحوت، فقال قتادة: ثلاثة أيام (وهذا ما جاء في العهد القديم)[3]، وقال الإمام جعفر الصادق رضوان الله عليه: سبعة أيام، وروى ابن أبي حاتم عن أبي مالك أنه بقي أربعين يوماً، وعن الضحاك عشرين يوماً، وقيل شهراً، وروى مجاهد عن الشعبي قال: التقمه ضحى ولفظه عشية، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً وأخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه[4].

وعلى أية حال، فما أن أحس النبي الكريم بالضيق في بطن الحوت، حتى سبح الله واستغفره، «فنادى من الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، وقد اختلف أهل التأويل في المعنى بهذه الظلمات، فقال بعضهم: عُني بها ظلمة الليل وظلمه البحر وظلمة بطن الحوت، وقال آخرون: إنما عنى بذلك أنه نادى في ظلمة جوف حوت في جوف حوت آخر، أو لأن الحوت إذا عظم غوصه في قعر البحر كان ما فوقه من البحر في ظلمة، والصواب من القول، عند الطبري، إن الله تعالى أخبر يونس أنه ناداه في الظلمات «أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، ولا شك أنه قد عنى بإحدى الظلمات بطن الحوت، وبالأخرى ظلمة البحر، وفي الثالثة اختلاف: وجائز أن تكون تلك الثالثة ظلمة الليل، وجائز أن تكون

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٨١، ٢٣/ ١٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٧.

(٣) يونان ٢/ ١٧.

(٤) تفسير الطبري ١٧/ ٧٩، ٢٣/ ١٠١، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٥ (بيروت ١٩٧٨)، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢ (بيروت ١٩٨٦)، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٥.

كون الحوت في جوف حوت آخر، ولا دليل يدل على أي ذلك من أي، فلا قول في ذلك أولى بالحق من التسليم لظاهر التنزيل[1]، وأما من قال: إن الحوت الذي ابتلعه غاص في الأرض السابعة، فإن ثبت ذلك بخبر فلا كلام، وإن قيل بذلك لكي يقع نداؤه في الظلمات، فما قدمناه يغني عن ذلك[2].

وإما قوله تعالى **﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾**[3]، فلقد أخرج الإمام أحمد والترمذي والنسائي، والحكيم في نوادر الأصول، والحاكم في المستدرك (وصححه) والبيهقي في الشعب وجماعة عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له»[4]، وفي رواية «ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له»[5]، وعن الحسن البصري: ما نجاه الله تعالى إلا بإقراره عن نفسه بالظلم[6]، وروى ابن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، قال ابن أخي أما تقرأ القرآن قول الله تعالى: **﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً - إلى قوله: وكذلك ننجي المؤمنين ﴾**، ابن أخي، هذا إسم الله الأعظم، إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى[7].

---

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٨٠ (بيروت ١٩٨٤)، وانظر روح المعاني ١٧/ ٨٤.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٦.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٨٧ - ٨٨.

(٤) تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٥.

(٥) تفسير النسفي ٣/ ٨٧، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٦، وأصل الحديث في سنن أبي داود.

(٦) تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٦، تفسير النسفي ٣/ ٨٧.

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٩.

وروى ابن جرير في التفسير بسنده عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك (سعد بن أبي وقاص) يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إسم الله الذي إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى، دعوة يونس بن متى قال: فقلت يا رسول الله: هي ليونس بن متى خاصة، أم لجماعة المسلمين، قال: هي ليونس بن متى خاصة، وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله تبارك وتعالى: **﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾**، فهو شرط الله لمن دعا بها[1].

وروى الإمام أحمد بسنده عن إبراهيم بن محمد بن سعد قال: حدثني والدي محمد عن أبيه سعد هو ابن أبي وقاص (رض) قال: مررت بعثمان بن عفان (رض) في المسجد فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يرد عليّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين هل حدث في الإسلام شيء، مرتين، قال: لا، وما ذاك، قلت: لا، إلا أنني مررت بعثمان آنفاً في المسجد فسلمت عليه فملأ عينيه مني ثم لم يرد السلام، قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه فقال: ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام، قال: ما فعلت، قال سعد قلت بلى حتى حلف وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكر، فقال بلى، واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً، وأنا أحدث نفسي بكلمة سمعتها من رسول الله ﷺ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصري وقلبي غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابي فشغله حتى قام رسول الله ﷺ فأتبعته، فلما أشفقت أن يسبقني إلى منزله، ضربت بقدمي الأرض فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال: «من هذا، أبو أسحاق، قال: قلت: نعم يا رسول الله، قال

(١) تفسير الطبري ١٧/ ٨٢.

«فمه» قلت، لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك، قال: «نعم دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط، إلا استجاب له»[1]، ورواه الترمذي[2] والنسائي: في اليوم والليلة، في حديث إبراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه سعد به[3].

وهكذا استجاب الله تعالى لعبده يونس لأنه كان من قبل من المسبحين، «فلولا إنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون»[4]، روى ابن جرير عن ميمون بن مهران قال: سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره: أذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً، فلما أصابته الشدة دعا الله، فقال الله: ﴿**لولا إنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون**﴾، فذكره الله بما كان منه»[5]، ومن ثم فقد استجاب الله لدعائه فلفظه الحوت على الشاطيء، وكان سقيماً عارياً، قال ابن مسعود: كهيئة الفرخ ليس عليه ريش، وقال ابن عباس والسُّدى كهيئة الضبي حين يولد، وهو المنفرش ليس عليه شيء[6]، وقال ابن زيد: ما لفظه الحوت حتى صار مثل الضبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم، فصار مثل الصبي المنفوس، فألقاه في موضع، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين[7]، والجمهور على أن شجرة اليقطين هي «القرع»، وفائدته أن الذباب لا يجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً وامتداداً، قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتحب

(١) مسند الإمام أحمد ١/ ١٧٠.

(٢) تحفة الأحوذي ٩/ ٤٧٩.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٨، تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٥.

(٤) سورة الصافات: آية ١٤٣ - ١٤٤.

(٥) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٠.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١/ ٢٣٥.

(٧) تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٢.

القرع، قال: «أجل هي شجرة أخي يونس»[1]، قال المبرد والزجاج: اليقطين كل شجر لا يقوم على ساق، وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين، نحو الدُّبَّاء والحنظل والبطيخ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبدالله بن طاوس والسُّدي وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم: اليقطين هو القرع، وعن سعيد بن جبير: اليقطين هو كل شيء ينبت على وجه الأرض ليس له ساق، وفي رواية عنه أيضاً: كل شيء ينبت يموت من عامه[2]، وقد ثبت أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يحب الدُّبَّاء ويتتبعه من حواشي الصفحة[3]، وقال الواحدي: والآية تقتضي شيئين لم يذكرهما المفسرون، **أحدهما**: إن هذا اليقطين لم يكن قبل، فأنبته الله تعالى لأجله، **والآخر**: أن اليقطين كان معروشاً ليحصل له ظل، لأنه لو كان منبسطاً على الأرض لم يكن أن يستظل[4].

وعلى أية حال، فما أن استكمل يونس عليه السلام عافيته حتى رده الله تعالى إلى قومه الذين تركهم مغاضباً، وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه، فآمنوا واستغفروا وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين ﴿**فآمنوا فمتعناهم إلى حين**﴾ وكانوا مائة يزيدون ولا ينقصون، وقد آمنوا أجمعين[5]، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون، هذا وقد اختلف المفسرون في عدد زيادة قوم يونس عن المائة ألف، فعن ابن عباس كانوا

---

(١) تفسير النسفي ٤/ ٢٩.

(٢) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٦، تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤، تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٤.

(٣) انظر: صحيح البخاري ٧/ ٩٨، ١٠٢.

(٤) تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٦.

(٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٩٩.

مائة ألف وثلاثين ألف، وعنه أيضاً مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفاً، وعنه مائة ألف وبضعة وأربعين ألفاً، وعن مكحول إنهم كانوا مائة ألف وعشرة الآف، وعن سعيد بن جبير يزيدون سبعين ألفاً، وعن أبّي بن كعب أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: **﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾** قال: يزيدون عشرون ألفاً، وعند الرازي أن المعنى أو يزيدون في تقديركم بمعنى إنهم إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة[1].

وتنتهي قصة يونس عليه السلام بقوله تعالى: **﴿فآمنوا فمتعناهم إلى حين﴾**[2]، أي متع الله أهل نينوى في مدينتهم مدة إقامة يونس فيهم وبعده آمنين مطمئنين إلى حين، أي إلى الوقت الذي جعله الله تعالى أجلاً لكل واحد منهم، كقوله تعالى جلت عظمته: **﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾**[3].

(٢) **سفر يونان (يونس عليه السلام)**: وكان هذا السفر في العهد القديم بين سفرى عوبديا وميخا، وهو من أسفار الأنبياء الصغيرة، ويتكون من أربع إصحاحات (٤٨ آية)، ولا يقدم لنا العهد القديم إلا أقل المعلومات عن صاحب سفر يونان (Jonah) فكل ما جاء عنه في سفر الملوك الأول (١٤/ ٢٥) إنه النبي «يوناثان بن أمتاي» من «جت حافر»، على مقربة من الناصرة، بأرض الجليل.

هذا ويذهب بعض الباحثين إلى أن يونان إنما كان يعيش في الفترة (٧٨٥ ـ ٧٤٥ ق. م)، وإنه كان نبيّاً قومياً من أنبياء بني إسرائيل على أيام

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤، تحفة الأحوذي ٩/ ٩٧، تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٤، تفسير النسفي ٤/ ٢٩، تفسير الفخر الرازي ٢٦/ ١٦٦.

(٢) سورة الصافات: ماية ١٤٨.

(٣) سورة يونس: آية ٩٨، وانظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٣٤، تفسير الطبري ٢٣/ ١٠٤ - ١٠٥.

ملك إسرائيل «يربعام الثاني» (٧٨٦ ـ ٧٤٦ ق. م)، وإنه أرسل إلى أهل «نينوى» في الفترة (٧٦٥ ـ ٧٥٩ ق. م) في أخريات أيام العاهل الآشوري «أشوردان الثالث» (٧٧١ ـ ٧٥٤ ق. م)[١]، وإما أنه كان نبياً قومياً أو عبرانياً، فذلك ما جاء في السفر نفسه[٢]، وإما إنه كان على أيام يربعام الثاني فهذا ما يخالف ما ذهبنا إليه من قبل (إعتماداً على رواية ابن عباس) من إنه كان نبيّاً إسرائيلياً على أيام الملك «حزقيال» (٧١٥ ـ ٦٨٧ ق. م) والنبي أشعياء (٧٣٤ ـ ٦٨٠ ق. م)، هذا فضلاً عن أن من ذهبوا إلى أن يونان (يونس عليه السلام) كان على أيام يربعام الثاني، لم يقدموا أي دليل يؤيدون به وجهة نظرهم هذه.

وعلى أي حال، فإن العلماء لا يعرفون حتى الآن من الذي كتب سفر يونان هذا في روايته الحالية، كما جاءت في العهد القديم، وإن كانوا يذهبون إلى أنه كتب ربما حوالي عام ٣٥٠ قبل الميلاد، وليس هناك أي دليل يثبت أن يونان هو كاتب هذا السفر الذي يحمل اسمه من بين أسفار العهد القديم[٣].

هذا ويختلف الباحثون كذلك في موضوع السفر نفسه، فهناك فريق يذهب إلى أن كاتب السفر لم يقصد أن يروي قصة تاريخية عن نبي عاش قبله بقرون، وإنما أراد أن يكتب موعظة في قالب قصة، معتمدين في ذلك على

---

(١) حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٢٧ ـ ١٢٩، فؤاد حسنين: المرجع السابق ص ١١٤ ـ ١١٦، وكذا

R. D. Wilson, The Authenticity of Jonah, PTR, 16, P. 280 - 298, 430 - 456

H. C. Trumlull, The Reasons bleness of The Miracle of Jonah, LCR, 1911وكذا

E. W. Heaton, The Old Testament Prophets, 1969, P. 20 - 21وكذا

M. Unger, op - cit, P. 601 - 602.وكذا

(٢) يونان ١/ ٩.

(٣) انظر: محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٥٢ ـ ٥٧.

أسباب منها (**أولاً**): وجود السفر مع الأسفار النبوية، وليس مع الأسفار التاريخية[1]، ومنها (**ثانياً**): ذكره لمعجزات تختلف عن المعجزات المذكورة في الأسفار التاريخية، ولا سيما النبأ المتعلق بالحوت[2]، ومنها (**ثالثاً**): عدم الإتفاق بين ما قيل عن توبة أهل «نينوي»، وما جاء في سفر «ناحوم» ويل لمدينة الدماء، كلها ملآنة كذباً وخطفاً، و«جرحك عديم الشفاء، كل الذين يسمعون خبرك يصفقون بأيديهم عليك»[3]، ومن المعروف أن ناحوم عاش بعد يونان أي أن نبوته كانت حوالي عام (٦٥٠ - ٦٢٥ ق. م)، ومنها (**رابعاً**): ما جاء في سفر إرميا، (والذي عاش في الفترة ٦٢٦ - ٥٨٠ ق. م)[4]، «أكلني أفناني، نبوخذ نصر ملك بابل، جعلني إناء فارغاً، ابتلعني كتنين... وأخرج من فمه ما ابتلعه»[5]، وهذا القول تشبيه بغير شك، ومن ثم فقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن رواية سفر يونان، إنما هي أيضاً تشبيه ليس إلا[6].

على أن هناك فريقاً من الباحثين من المحافظين من شراح العهد القديم إنما يذهب إلى أن سفر يونان هذا، إنما هو سفر تاريخي كتبه «يونان النبي بن أمتاي» من سبط «زبولون» (أحد أبناء يعقوب الإثني عشر) من «جت حافز»، على مبعدة ثلاثة أميال من الناصرة (قرية المسيح عليه

---

(١) انظر عن أسفار الأنبياء والأسفار التاريخية (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٣/ ٣٣ - ٦٠).

(٢) باروخ سبينوزا: المرجع السابق ص ٣٢، حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٢٧، قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١١٢٦ - ١١٢٧، وكذا J. Young, Intraduction to The Old Testament, 1949, P. 257.

(٣) ناحوم ٣/ ١٩.

(٤) انظر عن سفر إيرميا وعصره (محمد بيومي مهران: إسرائيل ٢/ ٩٩٧ - ١٠١٢، ٣/ ٤٤ - ٤٧).

(٥) إرميا ٥١/ ٣٤، ٤٤.

(٦) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١١٢٧.

السلام)، ويؤيد هذا الفريق وجهة نظره هذه بعدة أدلة، منها (**أولاً**): أن السفر لا يقول «صار قول الرب إلى إنسان»، وإنما يقول «صار قول الرب إلى يونان بن أمتاي»(1)، فالخطاب هنا موجه إلى شخص معين بذاته، ومنها (**ثانياً**): ما جاء في كلام السيد المسيح «لأنه كما كان يونان في بطن الحوت... رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه، لأنهم تابوا بمناداة يونان وهوذا الأعظم من يونان ههنا»، ومنها (**ثالثاً**): أن نبأ الحوت ليس من الحكايات التي غايتها أن تثير فضول الناس ودهشتهم، بل غايته الرمز إلى موت المسيح وقيامته، وأما بخصوص توبة أهل نينوى فمن المحتمل إنهم تابوا توبة وقتية فقط، ولعل هذا السفر من عداد الأسفار النبوية، لأن ما ورد فيه إنما يرمز إلى أمور مستقبلية(2).

والرأي عندي أن «قصة الحوت» التي جاءت في سفر يونان(3) هذا، والتي ثار حولها جدل طويل بين علماء التوراة وشراحها، ليس كما يزعم بعض الباحثين المحدثين، قصة رمزية أو رواية تمثيلية في قالب تاريخي(4)، وإنما هي دونما أي ريب، وبكل يقين المسلم وإيمانه بما جاء في كتاب الله(5)، وحديث المعصوم سيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ(6) كما رأينا من قبل، إنما هي قصة تاريخية حقيقية، لأنها فيما نعتقد ونؤمن به الإيمان كل

---

(1) يونان ١/ ١.

(2) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١١٢٦ - ١١٢٧، محمد بيومي مهران: أسرائيل ٣/ ٥٢ - ٥٦.

(3) يونان ١/ ١ - ٢/ ١٠.

(4) قاموس الكتاب المقدس ٢/ ١١٢٦، حبيب سعيد: المرجع السابق ص ١٢٧.

(5) انظر: سورة يونس: آية ٩٨، الأنبياء: آية ٨٧ - ٨٨، الصافات: آية ١٣٩ - ١٤٨، سورة القلم: آية ٤٨.

(6) انظر: تفسير روح المعاني ١٧/ ٨٥، تفسير النسفي ٣/ ٨٧، تفسير الفخر الرازي ٢٢/ ٢١٦، تفسير الطبري ١٧/ ٨٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٣٠٨، مسند الإمام أحمد ١/ ١٧٠، تحفة الأحوذي ٩/ ٤٧٩.

الإيمان ، إنما تمثل معجزة نبيّ ، والمعجزة فيما نعلم ، قوى إلهية يعجز البشر عن الإتيان بمثلها ، والحصول على نظير لها ، ولا تأتي إلا في مقام التحدي والإعجاز ، وهي ، كغيرها من معجزات الأنبياء ، من عمل سبحانه وتعالى ، ولا لأحد فيها سواه ، جلّ جلاله ، فليس لنبيّ يد في الخوارق التي بهرت الناس ، وقهرت الخلق ، وقامت أدلة صادقة على صدق من ظهرت على أيديهم في أنهم مبلغون عن الله سبحانه وتعالى[1] ، ومن هذا النوع كانت معجزة الحوت لسيدنا يونس (يونان) عليه السلام كما رأينا من قبل .

(١) محمد الصادق عرجون : معجزات الأنبياء بين العقل والعلم ـ الإسكندرية ١٩٥٥ ص ٢ ، وانظر عن المعجزة وشروطها : تفسير القرطبي ص ٧٠ ـ ٧٢ (القاهرة ١٩٦٩) .

المراجع المختارة[1]

أولاً:

١ ـ القرآن الكريم.

ثانياً ـ كتب الحديث:

٢ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل(١٠ أجزاء)، للألباني، بيروت ١٩٧٩.

٣ ـ إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، للقسطلاني، بيروت ١٣٢٣ هـ.

٤ ـ الجامع الصحيح، للترمذي، المدينة المنورة ١٩٦٧.

٥ ـ الجامع الصغير، للسيوطي، القاهرة ١٩٥٤.

٦ ـ الجامع الكبير، للسيوطي، القاهرة ١٩٦٩.

٧ ـ السنن الكبرى، للبيهقي، حيدر أباد ١٣٤٧ هـ.

٨ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، حيدر أباد ١٣٣٥ هـ.

٩ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير، دمشق ١٩٧٤.

(١) هذه المراجع المختارة تختص بالأجزاء: الثاني والثالث والرابع، من هذه السلسلة (دراسات تاريخية من القرآن الكريم)، وأما الجزء الأول فقد ذكرت مراجعه في آخره.

١٠ ـ تهذيب الآثار ـ مسند عبدالله بن عباس (جزءان)، للطبري، القاهرة ١٩٨٢.
١١ ـ تهذيب الآثار ـ مسند عمر بن الخطاب، للطبري، القاهرة ١٩٨٣.
١٢ ـ تهذيب الآثار ـ مسند علي بن أبي طالب، للطبري، القاهرة ١٩٨٣.
١٣ ـ سنن ابن ماجه، القاهرة ١٩٧٢.
١٤ ـ سنن أبي داود (جزءان)، القاهرة ١٩٥٢.
١٥ ـ سنن النسائي، القاهرة ١٩٦٤.
١٦ ـ صحيح البخاري (٩ أجزاء)، القاهرة ١٣٨٦ هـ.
١٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووي (١٨ جزءاً)، بيروت ١٩٨١.
١٨ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، القاهرة ١٩٥٩.
١٩ ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي، حلب ١٣٩٩ هـ.
٢٠ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي، بيروت ١٩٦٧.
٢١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، بيروت ١٩٦٩.
٢٢ ، موطأ الإمام مالك، القاهرة ١٩٧٠.
٢٣ ـ المعجم الصغير، للطبراني، المدينة المنورة ١٩٦٨.
٢٤ ـ المعجم الكبير، للطبراني بغداد ١٤٠٤ هـ.
٢٥ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخبار (٨ أجزاء)، للشوكاني، القاهرة ١٩٨٠.

ثالثاً ـ كتب التفسير:

٢٦ ـ تفسير ابن كثير، (تفسير القرآن العظيم)، (٤ أجزاء)، بيروت ١٩٨٦.
٢٧ ـ تفسير أبي السعود، (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، القاهرة ١٣٤٧ هـ.

٢٨ ـ تفسير الألوسي، (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، بيروت ١٩٧٨.
٢٩ ـ تفسير البيضاوي، (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، القاهرة ١٩٦٨.
٣٠ ـ تفسير الخازن، (لباب التأويل في معاني التنزيل)، القاهرة ١٩٥٥.
٣١ ـ تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق عوامل التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل)، القاهرة ١٩٦٦.
٣٢ ـ تفسير الصابوني، (صفوة التفاسير)، بيروت ١٩٨١.
٣٣ ـ تفسير الطبرسي، (مجمع البيان في نفسير القرآن)، بيروت ١٩٦١.
٣٤ ـ تفسير الطبري، (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، القاهرة ٥٧/ ١٩٦٠.
٣٥ ـ تفسير السيوطي، (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، طهران ١٣٧٧ هـ.
٣٦ ـ تفسير سيد قطب، (في ظلال القرآن)، بيروت ١٤٠٠ هـ.
٣٧ ـ تفسير الجلالين، بيروت ١٤٠٢ هـ.
٣٨ ـ تفسير الفخر الرازي، (التفسير الكبير)، القاهرة ١٩٣٨.
٣٩ ـ تفسير القرطبي، (الجامع لأحكام القرآن)، القاهرة ١٩٧٠.
٤٠ ـ تفسير المنار، (تفسير المنار، (تفسير القرآن الحكيم)، القاهرة ٧٣/ ١٩٧٥.
٤١ ـ تفسير القاسمي، (محاسن التأويل)، القاهرة ١٩٥٧.
٤٢ ـ تفسير طنطاوي جوهري، (الجواهر في تفسير القرآن الكريم)، القاهرة ١٩٧٤.
٤٣ ـ تفسير ابن حبان، (تفسير البحر المحيط)، بيروت ١٩٨٣.
٤٤ ـ تفسير ابن ناصر السعدي، (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، مكة المكرمة ١٣٩٨ هـ.

٤٥ ـ تفسير النسفي، (مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، بيروت ١٩٨٠ .
٤٦ ـ تفسير محمد عزه دروزة، (التفسير الحديث)، القاهرة ١٩٦٣ .
٤٧ ـ تفسير ابن عطية، (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، الرباط ١٩٧٩ .
٤٨ ـ تفسير الرازي، (مفاتيح الغيب)، بيروت ١٩٧٠ .
٤٩ ـ تفسير ابن العربي، (أحكام القرآن)، القاهرة ١٩٥٧ .
٥٠ ـ تفسير النيسابوري، (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، القاهرة ١٣٨١ هـ.
٥١ ـ تفسير الجصاص، (أحكام القرآن)، القاهرة ١٩٥٩ .
٥٢ ـ تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير في كتب السنة، مكة المكرمة ١٩٨٦ .

رابعاً ـ المراجع العربية :

٥٣ ـ التوراة، طبعة دار الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٧٠ .
٥٤ ـ إبراهيم خليل: إسرائيل والتلمود، القاهرة ١٩٦٧ .
٥٥ ـ أبكار السقاف: إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة، القاهرة ١٩٦٧ .
٥٦ ـ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت ٧١٩٦٥
٥٧ ـ ابن تيمية: مجموع فتاوى ابن تيمية، (٣٧ جزءاً)، الرياض ١٣٨٢ هـ.
٥٨ ـ ابن تيمية: كتاب النبوات، بيروت ١٩٨٢ .
٥٩ ـ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة ١٩٦٤ .
٦٠ ـ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، بيروت ١٩٧١ .
٦١ ـ ابن سعد: الطبقات الكبرى، القاهرة ١٩٦٨ .
٦٢ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٦٦ .
٦٣ ـ أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥ هـ.

٦٤ ـ أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠ أجزاء)، بيروت ١٩٨٥.
٦٥ ـ الدكتور أحمد بدوي: في موكب الشمس (جزءان)، القاهرة ١٩٥٢.
٦٦ ـ أحمد حسن الباقوري: مع القرآن، القاهرة ١٩٧٠.
٦٧ ـ الدكتور أحمد شلبي: اليهودية، القاهرة ١٩٦٧.
٦٨ ـ الدكتور أحمد عبد الحميد يوسف: مصر في القرآن والسنة، القاهرة ١٩٧٣.
٦٩ ـ الدكتور أحمد فخري: دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة ١٩٦٣.
٧٠ ـ الدكتور أحمد فخري: مصر الفرعونية، القاهرة ١٩٧١.
٧١ ـ الدكتور إسرائيل ولفنسون: ناريخ اليهود في بلاد العرب، القاهرة ١٩٢٧.
٧٢ ـ الدكتور إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية، القاهرة ١٩٢٩.
٧٣ ـ الدكتور إسماعيل راجي الفاروقي: أصول الصهيونية في الدين اليهودي، القاهرة ١٩٦٤.
٧٤ ـ الشهرستاني: الملل والنحل، القاهرة ١٩٦٨.
٧٥ ـ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، القاهرة ٤٥/ ١٩٥١.
٧٦ ـ الثعلبي: قصص الأنبياء ـ المسمى عرائس المجالس، القاهرة ـ
٧٨ ـ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، بيروت ١٩٧٥.
٧٩ ـ الدكتور التهامي نقرة: سيكولوجية القصة في القرآن، تونس ١٩٧٤.
٨٠ ـ العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة ١٩٢٤.
٨١ ـ الدكتور السيد يعقوب بكر: أوفير (من كتاب العرب والملاحة في المحيط الهندي)، القاهرة ١٩٥٨.

٨٢ ـ الطبري : تاريخ الطبري ، (تاريخ الرسل والملوك) ، القاهرة ١٩٦٧ .
٨٣ ـ المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، بيروت ١٩٧٣ .
٨٤ ـ المقدسي : كتاب البدء والتأريخ ، باريس ٣/ ١٩٠٧ .
٨٥ ـ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ .
٨٦ ـ باهور لبيب : لمحات من الدراسات المصرية القديمة ، القاهرة ١٩٤٧ .
٨٧ ـ الدكتور جمال حمدان : شخصية مصر ، القاهرة ١٩٧٠ .
٨٨ ـ الدكتور جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ٦٨/ ١٩٧١ .
٨٩ ـ حبيب سعيد : خليل الله في اليهودية والمسيحية والإسلام ، القاهرة ـ .
٩٠ ـ الدكتور حسن ظاظا : القدس مدينة الله ، أم مدينة داود؟ ، القاهرة ١٩٧٠ .
٩١ ـ الدكتور حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ، القاهرة سنة ١٩٧٠ .
٩٢ ـ الدكتور حسن ظاظا : الفكر الديني الإسرائيلي ، القاهرة ١٩٧١ .
٩٣ ـ حسين ذو الفقار : توراة اليهود ـ المجلة العدد ١٥٧ ، القاهرة ١٩٧٠ .
٩٤ ـ حسين ذو الفقار : إله موسى في توراة اليهود ـ المجلة العدد ١٦٣ ، القاهرة ١٩٧٠ .
٩٥ ـ الدكتور رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا (جزءان) ، بيروت ٨/ ١٩٦٩ .
٩٦ ـ الدكتور سليم حسن : مصر القديمة (١٦ جزءاً) ، القاهرة ٤٠/ ١٩٦٠ .
٩٧ ـ شاهين مكاريوس : تاريخ الأمة الأسرائيلية ، القاهرة ١٩٠٤ .
٩٨ ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة (جزءان) ، بغداد ١٩٥٥ .
٩٩ ـ عباس محمود العقاد : إبراهيم أبو الأنبياء ، القاهرة ـ .

١٠٠ ـ عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، القاهرة ١٩٦٥ .
١٠١ ـ عباس محمود العقاد : الإسلام دعوة عالمية ، القاهرة ١٩٧٠ .
١٠٢ ـ الدكتور عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، القاهرة ١٩٦٦ .
١٠٣ ـ الدكتور عبد الحميد زايد : الشرق الخالد ، القاهرة ١٩٦٦ .
١٠٤ ـ الدكتور عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ، القاهرة ١٩٧٤ .
١٠٥ ـ عبد الرحيم فودة : في معاني القرآن ، القاهرة .
١٠٦ ـ الدكتور عبد العزيز صالح : الشرق الأدنى القديم ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٠٧ ـ عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ، القاهرة ١٩٦٦ .
١٠٨ ـ عصام الدين حفني ناصف : محنة التوراة على أيدي اليهود ، القاهرة ١٩٦٥ .
١٠٩ ـ الدكتور عويد المطرفي : داود وسليمان في القرآن والسنة ، مكة المكرمة ١٩٧٩ .
١١٠ ـ الدكتور محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم ، الإسكندرية ١٩٦٨ .
١١١ ـ الدكتور محمد الطيب النجار : تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية ، الرياض ١٩٨٣ .
١١٢ ـ الدكتور محمد بيومي مهران : مصر (جزءان) ، الإسكندرية ١٩٨٢ .
١١٣ ـ الدكتور محمد بيومي مهران : حركات التحرير في مصر القديمة ، القاهرة ١٩٧٦ .
١١٤ ـ الدكتور محمد بيومي مهران : إخناتون ، القاهرة ١٩٧٩ .
١١٥ ـ الدكتور محمد بيومي مهران : الحضارة المصرية القديمة ، الإسكندرية ١٩٨٤ .
١١٦ ـ الدكتور محمد بيومي مهران : إسرائيل (أربعة أجزاء) ، الإسكندرية ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩ .

١١٧ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل، الإسكندرية ١٩٧٩.
١١٨ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، الرياض ١٩٧٧.
١١٩ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: الديانة العربية القديمة، الإسكندرية ١٩٧٨.
١٢٠ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: دراسات تاريخية من القرآن الكريم (أربعة أجزاء)، بيروت ١٩٨٨.
١٢١ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، الرياض ١٩٧٥.
١٢٢ ـ الدكتور محمد بيومي مهران: في رحاب النبي وآل البيت الطاهرين (خمسة أجزاء)، تحت الطبع.
١٢٣ ـ محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، القاهرة ١٩٤٧.
١٢٤ ـ محمد رشيد رضا: تفسير سورة يوسف، القاهرة ١٩٣٦.
١٢٥ ـ الدكتور محمد سيد طنطاوي: بنو إسرائيل في القرآن والسنة (جزءان)، القاهرة ٨/ ١٩٦٩.
١٢٦ ـ محمد عزة دروزة: تاريخ بين إسرائيل من أسفارهم، بيروت ١٩٦٩.
١٢٧ ـ محمد علي الصابوني: النبوة والأنبياء، بيروت ١٩٨٠.
١٢٨ ـ محمد مبروك نافع: عصر ما قبل الإسلام، القاهرة ١٩٥٢.
١٢٩ ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي: الفتاوي (١٠أجزاء في مجلدين)، بيروت ١٩٨١.
١٣٠ ـ الدكتور محمود بن الشريف: الأديان في القرآن، جدة ١٩٧٩.

١٣١ ـ محمود الشرقاوي: الأنبياء في القرآن الكريم، القاهرة ١٩٧٠.
١٣٢ ـ الشيخ محمد شلتوت: الفتاوى ـ ط ثالثة، القاهرة
١٣٣ ـ مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، النجف ١٣٨٨ هـ.
١٣٤ ـ الدكتور مراد كامل: الكتب التاريخية في العهد القديم، القاهرة ١٩٦٨.
١٣٥ ـ الدكتور نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم (٦أجزاء)، الإسكندرية ١٩٦٦.
١٣٦ ـ الدكتور محمد عبد القادر محمد: قصة الطوفان في أدب بلاد الرافدين، القاهرة ١٩٦٥.
١٣٧ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان (٥أجزاء)، بيروت ٥٥/ ١٩٥٧.
١٣٨ ـ قاموس الكتاب المقدس (جزءان)، بيروت ٦٤/ ١٩٦٧.
١٣٩ ـ مجلة سومر ـ المجلد السابع ـ، بغداد ١٩٥١.

خامساً ـ المراجع المترجمة:

١٤٠ ـ باروخ سبينوزا: رسالة في اللاهوت والسياسة ـ ترجمة حسن حنفي، القاهرة ١٩٧١.
١٤١ ـ جرني: الحيثيون ـ ترجمة محمد عبد القادر محمد، القاهرة ١٩٦٣.
١٤٢ ـ جون الدر: الأحجار تتكلم ـ ترجمة عزت زكي، القاهرة ١٩٦٠.
١٤٣ ـ ج. كونتنو: الحضارة الفينيقية ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيره، القاهرة
١٤٤ ـ جان يويوت: مصر الفرعونية ـ ترجمة سعد زهران، القاهرة ١٩٦٦.
١٤٥ ـ جورج فضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي ـ ترجمه وزاد عليه: يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨.

١٤٦ ـ جوستاف لوبون: اليهود في الحضارات القديمة ـ ترجمة عادل زعيتر، القاهرة ١٩٦٧.
١٤٧ ـ جيمس فريزر: الفلكلور في العهد القديمة ـ ترجمة نبيلة إبراهيم، القاهرة ١٩٧٢.
١٤٨ ـ جيمس هنري برستد: تاريخ مصر ـ ترجمة حسن كمال، القاهرة ١٩٢٩.
١٤٩ ـ جيمس هنري برستد: فجر الضمير ـ ترجمة سليم حسن، القاهرة ١٩٥٦.
١٥٠ ـ جيمس هنري برستد: تطور الفكر والدين في مصر ـ ترجمة زكي سوسن، القاهرة ١٩٦١.
١٥١ ـ سبتينو موسكاتي: الحضارات السامية القديمة ـ ترجمه وزاد عليه يعقوب بكر، القاهرة ١٩٦٨.
١٥٢ ـ صمويل نوح كريمر: من ألواح سومر ـ ترجمة طه باقر، القاهرة ١٩٥٧.
١٥٣ ـ صويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم ـ ترجمة أحمد عبد الحميد، القاهرة ١٩٧٤.
١٥٤ ـ فيلب حتى: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت ١٩٥٨.
١٥٥ ـ م. سيجال: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل ـ ترجمة حسن ظاظا، بيروت ١٩٦٧.
١٥٦ ـ وليم أولبرايت: آثار فلسطين ـ ترجمة زكي اسكندر ومحمد عبد القادر، القاهرة ١٩٧١.
١٥٧ ـ ول ديورانت: قصة الحضارة ـ ترجمة محمد بدران، القاهرة ١٩٦١.

١٥٨ - يوسفيوس : تاريخ يوسفيوس ، بيروت
١٥٩ - دائرة المعارف الإسلامية - دار الشعب ، القاهرة ٦٩/ ١٩٧٢ .

سادساً - المراجع الأجنبية :

160. Albiright, (W.F), the Archaeology of Palestine, London, 1949.
161. Albiright,(W.F.), the Bible and the Ancient near east, London, 1961.
162. Albiright, (W.F.), the Bilblical period from Abraham to Ezra, N.Y.1963.
163. Barton (G.A.), Archaeology and the Bible, 1937.
164. Baron, (S.W.), A social and religious history of the Jews, N.Y.1967.
165. Bulber, (M.), moses, Oxford, 1946.
166. Budge (E.A.), The Babylonian story of the deluge and the epic of Gilgamesh, 1920.167. Burney (C.F.),Israel's settlement in canaan, London, 1918.
168. Cook (S.A.), in CAH, III, Cambridge, 1965[3]
169. Davies (A.P.), the ten commandment, N.Y.1965.170. Dhorme (E), La religion des hebreux Nomades, Bruxelles, 1937.
171. Dimont, (M.), Jeuis god and history, N.Y.1956.
172. Eliade (M.), Traite d'histoire des religions, paris, 1964.
173. Eissfeldt (O.) the hebrew kingdom, in CAH,II,Part, 2, 1975.
174. Finegan (J.) light from the ancient past, I, Princeton, 1969.
175. Gray (J.) Near eastern mythology, N.Y.1969.
176. Epstein (R.I.), Judaism, 1970.
177. Freud (S.), moses and monotheism, N.Y.1939.
178. Faster (C.K.), A history of the hebrew people, London,1940.
179. Gardiner, (A.H.) the geography of the exodus, in JEA,10,1924.
180 Gardiner, (A.H.) Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964.
181. Gastring (J.) Jashua, Judge, the faundations of the bible history London 1O31.
182. Glueck (N), the other side of Jardan, New haven, 1945.

183. Glueck (N.) the Excavations of soloman's seaport, Ezian Gaber, STAR, 1941.
184. Guillaume, prophecy and divination among the hebrews and other semeites, London 1938.
185. Hall, (H.) the ancient history of near east, london, 1963.
186. Hastings, (J.), A dictionary of the bible, edinburgh, 1936.
187. Heaton,(E.W.) the old testament prophets, 1969.
188. James (E.O.), mythes et rites dans le proche-orient, Paris 1960.
189. Keller (W) the bible as history, 1967.
190. Kenyon (K.M.), Archaeology in the holy land, London 1970.
191. Kramer (S. A), sumerian mythology, 1944.
192. Krmer (S.A.), The deluge, in ANET, 1966.
193. Lods (A), Israel, from the beginnings to the middle of the eight century, London, 1962.
194. Malamat (A.) the last wars of the kingdom of judah, JNES, 9,1950.
195. Malamat (A.) Aspects of the foreign policies of david and solaman, JNES,22,1963.
196. Montet (P.), L'Egypte et la bible, Neuchatel, 1959.
197. Myres (J.L.), king soloman's temple and other buldings and works of art, PEQ,80,1948.
198. Manille, (E.), the Geography of the exadus, JEA.,I,1924.
199. Noth (m.) the history of Israel, London, 1965.
200. Oesterley (W.O.E.) Egypt and Israel, in the legacy of egypt, Oxford, 1948.
201. Oppenheim, (A.L.), Babyloniam and Assyrian historical texts in ANET, 1966.
202. Parker (J.), A, history of the Jewish people, London, 1964.
203. Petrie (W.F), Egypt and Israel, London 1955.
204. Renan (E.) histoire du peuple d'Israel, Paris, 1887.
205. Rowley (h.), From Joseph to joshua, London, 1O2T.
206. Raui (G.), Ancient Iraq 1966.
207. Saggs (H. F.), The Creatness that was babylon, London, 1962.
208. Saller (S.L.), the memorial of moses on maunt nebo, 2 vols, London, 1941.

209. Sollberger (E.), The Flood, London, 1962.
210. Unger (M.F.), unger's bible dictionary, chicago, 1970.
211. Waterman (L.), the treasuries of soloman's private chapel, in JNES,6,1947.
212. Woolley (L.), Ur of the chaldees, 1938.
213. Wolley (L.), excavations at ur, London, 1963.
214. Wright (G.E), the bible and the ancient near east, N.Y.1965.
215. Yadin (Y.) new light on Soloman's mejiddo, BA,23,1963.
216. Yeiuin (G.E.), the sepulchers of the kings of the house of david, in JNES,7,1948.
217. Encyclopaedia Biblica.
218. Encyclopaedia Britanica.
219. Encyclopaedia of Islam.
220. Encyclopaedia of religion and Ethics.
221. The Jewish Encyclopaedia, N.Y. 1903.
222. Historical Atlas of the holy land, N.Y.1959.
223. The Westminester historical Atlas to the bible philadelphia, 1946.



مؤلفات

الأستاذ الدكتور

محمد بيومي مهران

أستاذ تاريخ مصر والشرق القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

أولاً - في التاريخ المصري القديم :

١ - الثورة الاجتماعية الأولى في مصر الفراعنة الاسكندرية ١٩٦٦ .
٢ - مصر والعالم الخارجي في عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩
٣ - حركات التحرير في مصر القديمة - دار المعارف القاهرة ١٩٧٦ (وهو الجزء الثالث من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)
٤ - أخناتون : عصره ودعوته الاسكندرية ١٩٧٩ (وهو الجزء الرابع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)
٥ - مصر الكتاب الأول - التاريخ الاسكندرية ١٩٨٢
٦ - مصر الكتاب الثاني - التاريخ الاسكندرية ١٩٨٤ وهما الجزءان الأول والثاني من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم) .
٧ - الحضارة المصرية القديمة الاسكندرية ١٩٨٤ (وهو الجزء الخامس من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

ثانياً ـ في تاريخ اليهود القديم :

٨ ـ دراسات في تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٣ الاسكندرية ١٩٧٠

٩ ـ دراسات في تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٢) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٤ الاسكندرية ١٩٧٠

١٠ ـ دراسات في تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٣) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٥ الاسكندرية ١٩٧٠

١١ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (١) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٦ الاسكندرية ١٩٧١

١٢ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والأسطورة (٢) ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١

١٣ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١

١٤ ـ أخلاقيات الحرب عند اليهود ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١

١٥ ـ التلمود ـ مجلة الأسطول ـ العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢

١٦ ـ إسرائيل ـ الكتاب الأول ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨ (وهو الجزء السابع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

١٧ ـ إسرائيل ـ الكتاب الثاني ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨ (وهو الجزء التاسع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

١٨ ـ إسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩ (وهو الجزء التاسع من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

١٩ ـ إسرائيل ـ الكتاب الرابع ـ الحضارة (وهو الكتاب العاشر من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم)

٢٠ ـ النبوة والأنبياء عند بني إسرائيل الاسكندرية ١٩٧٩

ثالثاً ـ في تاريخ العرب القديم :

٢١ ـ الساميون والآراء التي دارت حول موطنهم الأصلي مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد الرابع الرياض ١٩٧٤

٢٢ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية في العصور القديمة مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ العدد السادس الرياض ١٩٧٦

٢٣ ـ مركز المرأة في الحضارة العربية القديمة مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الأول الرياض ١٩٧٧ .

٢٤ ـ دراسات في تاريخ العرب القديم (وهو الجزء السادس من سلسلة دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم . وقد أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، تحت رقم (١) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٧٧ .

٢٥ ـ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الأول ، في بلاد العرب (أصدرته جامعة الإمام محمد بن سعو الإسلامية ـ تحت رقم (٢) من الرياض ١٩٨١ .

٢٦ ـ دراسة حول الديانة العربية القديمة ، الإسكندرية ١٩٧٨ .

٢٧ ـ العرب والفرس في العصور القديمة ، الإسكندرية ١٩٧٨ .

٢٨ ـ دراسات في الحضارة العربية القديمة .

٢٩ ـ الفكر الجاهلي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٨٢ (بحث في كتاب الحضارة الإسلامية على مدى أربعة عشر قرناً) .

رابعاً : في تاريخ العراق القديم :

٣٠ ـ قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة مجلة كلية اللغة العربية

والعلوم الإجتماعية - العدد الخامس الرياض **١٩٧٥** .

٣١ - قانون حمورابي وأثره في تشريعات التوراة، الإسكندرية **١٩٧٩** .

٣٢ - المدخل في تاريخ الشرق الأدنى القديم - (بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور رشيد الناضوري)، (جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) .

خامساً: سلسلة «دراسات تاريخية من القرآن الكريم»

٣٣ - الجزء الأول - في بلاد العرب، بيروت **١٩٨٨** .

٣٤ - الجزء الثاني - في مصر، بيروت **١٩٨٨** .

٣٥ - الجزء الثالث - في بلاد الشام، بيروت **١٩٨٨** .

٣٦ - الجزء الرابع - في العراق، تحت الطبع .

سادساً: سلسلة «في رحاب النبي وآل البيت الطاهرين»

٣٧ - السيرة النبوية - الجزء الأول، تحت الطبع .

٣٨ - السيرة النبوية - الجزء الثاني، تحت الطبع

٣٩ - الإمام علي بن أبي طالب، تحت الطبع .

٤٠ - الإمام الحسن بن علي، تحت الطبع .

٤١ - الإمام الحسين بن علي، تحت الطبع .

الفهـرس

الباب الثالث
سيرة يونس عليه السلام